كلية الآداب - جامعة عين شمس

التعليم المفتوح

كلية الآداب

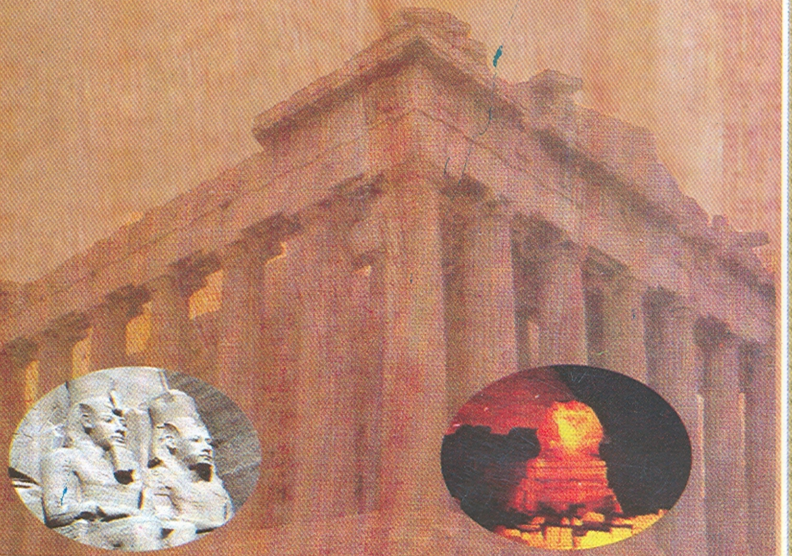


التاريخ المصرى القديم

من البداية إلى نهاية الدولة الوسطى

دكتورة
زكية طبوزادة
أستاذ التاريخ والآثار المصرية

دكتور
ممدوح الدماطى
أستاذ الآثار المصرية



كلية الآداب

التعليم المفتوح

التاريخ المصرى القديم

من البداية إلى نهاية الدولة الوسطى

تأليف

دكتورة
زكية طبوزادة
أستاذ مساعد التاريخ والآثار المصرية

دكتور
ممدوح الدماطى
مدرس الآثار المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتورة/ زكيـــه طبـــوزادة:

من علم المصريات إلى نهاية الدولة الوسطى

الدكتور / ممدوح الدماطى:

العصور الحجرية وما قبل التاريخ

أهداف الكتـــاب

١. أن يوضح أهمية دراسة التاريخ المصري القديم.

٢. أن يعرف أن هناك مرحلة طويلة سبقت الرحلة التاريخية تعرف باسم "عصور ما قبل التاريخ".

٣. أن يتعرف على فترات التاريخ المصري القديم إلي الدولة الوسطي.

٤. أن يستوعب فترات التاريخ المصري القديم حتى الدولة الوسطي.

٥. أن يفهم علم المصريات.

٦. أن يتعرف على الرواد من علماء الآثار.

الدكتور ممدوح الدماطى

العصور الحجرية وما قبل التاريخ

أهداف الجزء الأول

١. أن يعرف تقسيم العصور الحجرية في مصر.

٢. أن يعرف مواطن الحضارة في العصر الحجري الحديث في مصر.

٣. أن يوضح الطريق إلى وحدة وادي النيل.

٤. أن يتعرف على نماذج المصادر من الآثار التي سجلت عليها وحدة شطري الوادي.

٥. أن يتعرف على مجموعة من المصادر المختارة لآثار ما قبل التاريخ.

مواضيع الجزء الأول

١. عصور ما قبل التاريخ .

٢. العصور الحجرية: العصر الحجري القديم الأسفل، العصر الحجري القديم الأوسط، العصر الحجري القديم الأعلى.

٣. العصر الحجري الوسيط.

٤. العصر الحجري الحديث ومراكز الحضارة: حضارة مرمدة بني سلامة، حضارة دير تاسا.

٥. العصر النحاسي الحجري ومراكز الحضارة: حضارة البداري.

٦. عصر ما قبل الأسرات ومراكز الحضارة: نقادة الأولي والتتابع الزمني، نقادة الثانية، المعادي.

٧. الطريق إلي الوحدة – الأسرة صفر .

٨. صلاية نعرمر .

٩. مراجع مختارة.

١٠. صور.

عصور ما قبل التاريخ

العصور الحجرية

لقد عاش الإنسان منذ نشأته وحتى بداية العصور التاريخية – والتي يميزها معرفة الإنسان للكتابة – حقبة زمنية طويلة تقدر بأكثر من مليون سنة ، وإن قدرها بعض العلماء بحوالي مليوني سنة . وتعرف هذه الفترة الزمنية بعصور ما قبل التاريخ . وهي العصور التي مهدت على الرغم من طولها إلى العصور التاريخية فيما بعد . فقد عاصر الإنسان في بداياتها أحداث مناخية كبرى كتقدم الجليد وتراجعه ، وهطول الأمطار وانحصارها وذلك في عصر البليوستوسين . وقد تأثرت مصر وصحراتها بتلك الظروف قبل أن تستقر أحوالها المناخية . وعرف هذا الإنسان بصفة عامة بإنسان العصر الحجري ، حيث كان الحجر هو الأداة التي عرفها إنسان ذلك العصر واستخدمها في شتى مجالات حياته .

وقد تشابهت أحوال إنسان ذلك العصر في مصر مع مثيلاتها من مناطق التجمعات الأولى للعصور الحجرية القديمة في مختلف مناطق العالم المبكرون آنذاك ، فهو إنسان جامع للطعام يعيش على الصيد ويقتات من نبات الأرض . وقد استخدم لذلك أدواته الحجرية التي تطورت وتنوعت أشكالها مع الوقت لتتفق ووظائفها التي طالما استحدثت مع تطور الإنسان وتنوع احتياجاته .

ودراسة هذه الأدوات الحجرية هي التي مكنتنا من وضع تصور زمني لعصور ما قبل التاريخ ومراحل تطورها منذ عرف الإنسان الحجر كأداة له . وهذه العصور يمكن تقسيمها كالتالي[1]:

١– العصر الحجري القديم ، وينقسم بدوره إلى ثلاث عصور هي العصر الحجري القديم الأسفل والأوسط والأعلى .

٢– العصر الحجري الوسيط ، وهي مرحلة وسيطة بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث ، ولا يعترف كثير من العلماء بأهمية هذه الفترة ، أو بوجودها في مصر والشرق الأدنى .

[1] راجع : سليم حسن مصر القديمة ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ ، ص ١٧– ٦٣ ، و عبد العزيز صالح ، حضارة مصر القديمة وآثارها ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٥٦–٧٧ ، و علي رضوان ، الخطوط العامة لعصور ما قبل التاريخ وبداية الأسرات في مصر ، جامعة القاهرة ١٩٩٠/١٩٩١ ، ص ٨–١٣ ، و رمضان السيد ، تاريخ مصر القديمة ، الجزء الأول، هيئة الآثار المصرية – مشروع المائة كتاب ١٦ ، ص ١٤١–١٤٥ ، مصطفى عامر ، حضارات عصر ما قبل التاريخ ، في : تاريخ الحضارة المصرية ، الجزء الأول العصر الفرعوني ، دار النهضة العربية (بدون تاريخ) ، ص ٣٧–٤٣.

٣- العصر الحجري الحديث ، وهو آخر العصور الحجرية من حيث الزمن ، وقد عرف في مصر منذ الألف السادس قبل الميلاد . ويميز هذا العصر معرفة الإنسان للزراعة واستئناس الحيوان وصنع الفخار ، حيث أصبح الإنسان منتج لطعامه وليس جامعاً له .

٤- العصر النحاسي الحجري ، ويعتبر آخر العصور الحجرية، وقد عرف فيه الإنسان استخدام النحاس بجانب الحجر ، ولذلك سمي بالعصر النحاسي الحجري .

وسنقوم الآن بالتعرف على كل عصر من هذه العصور بشيء من التفصيل :

أولاً : العصر الحجري القديم Paleolithic

وهو أطول المراحل الزمنية في تاريخ البشرية وأشدها قسوة على الإنسان إذ كان يخضع لسلطان البيئة محاولاً التعايش مع كل تغيراتها بأدواته البدائية المحدودة من أفرع الشجر التي تبليت مع الزمن لطبيعتها العضوية الغير قادرة على الزمن ومتغيراته ، وكذلك أدواته الحجرية والتي تعتبر بالنسبة للدارسي آثار ما قبل التاريخ المادة الأساسية التي يعتمد عليها لمعرفة هذه الحقبة من تاريخ البشرية . بالإضافة إلى ما استخدمه من عظام الحيوانات وقرونها .

وكان إنسان ذلك العصر صائداً متجولاً ، جامعاً لثمار الشجر ونبات الأرض، باحثاً عن قوته ساعياً وراء رزقه . فاحترف الصيد وأتقنه ، فأحياناً كان يسوق فرائسه إلى مصائد يقيمها أو حفر يعدها ، وأحياناً أخرى يتنكر في جلود الحيوانات ليتمكن من الاقتراب من فريسته واقتناصها بسهولة . وبطبيعة الحال استغل جلود هذه الحيوانات وفرائها كملبس يقيه قسوة الطبيعة .

وخلال هذه الفترة الزمنية الطويلة للعصر الحجري القديم مر وادي النيل بمصر بمرحلتين طبيعيتين مختلفتين .

المرحلة الأولى ارتفع فيها مستوى ماء النيل ، وكانت الصحراء عبارة عن وديان تجري بها الأنهار وكثرت البحيرات وكانت بحيرة منخفض الفيوم هي أكبرها ، فقدرت مساحتها قدر مساحة بحيرة قارون الحالية أربعة عشر مرة ، وفاضت العيون بالواحات، حتى انتشرت الخضرة والغابات لتكون بيئة نباتية ملائمة للكثير من الحيوانات العشبية المختلفة كالغزلان والظباء والتياتل والأغنام والحمير وكذلك الفيلة والنعام ، بالإضافة إلى الحيوانات الكاسرة كالأسد والذئب والضبع . وهذا كما تظهره الرسوم التي خلفها إنسان ذلك العصر على صخور جبل العوينات بالصحراء الغربية وفي جنوبي مصر وبلاد النوبة وفي جبال البحر الأحمر .

وفي المرحلة الثانية وذلك خلال المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم ساد الجفاف وادي النيل وقلت الأمطار وهبط مستوى النيل وجفت الوديان في الصحراء وغلب على مصر البيئة الصحراوية وهجر الإنسان مواطنه الأولى وانتقل إلى مواطن جديدة تقترب من الشريط الضيق لوادي النيل . وقد

قسم العلماء تلك الفترة الطويلة للعصر الحجري القديم تبعا للأدوات الحجرية التي خلفها إنسان ذلك العصر إلى ثلاث عصور :

١- العصر الحجري القديم الأسفل[٢] Lower Paleolithic وهو أقدم هذه العصور وأطولها زمنا ، وقد قسم هذا العصر بدوره إلى ثلاث مراحل ، وهي ما قبل الشيلي Prochelléen والعصر الشيلي Chelléen (ويعرف العصران معا أيضا بالعصر الإيفيلي Abbévillien) ثم العصر الأشولي Acheuléen - نسبة إلى أسماء مناطق (Chelles, Abbéville & Saint Acheul) بفرنسا وهي المناطق التي وجدت بها آثار هذه الفترة لأول مرة - وقد عرف إنسان ذلك العصر إيقاد النار واستخدم الحجر في أولى أشكاله وهو ما يعرف بالفأس اليدوية . وهي عبارة عن قطعة من حجر الظران تأخذ الشكل اللوزي أو المخروطي في أغلبها ، وكان يتراوح طولها[٣] ما بين ٨سم و ٢٠سم ، وحرص عند تخرها أن تكون قاعدتها مناسبة لقبضة يده حتى يتمكن منها ، إذ كان يتركها بشكلها الطبيعي ما دامت ملساء لحد ما حتى لا تؤذي كفه حين يقبض عليها ، ثم يقوم بشطف قمتها وتشكيل جوانبها لتكون ذات حافات مشظاة ومسننة ، وخاصة في عصر ما قبل الشيلي . وفي العصر الشيلي كان يهذب القاعدة أيضا بما ييسر له القبض عليها . ثم زاد في تحديد وشطف الجوانب والقمة في العصر الأشولي لتكون أكثر حده بما ييسر له سهولة استخدامها في أغراضه المختلفة . وانتشرت آثار هذا العصر في مناطق متعددة في مصر مثل العباسية ، والصحراء الغربية فيما بين النيل والخارجة ، وأبيدوس ، ونجع حمادي ، وأسوان .

٢- العصر الحجري القديم الأوسط[٤] Middle Paleolithic ويعرف هذا العصر أيضا باسم عصر الحضارة الموسترية Moustérien (نسبة إلى كهف Le Moustier بفرنسا) . ويطلق عليه بعض العلماء عصر الحضارة اللفلوازية Levalloisien (نسبة إلى قرية Levallois-Perret بفرنسا) وهي المرحلة التي كانت قد شاعت من نهاية المرحلة الأشولية . كما عرف في مصر باسم عصر الحضارة السبيلية نسبة إلى قرية سبيل بكوم أمبو التي عثر فيها على بقايا من آثار هذا العصر . ويتميز هذا العصر بتنوع الأدوات الحجرية ، حيث وجدت أدوات ظرانية كبيرة الحجم نسبيا مستوية الوجه محدبة الظهر تشبه في مظهرها ظهر السلحفاة[٥] ، أعتاد أصحابها على شطف جوانبها وتهذيبها دون اهتمام بتهذيب سطوحها ، أما في مصر اعتاد

---

[٢] P. Honoré, Das Buch der Altsteinzeit, Düsseldorf . Wien 1967, 145ff.

[٣] سيد توفيق ، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ، دار النهضة العربية ١٩٩٠ ، ص ٥ .

[٤] P. Honoré, op. cit., 171f.; 185.

[٥] Ibid., 171.

أصحاب هذه الحضارة على تسوية سطوح أدواتهم الحجرية وتخليصها تماماً من قشورها الطبيعية وشكلوا رؤوسها بما اتفق مع أغراضهم . وبصفة عامة استخدم إنسان ذلك العصر الشظايا الدقيقة المشذبة الصنع والمدببة الأطراف . واستخدم كسرات من الظران كمكاكين ومحكات ومكاشط . كما عرفت أيضاً الأدوات العظمية ، وعثر في هذه المرحلة أيضاً على آثار للمواقد . وفي مصر وجدت آثار لهذا العصر في قرية سبيل بكوم أمبو ، ومنطقة العباسية، وبالقرب من نجع حمادي ، وأسوان .

٣- العصر الحجري القديم الأعلى[٦] Upper Paleolithic وعرف هذا العصر ثلاث مراحل حضارية وهي : الحضارة الأورنياسية Aurignacien (نسبة إلى كهف Aurignac بفرنسا) ، والسولترية Solutreen (نسبة إلى منطقة Solutré بفرنسا) ، والمجدالينية Magdalénien (نسبة إلى كهف La Magdeleine بفرنسا) ، وفي هذا العصر برزت الصبغة المحلية للحضارة المصرية وخاصة فيما عرفت بالحضارة السبيلية والتي اكتشفت في قرية السبيل بالقرب من كوم أمبو وكذلك في حضارة الخارجة بالصحراء الغربية ، كما تأثرت ببعض المؤثرات الخارجية ممثلة في الحضارة العاطرية المعروفة في شمال غرب أفريقيا . وقد تطورت الآلات الحجرية إذ قلت أحجامها ، وزاد تنوعها . وكانت الأدوات السبيلية في هذه المرحلة أكثر تطوراً عن غيرها ، وزاد أهلها من صناعة الشظايا وتنويع أشكالها فظهرت أشكال قرصية وأخرى تشبه المثلثات والأهلة وأشباه المنحرف ، عرفت في مجملها بالأدوات القزمية ، إذ تراوحت أطوالها[٧] بين ٢سم و ١٠سم . وقد استخدمت هذه الأدوات كمناحت لتشكيل الأدوات الصغيرة من العظام والقرون ، فضلاً عن استخدامها فيما يؤدي أغراض المخارز والمكاشط ، كما عرف منها أيضاً ما استخدم كرؤوس للسهام . وعثر على أدوات هذا العصر في منطقة حلوان ونجع حمادي وإدفو وكوم أمبو وأسوان والخارجة .

ثانياً: العصر الحجري الوسيط Mesolithic

ويمثل المرحلة الوسيطة بين العصرين الحجريين القديم والحديث ، وإن كان أغلب الباحثين لا يعترفون بهذا العصر في مصر ويعتبرونه امتداد للعصر الحجري القديم الأعلى ، وقد نسبت لذلك العصر بعض أدوات حجرية عثر عليها بوادي الشيخ شرقي مغاغة[٨] . إلا إنه يمكن القول بأنه عصر حاول فيه الإنسان إلى تحسين حالته وتحسين أدواته ما استطاع لذلك سبيلا .

---

[٦] راجع : Ibid., 244ff.

[٧] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

[٨] المرجع السابق ، ص ٧٤ .

ثالثاً : العصر الحجري الحديث Neolithic

وهو عصر الاستقرار والذي يعد بالفعل أول العصور الحضارية الذي تبلور فيه خلاصة تجارب الإنسان طوال العصور الحجرية السابقة له . وعرف هذا العصر في مصر حوالي منتصف الألف السادس قبل الميلاد تقريباً . وقد صاحب هذا العصر تغيرات مناخية وطبيعة أثرت في وادي النيل وغيرت من شكله . فأصبح الطقس أكثر دفئاً وقلت الرطوبة وضاق النيل وواديه وزاد الجفاف واتسعت رقعة الصحراء . ومع هذه التغيرات المناخية عرفت مصر نشاطاً بشرياً جديداً أدى إلى ظهور التجمعات العمرانية حول الشريط الضيق لوادي النيل .

وتعددت المظاهر الحضارية المرتبطة بهذا النشاط البشري الجديد ويمكن حصر هذه المظاهر في النقاط التالية[9] :

١- استئناس الحيوان ورعيه . وقد وجدت مخلفات للماشية والخنازير في الفيوم و مرمدة بني سلامة .

٢- الزراعة . وهو أهم حدث حضاري عرفه الإنسان لما ترتب علية من استقرار في المعيشة وتكوين القرية وظهور المجتمع المنظم ، وبالتالي تقدم ورقي في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية أيضاً بما يتفق وذلك العصر . وقد عرفت حرفة الزراعة في جميع مناطق حضارات العصر الحجري الحديث في مصر .

٣- تطور الأدوات الحجرية . فقد تطورت صناعة الأدوات الحجرية في أحجامها وأشكالها بما يلائم الحياة الجديدة . فصقلت أسطحها صقلاً كاملاً وشطفت الحواف شطفاً كاملاً ، وظهرت أدوات جديدة كرؤوس القوادم والفؤوس التي كانت تثبت في أيد خشبية وتربط بجلد الماعز . وظهرت أيضاً أسنان المناجل التي كانت عبارة عن قطع صغيرة مشرشرة من الظران ترص بجانب بعضها البعض في تجويف يمتد بطول يد خشبية طويلة ، وتثبت فيه بمادة لزجة كالصمغ أو الراتنج . كما تنوعت رؤوس السهام فظهر منها المفرطح والمشرشر الحواف ، ومنها ذو لسان كبيت عند قاعدته وبعضها مقعر القاعدة . وظهرت مناشير دقيقة من الظران وكذلك مخارز وإبر طويلة ورفيعة من العظم والظران لثقب الخرز وتشبيك الملابس سواء كانت من الجلد أو من الكتان .

كما ظهرت أيضاً مقامع القتال والتي تعتبر أداة حرب عرفت بأشكال كمثرية أو كرية من الحجر مثقوبة ومثبتة في يد قصيرة وغليظة من الخشب .

---

[9] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٧٨ – ٩٢ .

٤ - صناعة الفخار . فقد اهتدى إنسان وادي النيل إلى صلاحية الطمي لصناعة الأواني وخاصة بعد حرقه . وكانت في بدايتها أواني بسيطة خشنة تناسب ومتطلبات الحياة المحدودة . ثم زادت أشكالها ، وأدخل عليها عناصر زخرفية تناسب والذوق الفني ، وتطورت بما يتفق والمجتمع الحضاري الذي تمثله .

٥- نسج الكتان والحصير وجدل السلال والحبال . وهي صناعات مرت بمراحل طويلة من الملاحظة والتفكير والتجربة ، وقد مهدت هذه الصناعات لبعضها البعض .

وتعددت المواطن الحضارية للعصر الحجري الحديث في مصر ، والذي كانت بدايته مع منتصف الألف السادس قبل الميلاد . وانتشرت شمالاً وجنوباً بالقرب من وادي النيل ، وأهمها حضارة مرمدة بني سلامة شمال محافظة الجيزة ، حوالي ٥١ كم شمال غرب القاهرة ، وحضارة حلوان جنوب القاهرة، وحضارة الفيوم ، وحضارة دير تاسا شرق النيل بالقرب من البداري بمحافظة أسيوط . وسنكتفي هنا بالحديث عن حضارة مرمدة بني سلامة كنموذج لحضارات ذلك العصر من الشمال ، وحضارة دير تاسا كنموذج حضاري لجنوب مصر .

حضارة مرمدة بني سلامة (حوالي ٥٥٠٠ ق.م)

مرمدة بني سلامة هي أقدم مجتمع حضاري من العصر الحجري الحديث في مصر ، وتقع شمال محافظة الجيزة حوالي ٥١ كم شمال غرب القاهرة . وقد اكتشفها[١٠] هرمان يونكر Hermann Junker عام ١٩٢٨ وكان أول من حفر لها فيما بين ١٩٢٩-١٩٣٩ ، وفي السبعينات من القرن الماضي قامت هيئة الآثار المصرية بعمل حفائر لها بنفس الموقع[١١] ، وأخيراً حفائر المعهد الألماني للآثار الشرقية بالقاهرة[١٢] تحت إشراف يوسف أيفانجر Josef Eiwanger ، و ذلك من نهاية السبعينات

---

[١٠] H. Junker, Vorläufiger Bericht über die Grabung der Akademie der Wissenschaften in Wien auf der Vorgeschichtlichen Siedlung Merimde-Bani-Salame, 1-7, Wien 1929-1940.

[١١] F. A. Badawi, Die Grabung der ägyptischen Altertümerverwaltung in Merimde-Banisalame im Oktober/Noember 1976, in: MDAIK 34, 1987

[١٢] J. Eiwanger, Erste Vorbricht über die Wiederaufnahme der Grabungen in der neolithischen Siedlung Merimde-Banisalame, in: MDAIK 34, 1978; id., Dritter Vorbricht über die Wiederaufnahme der Grabungen in der neolithischen Siedlung Merimde-Banisalame; mit einem Beitrag von F. A. Badwi, in: MDAIK 36, 1980; id., Merimde- Banisalame I. Die Funde der Urschicht; und II. Die Funde der mittleren Merimdekultur, Mainz, 1984, 1988.

عن مرمدة بني سلامة أنظر أيضاً : J. Vandier, Manuel d'archéologie Égyptienne, I, Paris 1952, 95-153;

Michael A. Hoffman, Egypt before the Pharaohs, New York 1984, 167-181.

و عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٩٣ - ١٠٠ .

وحتى الثمانينات من القرن الماضي . واعتقد يونكر أن المجتمع المرمدي قد مرّ بثلاث مراحل حضارية . وتبعاً لأحدث الحفائر والاكتشافات التي قام بها أيفانجر وجد أنه قد مرّ بخمس مستويات حضارية[١٣] ، تميزت المرحلة الأولى بالشفرات الحجرية ، وأقدم أنواع الفخار المصري وهو فخار بدائي عشن خالي من الزخارف في أغلب الأحيان ، وذو زخارف بسيطة على هيئة حزوز تشبه شوك السمك في بعض الأحيان . وفي المرحلة الثانية اهتم أهل مرمدة بالعناية بأدواته وتطوير أحوالهم حتى وصل مجتمعهم إلى أفضل أحواله في الثلاث مراحل الأخيرة ، وتمتعت مرمدة بني سلامة بالسمات العامة للعصر الحجري الحديث . وكان المجتمع المستقر أهم هذه السمات بطبيعة الحال ، حيث دلت الحفائر التي قام بها يونكر على وجود قرية ذات طريق رئيسي مستقيم يصل طوله إلى ٨٠م أصطف على جانبيه مساكن بسيطة ، شيدها أهلها من الطين . لذلك رأى يونكر أنه يعتبر أقدم تخطيط للقرية ، كما يرى أن مجتمع مرمدة قد عرف التنظيم ، مما يدل على وجود سلطة شرعية شرعت التنظيم وأمرت بتنفيذه[١٤] .

وقد دلت حفائر يونكر على وجود آثار مواقد للنار من بداية مراحل العمران الأولى في مرمدة بني سلامة وقد ضاعت آثار مساكنها تماماً ؛ بالإضافة إلى نوعين من المساكن . اتخذ النوع الأول منها هيئة بيضاوية الشكل ، يقع جزء منها تحت مستوى سطح الأرض ، وشكلت جدرانها بكتل طينية ترتفع عن الأرض بأكثر من المتر بقليل ، وكان يسقف المسكن بعد ذلك بالحصير أو الجلد . وقد كانت في مجملها بيوت صغيرة الحجم تتراوح مساحتها بين ١ متر × ١,٥ متر وبين ٢ متر × ٣,٢٠ متر . ولم تكن لهذه البيوت البسيطة مداخل جانبية إنما كان ينزل إليها أصحابها بدرجة بسيطة كانوا يبنوها من الطين أو استخدموا بدلاً من الطين عظمة من ساق فرس النهر أو قطعة من ساق شجرة كانت تثبت مائلة على الجدار من الداخل أو الخارج[١٥] .

أما مساكن النوع الثاني فكانت أشبه بالأكواخ ، وقد دل عليه الحفر التي كان يثبت فيها أوتاد من البوص وفروع الشجر وكانت تغطى بالحصير أو الجلد .

وكمجتمع زراعي عرف أهل مرمدة تخزين الغلال وصنعوا لذلك سلال كبيرة جدلت من الخوص والقش ، كانت توضع في حفر على سعتها ثم تغطى بالطين ، كما غطيت جوانب بعض هذه الحفر من الداخل بالطين لكي تثبت السلال في أماكنها ، واستخدم لنفس الغرض أواني وجرار كبيرة من الفخار ، كانت تدفن في الأرض حتى حافتها ثم تغطى أيضاً بالطين . وكانت توضع هذه السلال أو

---

[١٣] J. Eiwanger, Merimde-Bani-Salame, in: LÄ 4, 94-96.

[١٤] سيد توفيق ، المرجع السابق ، ص ١١ .

[١٥] أنظر J. Vandier, op. cit., 111-112.

الجرار إما في داخل بيوت أصحابها أو بجوارها . كما عرف المجتمع المرمدي أجران تذرية الغلال ، وقد كانت عبارة عن حفر مستديرة قليلة العمق يبلغ قطرها نحو أربعة أمتار ، وكانت تغطى جوانبها بالحصير[16] . واستعمل أهل مرمدة مناجل من الظران ، كما استخدموا سكاكين من الظران وفؤوس القتال ، وكذلك السهام ودبابيس القتال ، كما استعملوا حراب و سنانير وابر ومثاقب مصنوعة من العظم . وعرف أهل مرمدة أيضا أدوات الزينة ، فقد عثر على عقود من المحار أو أسنان الخنزير البري ، وحلقات من العاج ، وكذلك على بعض حبات من الخرز وخواتم وأساور من العظم وأيضا على أصداف مثقوبة[17] .

وحيث أن " صناعة الفخار " من أهم سمات العصر الحجري الحديث ، فقد وجدنا في مرمدة صناعة فخارية بدائية خشنة غير مصقولة ، لم يشكل عليها أي مناظر زخرفية في بادئ الأمر ، ثم عرف بعضها بزخارف ذات حزوز تشبه شوك السمك ، وكان لبعضها نتوءات حول حوافها أو مقابض جانبية إما لحملها وإما لتزينها ، كما وجد لبعضها ثقوبا خشنة عند حوافها لتعليقها منها . كما كان لبعضها قواعد ، فقد عثر على إناء شكلت قاعدته على شكل قدم آدمية ، بالاضافة إلى أنهم صنعوا أواني صغيرة مزدوجة ، مما يشير إلى الذوق الرفيع على الرغم من أنها كانت بداية صناعة الفخار ، وعثر أيضا على شكل من الطين الصلصال (الفخار) ، مثل على هيئة جذع يعتقد أنه جذع لسيدة . وعثر أيضا على نموذج صغير لقارب من الفخار يعتبر من أقدم الشواهد على أن المصري القديم قد عرف ركوب النيل منذ العصر الحجري الحديث .

ومن الحفائر التي قام بها المعهد الألماني للآثار الشرقية عثر على رأس من الفخار . اعتقد البعض أنها رأس لكبير (شيخ القبيلة ، الحاكم ، المعبود) . وهي تشكيل من الفخار لرأس شكل بها تجويف للعينين والأنف والفم ، ويرى أعلى الرأس ثقوب يعتقد أنها لتثبيت جدائل من الطين تشبه الشعر (أنه صنع لها باروكة شعر) . وأسفل الرأس عند الرقبة يوجد ثقب مما يدلل على أن تلك الرأس كانت مثبتة على ساق خشبية . مما يشير إلى أنها كانت مثبتة في ساحة أو مكان ما يعتقد أنه أصل للمعبد المصري ، أو أنها كانت مثبتة في الساحة الرئيسية كلواء أو شارة لهذا المجتمع أمام بيت الحاكم (شيخ القبيلة ، رئيس العشيرة) وبذلك يمكن القول بأن المصري القديم في حضارة مرمدة بني سلامة قد عرف الدين .

أما عادات الدفن في مرمدة بني سلامة فهي ذات طابع خاص ، حيث وجدت الدفنات بين المساكن وليست في جبانة مستقلة ، وكان للدفن عبارة عن حفرة بسيطة يدفن فيها الميت في وضع القرفصاء

---

[16] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

[17] سيد توفيق ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

وموضوعاً على جانبه الأيمن في أغلب الأحوال ويتجه بوجهه ناحية مسكنه الذي يوجد بالنسبة له ناحية الشرق أو الشمال الشرقي في أغلب الأحوال[18] ، وهو بذلك يكون متجهاً بوجهه ناحية النيل[19] . ولم يزود أهل مرمدة بني سلامة موتاهم بقربان خاص إلا بحفنة من القمح كانوا يضعونها أحياناً عند أفواههم . وربما اعتقدوا أن موتاهم ليسوا بحاجة إلى قربان خاص ، فهم مدفونون معهم وبجوار مساكنهم ، وهم بذلك يشاركون أهلهم وذويهم في الحياة والمأكل والمشرب .

حضارة دير تاسا (حوالي ٥٠٠٠ ق . م)

تقع دير تاسا شرق النيل ١٣ كم غرب أبو تيج بالقرب من البداري بمحافظة أسيوط ، وقد قام كل من سامي جبره وجي برونتون Guy Brunton بالكشف عنها عام ١٩٢٧[20] . وتمثل هذه الحضارة نموذجاً راقياً لحضارات الصعيد من العصر الحجري الحديث .

واعتمد البحث عن آثار هذه الحضارة على محتويات مقابرها وأكوام قليلة متفرقة ، فقد كانوا يدفنون موتاهم في جبانة مستقلة عن مناطق سكناهم والتي لم يوجد آثارها بمنطقة المقابر بخلاف ما كان عليه الوضع في مرمدة بني سلامة . والمقبرة التاسية كانت في أغلب أحوالها حفرة بسيطة بيضاوية الشكل يبلغ عمقها قرابة المتر أو أكثر بقليل ، كما يبلغ قطرها العريض أكثر من متر وربع بقليل . وقد وجد في الجدار الغربي لأغلب هذه المقابر فجوة صغيرة كان يوضع فيها إناء من الفخار ، بالإضافة إلى بعض الأشياء الأخرى التي تحويها المقبرة والتي تعتبر أقدم مثال لما يمكن أن يسميه المرء بالأثاث الجنائزي ، والذي كان يصاحب المتوفى فيما بعد . وكان يدفن الميت فيها على جانبه الأيسر وهو في وضع القرفصاء ، بحيث يتجه رأسه إلى الجنوب ووجهه ناحية الغرب[21] . وبذلك يكون الوجه أيضاً تجاه النيل[22] .

أما عن دفن المتوفى في وضع القرفصاء فهو وضع معرف في دفنات العصر الحجري الحديث في مصر بصفة عامة . وقد تضاربت فيه الآراء ، فيرى البعض أنه يمثل وضع الجنين في بطن أمه الذي يأخذ وضع القرفصاء ، ويرى في ذلك أن المتوفى يمثل وكأنه في بطن أمه (الأرض) والتي يولد منها لحياة أخرى ، وهي فكرة جيدة في حد ذاتها ، ولكنها فكرة لا يمكن تصورها في ذلك الوقت ، وإن

---

[18] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٩٦ .

[19] علي رضوان ، الخطوط العامة لعصور ما قبل التاريخ وبداية الأسرات في مصر ، جامعة القاهرة ١٩٩٠/ ١٩٩١ ، ص ٣٣ .

[20] S. Gabra, Fouilles du Service des Antiquités á Dier Tasa, in: ASAE 30 (1930), 147ff.; G. Brunton, Mostagedda and the Tasian Culture, BMF, London 1937.
عن دير تاسا أنظر أيضاً J. Vandier, op. cit, 167-180. و عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ - ١١٢ .

[21] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

[22] علي رضوان ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

صحت لكانت فكرة ذات مدلول ديني مرتبط بالعقيدة وبالتالي ما كان لها إلا أن تستمر لأن الحضارة المصرية قائمة بشكل أساسي وواضح على العقيدة، لكنه وضع انتهى قبل بداية العصور التاريخية. رأي آخر رأى فيه برونتون أنه يمثل وضع النائم العادي حين يستغرق في نومه واستدل على ذلك بوجود الوسادات التي عثر عليها تحت رؤوس الموتى في دير تاسا . كما أن هناك رأي ثالث وهو أنه وضع اعتاده أغلب أهل فجر التاريخ نتيجة لضيق مساحة الحفرة التي كانوا يستطيعون حفرها بأدواتهم البسيطة[٢٣] ، و كان بذلك يكتفي بمكان يوضع فيه المتوفى في أصغر حجم ممكن وبالتالي مع نهايات عصر ما قبل التاريخ ومع زيادة وتنوع الإمكانيات زاد حجم القبر وأصبح يأخذ الشكل المستطيل ، وتخلى المصري عن الدفن في وضع القرفصاء ودفن مستلقياً بطوله .

ومن أهم المقابر التاسية التي عثر عليها المقبرة التي رقمها برونتون برقم ٢٤٨٠ وهي مقبرة لسيدة تحتضن طفلها الرضيع ، وضعت رأسها على وسادة من القش، وكفن جسدها بحصير ، ووضع بجوار رأسها لوحة صغيرة من الألباستر مستطيلة الشكل ، ظهرت آثار مسحوق أخضر على أحد وجهيها ، وآثار مسحوق أحمر على وجهها الآخر ، ووجد معها حصاة صغيرة من الفلسبار ، استخدمت في سحق اللونين الأخضر والأحمر ، كما عثر أيضاً على خرزة كبيرة من الألباستر وملعقة صغيرة من العاج ، وإناء من الفخار وجد بجوار ركبتها ، وعصا مدببة صغيرة من العاج ، بينما وجد على جسد الطفل ملعقة أخرى من العاج وعقد من ثماني عشر ودعة .

وبالتعقيب على هذه المقبرة وما وجد فيها بالإضافة لما عثر عليه في المقابر الأخرى في دير تاسا ، يمكننا عمل تصور لعادات وعقائد المجتمع التاسي ، والتي يمكن تحديدها كما يلي :

١- التكفين : فقد عرف التكفين اعتباراً من عصر دير تاسا على أقل تقدير . وقد استخدم التاسيون الحصير في التكفين كما هو الحال مع صاحبة المقبرة ٢٤٨٠ ، بالإضافة إلى استخدام الجلد والكتان ، كما استخدموا أيضاً الكتان مع الحصير ، أو الجلد مع الحصير ، أو كتان وجلد وحصير . وبطبيعة الحال ترتبط الأسلوب المتبع في التكفين بثراء المتوفى ، فقد عثر برونتون في إحدى المقابر على سيدة عجوز مكفنة في سبعة جلود ووضع معها إناء صغير ثم غطيت العجوز والجلود والإناء بفراء كبيرة لكبش .

٢- أدوات الزينة : وقد عرف التاسيون وخاصة المرأة الزينة والتزين ، فقد وجدت لوحات صغيرة من الألباستر أو من الحجر الجيري كانت تستخدم لصحن الكحل والمغرة الحمراء وهما مادتان عرفتا في تزين المرأة ، بالإضافة لما وجد في مقبرة السيدة من الملاعق العاجية ،

[٢٣] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

وكذلك الحرزة الألباستر والتي ربما كانت جزء من قلادة ، وأيضا قلادة الودع التي وجدت على جسد الطفل . كما تضمنت المقابر التاسية عددا لا بأس به من الحلي التي صنعها أصحابها من العاج والعظم والقواقع والحصوات الحجرية الصغيرة ، والتي تزين بها الرجال والنساء والأطفال على حد سواء .

٣- الأثاث الجنائزي : إن ما وجد من متاع في المقابر التاسية كأواني فخارية ، وأدوات زينة كلوحات سحق مساحيق التجميل ، وحلي ، وأدوات صيد ، وغيرها من المتاع الشخصي لأصحابها ليمد في جملة أدوات وأشياء رغب صاحبها في اقتنائها إما باعتبارها أشياء محببة له أراد أن تصاحبه في العالم الآخر ، وإما اعتبرها أشياء ضرورية يحتاج إليها لينتفع بها في العالم الآخر ، وهي بذلك تعد أثاثا جنائزيا في مراحله الأولى ، حيث لم ينضج الفكر الديني والعقائد الجنائزية بعد .

كما عثر في بعض المقابر التاسية على ما يمكن أن يعتبر الشكل الأول للتابوت وهو عبارة عن سلة مستطيلة من البوص والأغصان يغطيها حصير وكان يوسد فيها طفل[٢٩] .

وشهدت صناعة الفخار في دير تاسا تنوعا وتميزا ملحوظا ، فقد صنع التاسيون نوعا من الفخار شكل إلى هيئة زهرة التيوليب ، أخذ بعضها اللون الأسود المصقول . وقد زخرفت أوانيهم بزخارف عديدة، منها تموجات أو حزوز بسيطة مستقيمة أو مائلة ربما شكلت بأمشاط صغيرة أو بقطع من الليف بالإضافة إلى أشكال هندسية المستطيل أو المثلث ، كما حفرت بعض هذه الزخارف وملأت بعجائن بيضاء تشبه الجبس ، وشكل بعضها الآخر بنقط محفورة متجاورة ملأت هي الأخرى بنفس النوع من العجائن البيضاء . وبالتالي اتسمت هذه الأواني بالمهارة والذوق الرفيع ، حتى أن التاسيين حرصوا على ترميم أوانيهم وإصلاحها إذا ما تشققت أو كسرت .

رابعا: العصر النحاسي الحجري Chalcolithic

وهو عصر عرف فيه استخراج معدن النحاس وصنعت منه أدوات صغيرة جنبا إلى جنب مع الأدوات الحجرية لذلك أطلق عليه العصر النحاسي الحجري كما عرف أيضا بعصر بداية المعادن . وقد تطورت فيه مظاهر العمران والحضارة بشكل ملحوظ ، وانتشرت المراكز الحضارية لهذا العصر في أماكن عديدة في مصر ، فنجدها في منطقة البداري بأسيوط ، ومنطقة نقادة والعمرة ، وما حولهما في قنا وسوهاج ، ومنطقة أبو صير الملق وجرزة عند مدخل الفيوم ، ومنطقة المعادي وطرة وعين شمس عند رأس الدلتا القديمة . وتعتبر حضارة البداري هي أقدم المراحل الحضارية لهذا العصر في

[٢٩] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

مصر ، أما المناطق الحضارية الأخرى وهي الأكثر تطوراً تعرف أيضاً اصطلاحاً بعصر ما قبل الأسرات ، ويقصد بهذا العصر تحديداً الحقبة الزمنية بين عصر البداري وعصر بداية الأسرات المصرية والذي تزامن وبداية العصر التاريخي أيضاً .

وسنتناول هنا كل من حضارات البداري وعصر ما قبل الأسرات بشيء من التفصيل :

حضارة البداري: (حوالي ٤٥٠٠ ق . م)

وتقع البداري على الضفة الشرقية للنيل حوالي ٣٠ كم جنوب أسيوط ، وقد قام جوي برونتون Guy Brunton و جرترد كاتون-طومبسون Gertrude Caton-Thompson بالحفر في البداري وما حولها[٢٥] فيما بين عام ١٩٢٢ - ١٩٢٥ وسجلوا حوالي ٦٥٠ مقبرة تنتمي لذلك العصر وما تلاه[٢٦] . أما المقابر البدارية فقد اتخذت في أغلبها الشكل البيضوي ، واتخذ بعضها هيئة الاستدارة ، والبعض الآخر هيئة الاستطالة وإن ظلت أركانها ملفوفة مدورة . يوجد فيها المتوفى في وضع القرفصاء ، وغالباً ما يرقد على جانبه الأيسر ورأسه للجنوب ووجهه ناحية الغرب . وبالإضافة إلى هذا التنوع في شكل المقابر البدارية فقد اتسمت أيضاً ببعض الظاهر المتطورة والتي تميزها عن سابقتها من دير تاسا مثل[٢٧] :

١- تبطين الجدران الداخلية للمقبرة بالحصير ربما لتحديد جوانب المقبرة وحماية الجثة من انهيار الرمال عليها .

٢- وجود مسطحين في أرضية بعض المقابر أحدهما يعلو الآخر ، وهو الذي كان يوضع عليه الأواني ، ربما بديلاً عن الكوة الصغيرة الجانبية في المقابر التاسية والتي لم تعد تظهر في المقابر البدارية . أما الجثة فكانت توجد على المسطح المنخفض للمقبرة .

٣- عثر في بعض المقابر على ثقوب بها بقايا خشبية ، وعصي طويلة متفرقة وقطع كبيرة من الحصير وأغصان متشابكة . كانت تتألف في مجملها إما لوحة عريضة أو سرير منخفض يوجد عليه المتوفى . وإما أن تكون هذه اللوحة العريضة قاعدة لتعريشة تحمي الجثة من انهيار الردم عليها وبالتالي فإن العصي تمثل دعائمها والحصير سقفها، وهي بذلك مرحلة من

---

[٢٥] Guy Brunton, Qau and Badari I-III, BSAE 44, 45, 50, 1927, 1928, 1930; Guy Brunton and Gertrude Caton-Thompson, The Badarian Civilisation and Predynastic Remains Near Badari, BASE 46, 1928.

انظر أيضاً :

J. Vandier, Manuel d'archéologie Égyptienne, I, Paris 1952, 191-230; Michael A. Hoffman, Egypt before the Pharaohs, New York 1984, 136-144.

وكذلك : عبد العزيز صالح ، حضارة مصر القديمة وآثارها ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٨٠، ص ١١٤ - ١٢٦ .

[٢٦] Michael A. Hoffman, op. cit., 136

[٢٧] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١١٦ - ٨ .

مراحل تطور التابوت . أو أن العصي والأغصان والحصير كانت تستخدم في تسقيف القبر كله بسقف واحد .

٤- كانت أغلب المقابر البدارية مقابر فردية وليست جماعية .

٥- العثور على قدور واسعة قائمة في الأرض بجوار مقابر أصحابها ، بالإضافة إلى العثور على أوان أخرى بها بقايا طعام داخل المقابر ، بما يعد دليلاً على تزويد الموتى بالقرابين .

٦- تزويد بعض المقابر بتماثيل نساء صغيرة من الطين أو الفخار أو العاج ، والتي كان بعضها من المقتنيات الشخصية لأصحابها ، وربما رمز بعضها الآخر إلى رغبة أصحابها في اصطحاب الإماء والجواري معهم في العالم الآخر .

وكانت مساكن البداريين تقع إلى الغرب من مقابرهم ، وكانت تصنع أغلب الظن من مواد هشة لم يبق عليها الزمن فلم يعثر على آثار ظاهرة منها ، إلا أن برونتون قد لاحظ أنها كانت لا تزال عالية عن حافة الأرض الزراعية ، وذلك يعني أن ضفة النيل كانت لا تزال حافلة بمناقعها وأحراشها ، كما لاحظ وجود حواجز من الدبش قرب ضفاف الوديان الصحراوية الصغيرة ، اعتقد أنها كانت جدران بدائية لحظائر الأغنام والماشية[28] . والتي كانت تدفن في مدافن خاصة ، فقد عثر على دفنات للأبقار والماعز والخراف والكلاب ، وجدير بالذكر أن أصحابها كانوا قد كفنوها بالحصير والكتان ربما اعتزازاً بها[29] ، وربما يعد هذا ظاهرة أولى في تفكير المصري القديم في تقديس بعض الحيوانات واتخاذها رموز مقدسة لبعض معبوداتهم فيما بعد[30] .

ومن دراسة محتويات هذه المقابر نجد أن البداريين قد اهتموا بالتزين وأدوات الزينة ، فقد عثر على لوحات من الإردواز والمرمر لطحن مساحيق التجميل ، وأساور من العاج ، وخرزات من العظم أو النحاس أو أحجار متنوعة مثل العقيق الأحمر واليشب الأحمر والأخضر والزلط الملون وأحجار أخرى رمادية وبيضاء ، كانت تثقب بمثاقب من النحاس و تلضم بإبر من النحاس أو العظم أو العاج . فكانت تجمع هذه الخرزات في خيوط من الكتان أو من شعر البقر واستخدموها كقلائد وأساور ، وتزينوا معها بخواتم وشنوف للآذان والأنوف من العاج أو العظم ، كما استخدموا أمشاط صنعوها من العظم والعاج ، وشكلوا أجزائها العليا في بعض الأحيان بأشكال على هيئة رؤوس الطير . وربما عرفوا الزيوت النباتية في تدليك أجسادهم .

---

[28] المرجع السابق ، ص ١١٦ .

[29] سيد توفيق ، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ، دار النهضة العربية ١٩٩٠ ، ص ١٦ .

[30] رشيد الناضوري ، دراسات مقارنة في حضارات مصر وغرب آسيا من عصور ما قبل وقبيل الأسرات حتى بداية النصف الثاني من الألف الأول ق.م ، الاسكندرية ١٩٥٦ ، ص ٣٦ .

وقد عثر ضمن محتويات مقابرهم على ملاعق من العاج اتخذت تجاويفها أشكال المستطيل أو المربع أو الشكل البيضوي ، كما شكلت مقابضها بأشكال حيوانية وحلزونية مختلفة تدل على الذوق الرفيع لأصحابها .

وقد أهتم البداريون بتكفين موتاهم واستخدموا لذلك الجلد والكتان ، كما أنهم احتفظوا بملابسهم الدنيوية تحت أكفانهم وقد دلت هذه الملابس على أنهم قد استخدموا نوعاً خشناً من الكتان صنعوا منه ملابس قصيرة ، وكانوا يلبسون فوقه جلد أوجلدين من جلود الماعز ربما عندما يشتد البرد .

وأهتم البداريون بصناعة الفخار فظهرت أنواع عديدة منها أواني متفخخة ، واستخدموا فخار أسود مصقول ، وفخار عرف بالفخار ذو الحافة السوداء ، واعتنوا برقة جدران أوانيهم . وقد استفادوا من زخرفة الفخار التاسي في تحلية الجدران الخارجية بخدوش دقيقة وتموجات بسيطة ، بالإضافة إلى بعض الأشكال الهندسية المتجانسة ، إلا أنهم أضافوا زخارف داخلية ، فقد زينوا قيعان الأواني بأشكال نباتية كسنابل الغلال ونسيج الحصير ، وخطوط متقاطعة تشبه ما يطلق عليه اصطلاحاً الصليب المالطي . كما ظهرت زخارف لينة تشبه أوراق الشجر وغصون النباتات ولفات الحبال ، أما الزخارف الغائرة على سطوح الفخار فقد أكتفوا بحفرها بعمق بسيط لا تلحظه العين إلا بالتدقيق .

ولقد عرف البداريون صيد الطيور المائية ، ويستدل على ذلك من عصا الرماية المقوفة وهي مصنوعة من الخشب ، وقد وجد منها اثنان في مقابرهم . وهي نفسها العصا المعروفة لدى المصريين طوال عصورهم التاريخية القديمة وكثر تصويرها على جدران المقابر في مناظر الصيد طوال العصور الفرعونية . ويعتقد علي رضوان أنها كانت تمثل عصا سحرية أو صولجان يرجى به دفع الشر ، وكانت تستخدم في بعض الشعائر الدينية في حياتهم اليومية[٣١] .

ومن اللطيف أن زودت بعض المقابر بتماثيل نساء صغيرة ، فقد عثر على سبع تماثيل صغيرة ، أربعة منها شكلت من الطين ، واثنان من الفخار ، وواحد من العاج ، ويعتقد أن بعضها كان من المقتنيات الشخصية لأصحابها ، وربما رمز بعضها الآخر إلى رغبة أصحابها في اصطحاب الإماء والجواري معهم في العالم الآخر[٣٢] .كما يمكن أن تكون تماثيل النساء ذات علاقة وثيقة بالديانة ، وخاصة أن فكرة الدين والعقيدة واضحة في حضارة البداري ، وتماثيل المرأة يجسد آلهة الأمومة[٣٣] .

---

[٣١] علي رضوان ، الخطوط العامة لعصور ما قبل التاريخ وبداية الأسرات في مصر ، جامعة القاهرة ١٩٩٠/ ١٩٩١ ، ص ٤٥ .

[٣٢] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١١٩ ، ١٢٣ – ١٢٤ .

[٣٣] رشيد الناضوري ، المرجع السابق ، ص ٣٦.

عصر ما قبل الأسرات

وهي حقبة حضارية تنتمي تقسيماً للعصر النحاسي الحجري إلا أنها كانت أكثر تطـــوراً في شتى مجالات الحياة ، كما تبلورت فيها المقومات التي أدت إلى العصور التاريخية والتي أعقبتها مباشرة ، حيث أنه تكونت أثناء تلك الفترة المبادئ والتقاليد السياسية والاقتصادية والدينية التي كانت بمثابـــة الأسس الرئيسية للحضارة المصرية القديمة في عصورها التاريخية ، وبذلك تعتبر من أهم مراحل تــاريخ الإنسان لأنها خلاصة تجاربه على مدار العصور الحجرية الطويلة السابقة ، ويقصد بهذا العصر تحديـداً الحقبة الزمنية بين عصر البداري وعصر بداية الأسرات المصرية والذي تزامن وبداية العصر التـــاريخي أيضاً ، وقد دامت هذه الفترة قرابة ألف سنة حوالي ٤٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق . م ، إلا أنه كان هنـــاك اختلاف وتفاوت في المستوى الحضاري المادي والفكري بين مجتمعات تلك الفترة مما يدفع البـاحثين في تلك المرحلة الحضارية إلى تقسيمها تقسيماً زمنياً وإقليمياً[٣٤] . ويشمل هذا العصر في مصر بصفـة خاصة حضارتي نقادة الأولى والثانية في الصعيد وحضارة المعادي في الدلتا .

أولاً : نقادة الأولى (حوالي ٤٠٠٠ – ٣٦٠٠ ق . م)

تقع نقادة حوالي ٢٧ كم شمال الأقصر على الضفة الغربية للنيل بالقرب من ديـــر البـــلاص بمحافظة قنا . وقد قام بالحفر في منطقة نقادة وما حولها كل من وليام ماتيو فلندرز بـتري William Mathew Flinders Petrie و جمس إدوارد كويبل James Edward Quibell فيمـــا بـين عـام ١٨٩٤ - ١٨٩٥[٣٥] . ويطلق على حضارة نقادة الأولى[٣٦] أيضاً حضارة العمرة نســـبة إلى تشـــابها وتزامنها مع ما كشف عنه في العمرة بالقرب من أبيدوس .

وفي واقع الأمر فإن نقادة التي ينسب إليها هذه الحضارة ما هي إلا جبانة لمنطقة حضارية تبعد عنـــها حوالي ٧ كم شمالاً وهي مدينة نوبت القديمة والمعروفة حالياً باسم طوخ في مواجهة مدينة قفط . وقد

---

[٣٤] اختلف العلماء في تفسير أصول حضارات تلك المرحلة وعلاقاتها الحضارية والسياسية بعضها البعض ، فمنهم مـن يـرى وجـود مكونات خارجية من الشرق الأدنى القديم أو من الجنوب النوبي أو من الغرب الليبي ، ومنهم من يرى أنها حضارات محلية اختلفت أصولها ومقوماتها من بعضها . ولا تزال هذه المشاكل محل دراسة الباحثين في ضوء الأدلة الأثرية والاكتشافات الحديثة .

[٣٥] William Mathew Fliders Petrie and James Edward Quibell, Naqada and Ballas, ERA 1, 1896

انظر أيضاً : J. Vandier, op. cit, 231ff.; Michael A. Hoffman, op. cit., 105ff.;

وكذلك : عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ وما بعدها .

[٣٦] وقد انتشرت سمات هذه الحضارة في مواقع عديدة مثل دير البلاص والدير وهو والعمرة والمحاسنة حتى وصلت حدودها من الشـلال جنوباً إلى الكوم الأحمر والمحاسنة من الشمال . راجع : رشيد الناضوري ، المدخل في التحليل الموضوعي المقـارن للتـاريخ الحضـاري والسياسي في جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا ، الكتاب الأول ، دار النهضة العربية ١٩٦٨ ، ص ١٨٤ .

استمر التطور الحضاري من بعد البداري ليصل إلى مرحلة من الرقي في شتى مجالات الحياة ، فزاد أهل نقادة من استخدام النحاس ، وارتقوا بمساكنهم وعادات دفنهم ، وفخارهم وصناعاتهم ، وكذلك بفنون النقش .

وقد عاش أهل نقادة في مساكن بسيطة شبه بيضاوية بنيت من الطين وكسر الدبش وقد هبط جزء منها تحت مستوى سطح الأرض ، ولبست جدرانها من الداخل بالطين وكسيت بالحصير والبوص ، وعلى الرغم من أن ما تبقى من هذه المساكن لا يسمح بمعرفة هيئتها العامة من الخارج ولا شكل سقفها ولا كيفية الدخول إليها ، فلا أنه قد لوحظ أن جدرانها تميل إلى التقوس في أجزائها العليا ، ربما لتضيق مساحة سقفها الذي كان يغطى أغلب الظن بفروع الشجر والبوص[٣٧] .

ودفن موتاهم في مقابر بسيطة عبارة عن حفرة دائرية لا تختلف كثيراً عن مقابر البداري[٣٨] ، وكان يكفن بجلد ماعز تتشابك أطرافه بدبوس نحاسي[٣٩] ، أو بحصير ، وقد وجدت مقابر جماعية ظن فيها إبرهارد أوتو Eberhard Otto أنها كانت مقابر عائلية ، أو أنها ضمت أتباع المتوفى اللذين دفنوا مع سيدهم لخدمته في العالم الآخر[٤٠] . وكان يصاحب موتاهم كميات كبيرة من الأواني والحلي .

واستخدم أهل نقادة أنواع عديدة من الفخار ، منها الفخار الأحمر المصقول ، والفخار الأحمر ذي الحافة السوداء ، والفخار ذي الزخارف البيضاء ، وقد تنوعت هذه الزخارف فمنها زخارف شبه هندسية ، ورسومات بشرية ، وحيوانية ، و نباتية . وكان أكثر فخارهم شيوعاً هو الفخار ذو الخطوط البيضاء المتقاطعة وقد انتشر هذا النوع في الصعيد ، وقد صاحب زخرفة هذه الأواني زخارف هندسية مثل الخطوط المتموجة أو الزجزاجية ، أو الخطوط المتقاطعة داخل مستطيل أو على هيئة أهلة داخل مثلثات أو مثلثات صغيرة تتصل ببعضها البعض وقد تملأ في بعض الأحيان بمادة بيضاء .

كما صنعوا أشكال عديدة من الفخار ، وكانت أغلبها متسعة قليلة العمق كالطواجن والصحون ، وبعضها عميقة ضيقة مثل الأكواب والكؤوس ، ومنها أواني ذات شعبتين أو ثلاث شعب ، كما كان لبعض هذه الأواني قاعدة مرتفعة على هيئة الكأس ، وبعضها بقوائم ثلاث أو أربع[٤١] .

وقد عبر أهل نقادة بزخارفهم ورسومهم عن جوانب من حياتهم وسمات حضارتهم ، وجرت عادتهم على رسم الصور الآدمية والحيوانية في وحدات مستقلة عن بعضها ، إما فوق بعضها أو بجانب

---

[٣٧] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

[٣٨] Barbara Adams, Predynastic Egypt, Shire Egyptology 1988, 16 – 17.

[٣٩] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

[٤٠] سيد توفيق ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .

[٤١] J. Vandier, op. cit, 262f.

بعضها دون أن تخفي إحداها الأخرى أو تقطعها ، كما صورت الحيوانات ذوات الأربع عن الجانب فيما عدا القرنين إذا كانا مقوسين مثل قرني الثور فقد أعتاد على تصويرها من الأمام . وأهم الوحدات الزخرفية بجانب الإنسان صور التمساح و فرس النهر والمراكب وأسماك النيل والبقرة والكلب والحمار والوعل والفيل والزرافة والثور الوحشي والعقرب وسلحفاة الماء والنمس والثعلب وابن آوى ، وقد صورت في أشكال سريعة مختصرة وإن تمتعت بالرغم من ذلك بحيوية مقبولة . فقد صوروا راقصين وراقصات فرادى أو في جماعات في حركات شبه تمثيلية ، وزينت رؤوس الرجال منهم بريش طويل ، وقد مثلت المناظر الآدمية بصفة عامة دون تفصيل في الملامح بخلاف ما صورت عليه المناظر الحيوانية من إظهار لتفاصيلها . وكانت مناظر الصيد سواء كان في البر أو في النهر من أهم المواضيع الممثلة على فخار نقادة الأولى ، كما أعتاد أهل نقادة برسم علامات مفردة ومختصرة لبعض الحيوانات أو النباتات وأحياناً خطوط مستقيمة أو متقاطعة ، ورمزت هذه العلامات إلى أصحابها أو صناعها ، ورمز بعضها إلى معبودات أصحابها ، كما رمز بعضها إلى الأوضاع السياسية في عصره ، فصورت هيئة التاج الأحمر لأول مرة على سطح أحد الأواني ، وصوّر أيضاً صقر يقف فوق إطار مستطيل أصبح فيما بعد يرمز إلى واجهة قصر الحاكم[٤٢] .

وبالإضافة إلى الأواني الفخارية صنع أهل نقادة أواني حجرية وخاصة من البازلت ، استعملوا النحاس في تشكيلها ، وقد صنعوها في أشكال عديدة أيضاً فمنها المتفخ ومنها الضيق وبعضها له مقابض ، وبعضها له قاعدة مرتفعة على هيئة الكأس[٤٣] .

وقد عثر في مقابرهم على تماثيل صغيرة من الطين أو الفخار أغلبها لنساء ، واللاتي كن يمثلن راقصات أو جواري أراد المتوفى أن تصاحبه في العالم الآخر ، أو كان الغرض من هذه التماثيل أغلب الظن أنها تمثل ربات الأمومة اللاتي يتمنى المتوفى أن يسبغن عليه الحماية ويضمن له بعثاً جديداً ، بالإضافة إلى تماثيل أخرى لنساء ورجال صنعت من العاج اتسمت بالنحافة والاستطالة والتصاق الساقين ، ربما بما يناسب قطع العاج المستطيلة التي صنعت منها . وكذلك صنع أهل نقادة من الصلصال تماثيل أخرى لرجال مثلوا فيها أسرى قيدت سواعدهم خلف ظهورهم ، ومن الفخار شكلت مجموعات صغيرة تمثل ما يقوم به الخدم والأتباع .

كما عثر في مقابر نقادة الأولى على نماذج مراكب وأمشاط من العاج وحلي كالعقود والأساور وتمائم حجرية أو عظمية استخدمت كقلادات ومنها ما شكل على هيئة زوج من القرون ومنها ما هو على شكل رأس ثور ، وصلايات من الإردواز شكل بعضها على هيئة أفراس النهر أو سلاحف أو أسماك ، واكتفوا في تشكيلها بتحديد الخطوط العامة للحيوان الذي تشكله ، وقد عثر أيضاً على

---

[٤٢] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٣٣ – ١٣٨ .

[٤٣] Barbara Adams, op. cit., 33 – 34.

أدوات قتال كمقامع القتال ذات رؤوس على هيئة القرص أو هيئة المخروط تصنع من الحجر وتثبت في يد من الخشب ، بالإضافة إلى خناجر من الظران ، وصنعوا من الظران أيضاً رؤوس سهام وسكاكين رقيقة على هيئة المعين[44] .

التتابع الزمني :

أثناء فحص فلندرز بتري للمقابر التي عثر عليها في نقادة وما حولها وجد اختلافات عديدة وتنوع كبير في محتويات هذه المقابر مما جعله يفكر في محاولة ترتيب هذه الآثار ترتيباً زمنياً وتقسيمها إلى مراحل متتابعة ، وكان عليه أن يستعين بالأواني الفخارية حيث أنها الأكثر في محتوياتها وصناعتها واستمرار تنوعها ضمن محتويات المقابر إذ أنه لا تخلو مقبرة من مقابر هذا العصر من إناء أو أكثر ، فقام بتصنيف هذه الأواني حسب تطور صنعتها ، وقسمها في تسع مجموعات أساسية رمز لكل منها بحرف اصطلاحي معين ، وهي كالتالي[45] :

١- الفخار ذو الحافة السوداء Black-topped pottery ورمز إليه بحرف B .
٢- الفخار الأحمر المصقول Polished red pottery ورمز إليه بحرف P .
٣- الفخار ذو الأشكال المتنوعة Fancy forms pottery ورمز إليه بحرف F .
٤- الفخار ذو الرسوم البيضاء المتقاطعة White cross-lined pottery ورمز إليه بحرف C .
٥- الفخار الأسود ذو الزخارف البيضاء المحفورة Incised black pottery ورمز إليه بحرف N.
٦- الفخار ذو المقابض المتموجة Wavy-handled pottery ورمز إليه بحرف W .
٧- الفخار ذو الزخارف Decorated ware pottery ورمز إليه بحرف D .
٨- الفخار الخشن Rough-faced pottery ورمز إليه بحرف R .
٩- الفخار المتأخر Late pottery ورمز إليه بحرف L .

ثم أشرك بتري بعض المحتويات الأخرى للمقابر مثل الأواني الحجرية والصلايات في تقسيمات متقاربة ، وخرج من هذا بتقسيم مراحل التطور في آثار نقادة إلى خمسين مرحلة ، وسمي هذا التقسيم بـ "التتابع الزمني" أو "التوقيت المتتابع" Sequence of Date . وبدأ بتري من رقم ٣٠ إلى رقم

---

[44] راجع : ibid., 38ff. وأيضا : عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ – ١٤٦ .

[45] راجع : J. Vandier, op. cit, 261ff.; Barbara Adams, op. cit., 20ff.; Joan Crowfoot Payne, Catalogue of the Predynastic Egyptian Collection in the Ashmolean Museum, Oxford 1993, 9.
وأيضا : عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ وما بعدها .

٧٩ تاركا الأرقام من ١ إلى ٢٩ لما يستجد من اكتشافات . ثم قسم المراحل الخمسون إلى ثلاث مجموعات كبيرة ، ونسبت كل مجموعة إلى أهم مكان تركزت فيه آثارها ، وهي كالتالي :

١- المراحل من ٣٠ – ٣٧ أو (٣٠ – ٣٨) وتسمى بحضارة العمرة (= نقادة الأولى) .

٢- المراحل من ٣٨ – ٦٠ أو (٣٩ – ٦٣) وتسمى بحضارة جرزة (= نقادة الثانية) .

٣- المراحل من ٦١ – ٧٨ أو (٦٤ – ٧٨) وتسمى بحضارة سماينة (= نقادة الثالثة) .

وقد أصاب بتري لحد كبير في تقسيماته إلى الرغم من أن بعض العلماء قد عارضه في تبويباته ، وعاب البعض على انه أعتمد أساسا على آثار الصعيد دون عناية بالوجه البحري . فبعد أن تم الكشف عن آثار البداري وضعها بروتون في المراحل من ٢٠ إلى ٢٩ ، ثم استكملت المراحل العشرين الأولى بما تم الكشف عنه من العصر الحجري الحديث . ثم تأتي المراحل التالية لحضارة سماينة والتي يبدأ بعدها مباشرة عصر الأسرة الأولى الفرعونية .

ثانيا : نقادة الثانية (حوالي ٣٦٠٠ – ٣٤٠٠ ق . م)

هي حضارة متطورة لاحقة لنقادة الأولى ويطلق عليها أيضا حضارة جرزة نسبة إلى قرية جرزة والتي تقع شمال أبو صير الملق بني سويف . وقد انتشرت هذه الحضارة حتى منطقة النوبة السفلى جنوبا وحتى المعادي شمالا[٤٦] .

وتظهر الخلافات واضحة بين هذا العصر وسابقه فقد توسع النقاديون في استخدام النحاس فصنعوا منه ملاعق وأواني صغيرة وأغطية لبعض القدور وأزاميل ورؤوس فؤوس وخناجر ورؤوس حراب .

وحلت المقابر الكبيرة المستطيلة التي كسيت جدرانها بالطوب اللبن محل الحفر الرملية الصغيرة البسيطة وكانت هذه الزيادة ضرورية نتيجة لزيادة متاع المتوفى الذي يصاحبه وخاصة الأواني المتعددة الأشكال والأحجام . وكانت مقابرهم عبارة عن حفر مربعة أو مستطيلة حددت جوانبها من الداخل بكساء من الطمي ثم البوص أو ألواح خشبية ، وكفن المتوفى بالكتان ودفن في وضع القرفصاء ورأسه فوق وسادة من الحصير واتجه نحو الجنوب ووجهه إلى الغرب ، كما وجدت بعض دفنات كان الرأس فيها ناحية الشمال والوجه إلى الشرق .

وكان أشهر فخار نقادة الثانية شيوعا هو ما يعرف بالفخار ذي الزخارف الحمراء الذي كثرت فيه الأشكال التصويرية[٤٧] كمناظر الصيد ورحلات نيلية وبالتالي كثر تمثيل للمناظر البشرية وأشكال

---

[٤٦] أنظر : عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ – ١٧٨ .

[٤٧] عن أشكال الرسوم والزخارف الممثلة على الأواني الفخارية لنقادة أنظر : لمياء علي شرقي الحديدي ، دراسة مقارنة بين النقوش الصخرية في مصر والنوبة السفلى ورسوم الفخار في المرحلة النقادية ، جامعة القاهرة ٢٠٠٠ (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) .
وأيضا : J. Vandier, op. cit, 329ff.

الحيوانات والطيور وأشكال المراكب متعددة المجاديف والتي تميزت بوجود قمرتين من سيقان الغاب والنبات المجدول ، واختلفت سقوف هذه القمرات فمنها المسطح ومنها النصف دائري أو ذو القباب ، وكان لكل مركب جريدة نخل طويلة تراوحت فروعها من فرع واحد إلى خمس فروع تستخدم كمظلة يجلس تحتها ملاح المركب ، وتميزت هذه المراكب عن بعضها البعض بظهور أعلام غريبة[48] ومختلفة تشبه أعلام الأقاليم التي عرفت فيما بعد في العصر الفرعوني .

وقد تميز نوع آخر من الفخار بمقابض متموجة عرف بالفخار ذي المقابض المتموجة ، وكانت تشكل هذه المقابض على حافتي الإناء عند أعلى منتصف الإناء ، وتميزت مجموعة أخرى بلونها الأحمر مختلف الدرجات ذي زخارف شبكية وأشكال حلزونية ، بالإضافة إلى استمرار استخدام وحدات زخرفية معروفة من نقادة الأولى مثل المثلثات الصغيرة والتي ملأت باللون الأحمر بدلا من الأبيض ، وكذلك خطوط زجزاجية ومتموجة فردية أو متشابكة . كما ظهرت أشكال نباتية جديدة مثل النبات ذي الشكل المروحي[49] ، وكذلك ظهرت وحدات على شكل حرفي S و Z اللذان يعتقد البعض أنهما يمثلان طيور .

وكانت مواضيع الرعي والصيد البري والنهري ورحلات المراكب متعددة المجاديف من أكثر المواضيع الممثلة على فخار نقادة الثانية . إلا أن هذه المواضيع التصويرية إتسع نطاقها حتى أنه قد عثر على مقبرة في الكوم الأحمر[50] تعد أقدم مقبرة مصورة في الحضارة المصرية ، وتعرف على أنها مقبرة لعظيم تتكون من حجرة واحدة مستطيلة الشكل من الطوب اللبن ، وكسيت الجدران بطبقة من الملاط الأملس المغطى باللون الأصفر كأرضية وخلفية للمناظر التي صورت عليها ، والتي لم يتبق منها سوى مناظر الجدار الجنوبي الغربي (حوالي ١٩٠ سم) ، وتوجد حاليا بالمتحف المصري بالقاهرة . وقد رسم على هذا الجدار ست سفن في صفين تحيط بها مجموعة من الأشكال الآدمية والحيوانية لا تجمعها علاقة واضحة ، وهي في مجملها مناظر قتال ومناظر صيد ومناظر أسطورية ورحلات نهرية تتبع نفس الأسلوب وتتشابه في مواضيعها مع تلك التي كانت تمثل على جدران الأواني الفخارية . وجدير بالذكر لفت النظر للصور على الجزء السفلي لهذا الجدار والذي يصور رجل ضخم يقمع ثلاث من الأعداء ، ويعتبر هذا المنظر أقدم مناظر القمع في الحضارة المصرية ، والذي نراه اعتبارا من نعرمر وحتى نهاية العصور الفرعونية ، عندما كان يمثل الملك بشكل ضخم يمسك أسراه

---

48 J. Vandier, op. cit, 341.

49 Ibid., 360.

50 أنظر : عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ – ١٨٧ ، نادر محمد عبد المجيد بكار ، مظاهر التعبير والإشادة بالنصر في مصر القديمة ، دراسة تحليلية مقارنة في المناظر حتى نهاية عصر الدولة الحديثة ، جامعة جنوب الوادي ١٩٩٥ (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص ١-١٥ .

بإحدى يديه ويمسك بالأخرى بمقمعة يهوي بها على رؤوس أعدائه . منظر آخر يصور بطل يقف بين أسدين يحاول أن يفصل بينهما أو أنه يحاول أن يصرعهما بيديه ، وهو من المناظر ذات الصلة بحضارة بلاد النهرين مما يشير إلى وجود علاقات ثقافية واقتصادية بين مصر وبلاد النهرين أدت إلى التأثير والتأثر فيما بين الحضارتين .

واستخدم النقاديون إلى جانب أوانيهم الفخارية أواني حجرية متعددة صنعت من أحجار صلبة مثل الديوريت والبازلت والالباستر ، واتخذت أشكال القدور والصحون ، بعضها لها مقابض جانبية مثقوبة[1] . وشكلت بعضها على هيئة الطيور والأسماك والحيوانات والتي أعتقد فيها البعض أنها بذلك تمثل تقليد لأواني أسيوية حيث وجدت أشباهها في أواني من سوريا والأناضول وإيران إلا أن الأواني ذات الأشكال الحيوانية معروفة في مصر منذ عصر البداري[2] .

واستخدموا أيضا صلايات من الاردواز الأخضر شكلت على هيئة طيور واسماك وسلاحف للماء ولفرس النهر والأغنام بالإضافة للأشكال الهندسية مثل المستطيل والمربع والمستدير مع استدارة أركانها وتحلية أطرافها بأشكال طيور ورؤوس حيوانات ، كما نقشت أشكال حيوانية ونباتية عديدة على الكثير من صلاياتهم ، مثل النخل والزراف والأسود بالإضافة لمناظر حيوانات خرافية تخيلوها بأجسام أسود أو فهود ورقاب الزراف أو الثعابين وأجنحة العقبان[3] .

وعثر في مقابر أهل نقادة الثانية على عدد كبير من الأسلحة الظرانية والتي وصلت إلى ذروة رقيها في هذا العصر ، فوجدت سكاكين مموجة السطوح ذات طرف مقوس تشبه ورق الشجر في هيئتها ، كان يثبت بعضها في مقابض من العاج أو من الخشب ، وقد يصور على المقبض منظر مناسب ثم يغشى بالذهب . واستخدموا أيضا رؤوس حراب من الظران ، بالإضافة لخناجر من النحاس . وصنعوا من الحجر رؤوس مقامع ذات أشكال كمثرية أشبه برؤوس للمقامع التي كانت مستخدمة في مرملة بني سلامة ، وقد طغت هذه الرؤوس على المقامع القرصية والمخروطية التي كانت مستخدمة في نقادة الأولى[4] .

وصاحب الرقي الحضاري لأهل نقادة الثانية رقي مساكنهم ، فقد عثر في قبر بالعاسنة على نموذج لبيت من الطين وقد شكل على هيئة المستطيل نعرف منه أنه كان في الواقع لمسكن بني من قوالب الطوب اللبن يتوسط واجهته مدخل كبير له كتفان وعتب علوي من الخشب ، أسفل العتب نافذة

---

[1] Barbara Adams, Predynastic Egypt, Shire Egyptology 1988, 33f.

[2] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

[3] المرجع السابق ، ص ١٧٠ – ١٧٤ .

[4] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ ، ١٦٩

صغيرة ثبت أسفلها طبلة من الخشب كان يلف عليها حصير يقوم مقام الباب ، وتوسط الجزء العلوي لواجهة البيت الخلفية نافذتان صغيرتان .

وبجانب المساكن التي شيدت من الطوب اللبن استمر النقاديون في تشييد مساكن بسيطة من البوص وفروع الشجر كالتي عرفت من قبل ، ولكنهم أضافوا إليها مساكن مربعة مرتفعة ذات سقوف مسطحة .

ثالثا : المعادي (حوالي ٣٤٠٠ – ٣١٠٠ ق . م)

ضاحية بجنوب القاهرة على الضفة الشرقية للنيل عثر بها على ضاحية سكنية والعديد من الجبانات من عصر ما قبل الأسرات ، وقد قام بالحفر هناك كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٣٠ بإشراف كل من مصطفى عامر و منجهين[٥٤] Minghin ، وبعد ذلك قام إبراهيم رزقانة بالحفر هناك على فترات متقطعة حتى عام ١٩٦٩ ، ثم هيئة الآثار في الثمانينات من القرن الماضي .

وشيد أهل المعادي ثلاث أنواع من المساكن ، النوع الأول شيد على هيئة شبه بيضاوية وله فتحة من الجنوب ، والثاني بيضاوي الشكل وقد شيد بحيث يقع جزئها الأكبر تحت سطح الأرض ، وينزل إليه بسلم يتكون من عدة أحجار صغيرة غير مرتبة ، والتي يحاول البعض أن يرى فيها نمطا أجنبيا دخيلا على مصر فهي تشابه بمساكن عثر عليها في جنوب فلسطين[٥٥] ، أما النوع الثالث يأخذ المسكن فيه شكل شبه مستطيل ثبت في جوانبه سيقان من الغاب الغليظ أو سيقان من جذوع الشجر تحدد جوانب المسكن ثم يصل بين هذه السيقان بأغصان شجر متشابكة تليس بالطين لتكون جدران المبنى[٥٦] .

ووجد بالمعادي حفر كثيرة كانت أغلبها داخل البيوت ، وكانت بعضها متسعة استخدمت كمخازن ، وبعضها متوسطة كانت تستخدم كمواقد ، وبعضها صغيرة كانت تدق فيها الحبوب .

وعرفت المعادي جبانة خاصة لموتاهم بعيدا عن مساكنهم حوالي ١ كم جنوب شرق المنطقة السكنية ، وكانت المقبرة عبارة عن حفرة بسيطة يتراوح عمقها بين ٢٠ و ٩٠ سم ، وكان المتوفى يأخذ وضع القرفصاء إلا بعض الأمثلة وجد فيها المتوفى ممددا ، ولا يوجد هناك اتجاه ثابت للرأس إلا

---

[٥٤] O. Menghin and Mustafa Amer, Excavation of the Site of Maadi. 1st. preliminary report, Kairo 1932; 2nd. preliminary report, Kairo 1936;
عن المعادي أنظر أيضا : Michael A. Hoffman, Egypt before the Pharaohs, New York 1984, 200-214.
و عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٥١ – ١٥٦ .

[٥٥] Michael A. Hoffman, op. cit., 201f.

[٥٦] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ – ١٥٣ .

أن أغلبها اتجه نحو الجنوب ، أما الوجه فهو أحيانا للشرق وأحيانا أخرى للغرب ، كما وجدت حالات اتجه فيها نحو الجنوب أو الشمال[٥٨] .

ودفن مع المتوفى مجموعة من الأواني الفخارية وبعض المقتنيات الشخصية له مثل أدوات الزينة كالعقود ، فقد عثر على أعداد كبيرة من الخرز المصنوع من الأحجار المختلفة ، منها العقيق الأحمر والكوارتز والبلور الصخري واللازورد . كما عثر بالجبانة أمشاط من عظام الحيوان ومجموعة من الأصداف المثقوبة وبيضة نعام زين سطحها بأشكال هندسية محفورة بإتقان وملونة باللون الأسود .

وصنع أهل المعادي صنانير ومثاقب وأزاميل من النحاس ، فقد عثر في المنطقة على بعض سبائك من النحاس ، وعثر أيضا على فأس من النحاس مما يدل على مهارة أهل المعادي في استخدام النحاس[٥٩] .

كما عثر على دفنات لبعض الأجنة داخل البيوت وكانت تدفن إما في حفر عميقة وإما في قدور من الفخار .

وصنع أهل المعادي الأواني الفخارية ، وشاع لديهم الفخار ذو اللون الواحد إما الأحمر الأملس أو الأسود المصقول . وصنعوا لبعضها مقابض ، وزخرفوا بعضها في أجزائها العليا بخطوط بسيطة وخطوط محفورة وأخرى بارزة . وزخرفت بعضها بخطوط عريضة وأخرى شبه هندسية وأقواس متصلة قلدوا بها هيئة الشباك ، وأيضا رسوم مختصرة قلدوا بها هيئة الإنسان[٦٠] . بالإضافة إلى الأواني الحجرية التي صنعت من أحجار مختلفة مثل البازلت والحجر الجيري والمرمر والجرانيت[٦١] .

وفي جبانة المعادي عثر أيضا على بقايا لدفنات حيوانية ، فقد عثر على عظام لكلب و ١٣ غزالة ، يعتقد أن واحدة منهم على الأقل ذبحت كأضحية في طقسة دينية[٦٢] ، وربما دفنت هذه الحيوانات إما إعزازا لها أو لتقديسها .

---

[٥٨] سيد توفيق ، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ، دار النهضة العربية ١٩٩٠ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

[٥٩] سيد توفيق ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

[٦٠] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

[٦١] سيد توفيق ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

[٦٢] Michael A. Hoffman, op. cit., 210.

الطريق إلى الوحدة ـ الأسرة صفر

تبدأ المقدمات الأولى للعصور التاريخية اعتبارا من عصور ما قبل التاريخ منذ أن شهدت مصر أولى التجمعات السكانية ، التي زادت أعدادها نسبيا ووفدت على ضفاف النيل ، وتأكد استيطانهم في مجتمعات عمرانية منذ معرفتهم للزراعة ، كمجتمع مرمدة بني سلامة وحلوان في الشمال ومجتمع دير تاسا في الجنوب . وفي ظل ذلك المجتمع الزراعي الجديد لزدادت الروابط الأسرية حيث شعر المزارع بحاجته إلى مجهود أولاده ، والروابط الاجتماعية حيث المصلحة المشتركة نتيجة لتعدد الحرف التي قامت على الزراعة واحتياج أصحاب كل حرفة لأصحاب الحرفة الأخرى ، والروابط المكانية بين المزارع وأرضه وبينه وبين جاره نتيجة لطول الاستقرار واتصال الجوار وتشابك المصالح . وبالتالي لزدادت السيطرة على البيئة ومعرفتها والتفاعل معها واتصال هذه التجمعات ببعضها البعض ، لنجد مصر تتطور بخطى سريعة من القرية إلى المدينة ، ومن المدينة إلى حياة الأقاليم التي أدت إلى ظهور مملكتين كبيرتين ، واحدة في الجنوب والأخرى في الشمال ، ثم المرحلة الأخيرة والتي توحدت فيها البلاد في مملكة واحدة .

وفي محاولة من علماء الآثار لمعرفة الأحداث السياسية التي أدت إلى توحيد مصر في مملكة واحدة ، كان يجب عليهم الاستعانة بما دلت عليه نقوش الصلايات مثل صلاية صيد الأسود ، وصلاية الأسد والعقبان ، وصلاية الثور ، وصلاية الحصون والغنائم (ليبيا) ، وصلاية نعرمر ، ونقوش مقابض السكاكين مثل مقبض سكين جبل العركي ، ومقبض سكين متحف المتروبوليتان ، ونقوش رؤوس المقامع مثل مقمعة العقرب ، ومقمعة نعرمر ، وكلها من عصر ما قبل وما قبيل الأسرات . كما استعانوا بما تضمنته نصوص الأهرام والقصص والأساطير الدينية والأدبية في العصور التاريخية وكل الآثار التي يمكن أن تساعدهم ليصلوا إلى تصور محتمل لتطور الحياة الاجتماعية والسياسية في فجر التاريخ التي أدت في نهاية الأمر إلى توحيد البلاد في مملكة واحدة مستقرة . وافترضوا لذلك عدة مراحل لم تخلو من النقض والاعتراضات على بعضها ، وخاصة ما اعتمد منها على الأساطير الدينية والأدبية التي كتبت في العصور التاريخية ، وهذه المراحل تبدأ مع النضج الاجتماعي والسياسي الذي صاحب عصر ما قبل الأسرات منذ بداية الألف الخامس قبل الميلاد ، ويمكن إيجاز هذه المراحل فيما يلي[٦٣] :

١- اتحاد شرق الدلتا في مملكة واحدة ، اتخذت من "عنجت" (أبو صير بنا بالقرب من سمنود الحالية) عاصمة لها وعبدت معبودها "عنجتي" الذي صور في هيئة بشرية ويعلو رأسه

[٦٣] ومن علماء الآثار الذين قاموا بمحاولتهم لمعرفة تلك الأحداث التي أدت إلى الوحدة وقد استعان كل من كورت زيته Kurt Sethe ، والكسندر موريه Alexandre Moret ، وإدوارد ماير Eduard Meyer ، وجيمس هنري برستد James Henry Braested . أنظر . عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٩٥ – ٢١٣ .

ريشتين ، ويمسك في يده مذبة وصولجان معقوف ، واتخذت من الحربة لواء لهـــا . ومـــن المحتمل أن يكون نفوذ هذه المملكة قد امتد جنوباً حتى عين شمس الحالية .

كما اتحد غرب الدلتا في مملكة أخرى ، واتخذ فيما يعتقد زيته عاصمة في مدينة قديمة قـامت على أطلالها مدينة دمنهور الحالية . وعبد فيها حورس في هيئة الصقر . وربما امتدت هـــذه المملكة حتى أوسيم الحالية في الجنوب .

٢- اتحاد مملكتي الدلتا في مملكة واحدة ، اتخذت من سايس (صا الحجر مركز بسيون بمحافظـة الغربية) ، وعبدت نيت كربة حامية للمملكة الجديدة ، واتخذ حكامها من النحلة شعار لهم ، وارتدوا التاج الأحمر .

٣- اتحاد الصعيد في مملكة واحدة ، كانت عاصمتها نوبت (طوخ بالقرب من قنا) ، واتخـذوا من ست معبود لهم ومثلوه في شكل حيوان خرافي .

٤- انتقال عاصمة مملكة الوجه البحري من سايس في غرب الدلتا إلى عنجـــت الـــتي كـــانت عاصمة مملكة شرق الدلتا من قبل . ويعتقد أن مملكة الدلتا قد بسطت نفوذها على الصعيـد لفترة من الوقت .

٥- تمرد الصعيد على الدلتا لينفصل عنها مرة أخرى ، وعاد مرة أخرى لعبادة ست .

٦- عودة سيطرة الدلتا على الصعيد مرة أخرى واتخاذ ايونو (عين شمس) عاصمـــة سياسـية ودينية للوحدة الجديدة .

٧- انفصال الوحدة ، وتكوين مملكتين جديدتين ، وكان لكل مملكة عاصمة ومعبود للمملكـــة وربة حامية وتاج وشعار . المملكة الأولى في الدلتا ، وعاصمتها مدينة "به" (تل الفراعـــين بالقرب من دسوق الحالية) ، ومعبودها حورس ، وحية الكوبرا "واجيت" ربتـه الحاميـة ، وارتدى ملوكها التاج الأحمر ، واتخذوا من "بيت" أي النحلة شعاراً لهم نسبوا إليها ، حيث لقبوا بـ "بتي" أي ملك الوجه البحري .

٨- وللمملكة الثانية في الصعيد . واتخذت مملكة الجنوب مدينة "نخن" (الكوم الأحمر الحاليـة في شمال ادفو) عاصمة لها ،ومعبودها حورس ، وكانت النسرة "نخبت" ربتهم الحامية ، وتـوج ملوكها بالتاج الأبيض ، وكان شعارهم الذي نسبوا إليه هو نبات عرف بالـ "ســـوت" ، حيث لقبوا بـ "نيسوت" أي ملك الوجه القبلي .

٩- وتنشأ أسرة حاكمة جديدة تحكم في الصعيد وذلك في عصر ما قبيل الأسرات مباشرة . هذه الأسرة انتقلت بالعاصمة من نخن إلى ثني (بالقرب من ابيدوس الحالية) . وربما وصل هؤلاء الحكام الجدد إلى الحكم بعد أن هزموا حكام نخن ، وربما كانوا أيضاً فرعاً من نفس الأســرة

الحاكمة في نخن[٦٤] . ولم نعرف عن حكام هذه الأسرة إلا اليسير الذي لا يفي بإعطاء صورة واضحة عن هؤلاء الملوك اللذين أخذوا على عاتقهم توحيد البلاد في مملكة واحدة .

ويعرف الأثريون هذه الأسرة الأخيرة التي حكمت من ثني بالأسرة "صفر" ، ويقصد هنا البيت الحاكم الذي حكم قبل الأسرة الأولى . ويذكر يورجن فون بيكرات Jürgen von Beckerath أربعة ملوك يرى أنهم حكموا مصر كلها ، وهم بالترتيب : العقرب ، را ، سخن (= كا) ، نعرمر[٦٥] . ويذكر توماس شنيدر Thomas Schneider ملكين باسم العقرب[٦٦] . ويتفق أيضاً فون بيكرات و كايزر ودراير باعتبار نعرمر آخر ملوك الأسرة صفر[٦٧] . ولكني اتفق مع الرأي القائل بأن نعرمر هو نفسه الملك مينا أول ملوك الأسرة الأولى[٦٨] . وهنا يجب الإشارة إلى بعض ملوك هذه الأسرة وهم :

١- الملك إيري حور (= را) ، وقد ذكر اسمه دون أن يكتب في واجهة القصر (السرخ) . وتنتمي له المقبرة المزدوجة B1-2 في أبيدوس[٦٩] .

٢ الملك سخن (= كا) ، واسمه الحوري كا ، وتنتمي له المقبرة المزدوجة B7-9 في أبيدوس[٧٠] .

٣- الملك العقرب (سرك) ، وهو آخر ملوك الأسرة صفر . وربما تنتمي له إحدى مقبرتين ، الأولى في الكوم الأحمر ، والثانية هي المقبرة B 50 في أبيدوس[٧١] . ومن أشهر آثار العقرب رأس مقمعة ، وهي مصنوعة من الحجر الجيري ، ويبلغ أقصى قطر لها ٢٥ سم ، وقد عثر على أجزاء منها في معبد حورس في نخن[٧٢] .وتدل النقوش التي نراها على هذه المقمعة على أنه ملك محارب له أنشطة عسكرية وأيضاً اقتصادية ، فقد مثل على المقمعة لابساً تاج الوجه القبلي وممسكاً بفأس يضرب به الأرض ، وربما يشق قناة ، أو يقوم بأحد المراسيم الدينية . وفي أعلى المقمعة تظهر مجموعة من الألوية ، التي ترمز إلى الأرباب التي تساند الملك في

---

[٦٤] رمضان السيد ، تاريخ مصر القديمة ، الجزء الأول ، هيئة الآثار المصرية - مشروع المائة كتاب ١٦ ، ص ١٦٢ - ١٦٥ .

[٦٥] Jürgen von Beckerath, Handbuch der ägyptischen Königsnamen, MÄS 20, 1984, 45.

[٦٦] Thomas Schneider, Lexikon der Pharaonen, München 1996, 433f.

[٦٧] ibid., 253.

[٦٨] انظر : سيد توفيق ، المرجع السابق ، ص ٤٤ - ٥٠ .

[٦٩] Thomas Schneider, op., cit., 209.

[٧٠] ibid., 215.

[٧١] ibid., 434.

[٧٢] عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

حروبه ، وتتدلى من هذه الألوية طيور الزقزاق والتي سماها المصري القديم الـ "رخيت" ورمز بها لأهل الدلتا ، وقد يدل هذا على انتصار الملك العقرب على الشمال في محاولة لتوحيد البلاد .

أما المرحلة الأخيرة التي دانت فيها البلاد لحاكم واحد ، هي المرحلة التي قام بها الملك نعرمر / مينا . وسجل نعرمر انتصاراته على الشمال على آثاره ، وأهم هذه الآثار مقمعة للملك نعرمر وصلايته التذكارية ، اللاتي عثر عليهما كويبل عام ١٨٩٤ في معبد حورس في الكوم الأحمر .

صلاية نعرمر

وتسجل مناظر هذه الصلاية نهاية الكفاح الذي انتهى بتوحيد البلاد . فعلى أحد جوانب الصلاية يظهر الملك بحجم كبير لابساً تاج الوجه القبلي وماسكاً بيده اليسرى بناصية شعر أسير راكع ، وماسكاً بيمناه مقمعته يهوي بها علىٰ رأس أسيره الذي ربما يمثل حاكم الدلتا المهزوم ، وخلف الملك يقف خادمه بحجم صغير حاملاً حذاء الملك وإبريق ماء ، وأمام الملك تصوير لقطعة أرض يخرج منها نبات البردي ممثلاً للدلتا ، ويخرج من حافتها الأمامية رأس رجل مخزوم من أنفه بحبل يقبض بطرفه صقر ممثل بحجم كبير ويقف فوق نبات البردي الخارج من قطعة الأرض ، والمنظر يعبر عن سيطرة الملك على الدلتا ، ومثل اسفل الصلاية على نفس الجانب منظر لرجلين من الأعداء اللذين في حالة هلع أو ربما قد قتلا وقد سجل بجوار رأس كل منهما اسم مدينته . أما الجانب الآخر فهو يصور موكب النصر الذي يخرج فيه الملك وهو يرتدي تاج الوجه البحري يتقدمه وزيره وأربعة من حاملي الرايات المقدسة ومن خلفه خادمه ، متجهين إلى معبد حورس ، حيث قطعت رؤوس الأسرى ووضعت بين أقدامهم ، ومثل أسفل هذا المنظر حيوانان خرافيان متعانقان وقد ربط كل منهما بحبل أمسك به رجل ، ربما دلالة على توحيد القطرين . ثم مثل الملك في الصف السفلي من هذا الجانب في هيئة ثور قوي يقتحم أسوار قلعة ويطأ بقدمه أحد أعدائه .

وهذه الصلاية بما تحويه من نقوش ذات دلالات تاريخية وحضارية وفنية لتعد من أشهر الأعمال الفنية في الحضارة المصرية .

مراجع مختارة لآثار ما قبل التاريخ

- رشيد الناضوري ، دراسات مقارنة في حضارات مصر وغربي آسيا من عصور ما قبل وقبيل الأسرات حتى بداية النصف الثاني من الألف الأول ق.م ، الاسكندرية ١٩٥٦ .
- رمضان السيد، تاريخ مصر القديمة، الجزء الأول، هيئة الآثار المصرية - مشروع المائة كتاب ١٦، ص ١٤١-١٤٥ .
- سليم حسن مصر القديمة، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠، ص ١٧-٦٣ .
- عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة ١٩٨٠، ص ٥٦-٧٧ .
- علي رضوان، الخطوط العامة لعصور ما قبل التاريخ وبداية الأسرات في مصر، جامعة القاهرة ١٩٩٠/١٩٩١.
- مصطفى عامر، حضارات عصر ما قبل التاريخ، في: تاريخ الحضارة المصرية ، الجزء الأول العصر الفرعوني، دار النهضة العربية (بدون تاريخ)، ص ٣٧-٤٣.

- Barbara Adams, Predynastic Egypt, Shire Egyptology 1988.

- F. A. Badawi, Die Grabung der ägyptischen Altertümerverwaltung in Merimde-Banisalame im Oktober/Noember 1976, in: MDAIK 34, 1987.

- Guy Brunton, Qau and Badari I-III, BSAE 44, 45, 50, 1927, 1928, 1930.

- Guy Brunton and Gertrude Caton-Thompson, The Badarian Civilisation and Predynastic Remains Near Badari, BASE 46, 1928.

- Guy Brunton, Mostagedda and the Tasian Culture, BMF, London 1937.

- J. Eiwanger, Erste Vorbricht über die Wiederaufnahme der Grabungen in der neolithischen Siedlung Merimde-Banisalame, in: MDAIK 34, 1978.

- J. Eiwanger, Dritter Vorbricht über die Wiederaufnahme der Grabungen in der neolithischen Siedlung Merimde-Banisalame; mit einem Beitrag von F. A. Badwi, in: MDAIK 36, 1980;

- J. Eiwanger, Merimde- Banisalame I. Die Funde der Urschicht; und II. Die Funde der mittleren Merimdekultur, Mainz, 1984, 1988.

- J. Eiwanger, Merimde-Bani-Salame, in: LÄ 4, 94-96.

- S. Gabra, Fouilles du Service des Antiquités à Dier Tasa, in: ASAE 30 (1930).

- Michael A. Hoffman, Egypt before the Pharaohs, New York 1984.

- P. Honoré, Das Buch der Altsteinzeit, Düsseldorf . Wien 1967.

- H. Junker, Vorläufiger Bericht über die Grabung der Akademie der Wissenschaften in Wien auf der Vorgeschichtlichen Siedlung Merimde-Bani-Salame, 1-7, Wien 1929-1940.

- William Mathew Fliders Petrie and James Edward Quibell, Naqada and Ballas, ERA 1, 1896.

- J. Vandier, Manuel d'archéologie Égyptienne, I, Paris 1952.

الدكتورة زكية طبوزادة
من علم المصريات
إلى نهاية الدولة الوسطى

أهداف الجزء الثاني

١. أن يفهم علم المصريات ويكتشف حضارة وتاريخ مصر القديمة.

٢. أن يفهم منهج وهدف المصريين القدماء وعنايتهم بنقش وتدوين تاريخهم.

٣. أن يتعرف على مصادر التاريخ المصري القديم ونوعيتها.

٤. أن يتعرف على نماذج المصادر من الآثار التي سجلت عليها وحدة شطري الوادي.

٥. أن يوضح الاكتشافات الأثرية التي تمت في مصر.

٦. أن يوضح اكتشاف اللغة المصرية القديمة.

٧. أن يفهم تسلسل تاريخ مصر القديمة وأحداثه إلي نهاية الدولة الوسطي.

مواضيع الجزء الثاني

١. فترات التاريخ المصري القديم.

٢. تكوين الإقليم والاستقرار في عصور ما قبل التاريخ.

٣. علم المصريات واكتشاف مصر القديمة.

٤. اهتمام المصريون القدماء بتدوين تاريخهم وأهدافه.

٥. مصادر التاريخ المصري القديم.

٦. أهم مؤرخي التاريخ القديم من القدماء.

٧. أهم البعثات والرحالة إلي مصر في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر.

٨. منف أول عاصمة سياسية لمصر الموحدة.

٩. الأسرتان الأولي والثانية.

١٠. الدولة القديمة وأهم آثارها.

١١.عصر اللامركزية أو عصر الانتقال الأول

١٢. الدولة الوسطى.

١٣. صور.

١٤. مراجع مختارة.

علــــم المصريا ت

أو

اكتشـاف مصر القديـمة

انطوت حضارة الأسرات واختفت في زوايا الإهمال والنسيان وتعرض جانب كبير منها للتدمير والضياع بعد أن قضى خلال القرن الخامس الميلادي على الديانة الوثنية في مصر. وحلت محلها المسيحية ثم الإسلام. وانزوت الحضارة القديمة حوالي خمسة عشر قرنا، وطوى الماضي المزدهر والسحيق في القدم لتحل محله أحاديث وقصص تقوم على الخرافات والأراجيف التي تعتمد على الخيال.

كان هذا هو الحال في مصر، أما في الغرب، فكان الأمر يختلف فهم يعرفون الكثير عنا ويسعون لمعرفة المزيد عن أحوالنا وهذا لعدة أسباب:

أولا: ما ورد بالكتب المقدسة عن مصر وعلاقة الأنبياء والرسل بملوكها.

ثانيا: استمرار المثقفين ورجال الدين والعلماء في دراسة اللغات القديمة ومنها اليونانية واللاتينية، كذلك البحث في أعمال الأقدمين، والإطلاع على ما كتبه المؤرخون الرومان واليونان ومنهم " هيرودوت " و" استرا بون " و" ديودور الصقلي " وغيرهم كثيرون.

ثالثا: رحلات رجال الدين إلى الشرق بغرض الزيارة والحج ومن فلسطين كان يأتي الكثيرون إلى مصر البلد الأمين الذي لجأت إليه العائلة المقدسة، هربا من الرومان و" هيرودوس "، فأتاحت لهم هذه الزيارات التجوال في مصر شمالا وجنوبا، فرأوا في طريقهم ما تبقى على أرضها من آثار الأقدمين.

رابعا: تلا رجال الدين وصول الرحالة والمغامرين الذين مروا بمصر في طريقهم إلى

إفريقيا أو أتوا إليها من الشرق فكتبوا في مذكراتهم الكثير عن أحوالها وآثارها القديمة وما شاهدوه فيها من عجائب.

تنبه الغرب تماما لمصر وللآثار القائمة على ضفتي النيل وفى قلب الصحراء، شواهد بكماء لكن ضخامتها وتناسق نسبها وروعة نقوشها وجمال ألوانها، أجبرت أهل الشفافة وذوى الحس الفني، على التوقف والاهتمام بها ونقل رسومها حتى وان كانت معانيها ما زالت غامضة عليهم. ويدفعنا هذا للتساؤل عن أمر المصريين أنفسهم عند رؤيتهم للغربيين يتجولون ويدققون النظر ويتأملون ما حولهم ويرسمون الأحجار المتناثرة والمبعثرة في الوادي وأعماق الصحارى ويلقون عليهم الأسئلة ويمطرونهم بالتساؤلات.

ربما كانت الإجابة صعبة أو حتى مستحيلة، ولكن علينا أيضا أن نشير إلى أنه لم يرد في حدود علمنا، في مذكرات هؤلاء الرحالة الأجانب ممن أتوا إلى مصر قبل الحملة الفرنسية إشارات عن سوء معاملة أو اعتداء وقع عليهم من الأهالي، مما يجعلنا نعتقد أن المصريين كانوا يراقبونهم عن بعد مؤملين أن ينجح هؤلاء الوافدين الأغراب في تفسير طلاسم هذه الأحجار فبدون شك، كان المصريون ينشدون في أعماقهم معرفة الحقيقة، فان ما سمعوه من آبائهم وأجدادهم أثار خيالهم وجعلهم ينسجون حولها القصص والأساطير.

اهتم المصريون القدماء بنقش وتدوين تاريخهم وتجربتهم فكانوا روادا وأصحاب منهج وهدف.

(أ) المنهج:

التزم المصريون القدماء بوجه عام، بمنهج سليم في تدوين الأحداث، فتحروا الدقة، والأمانة وابتعدوا بقدر الإمكان عن المبالغة في تسجيل أنشطة ملوكهم وأرخوها بسنوات حكمهم، فتركوا لنا رصيدا ضخما من المعلومات غطت جميع نواحي حضارتهم.

استغل المصريون جميع المساحات الخالية في نقش أخبارهم وتدوينها بأدق التفاصيل، فغطت جدران المعابد قواعد التماثيل واللوحات وأوراق البردي وقطع اللخاف أي " الأستراكا "

وأيضا جدران المقابر، بالنصوص المرفقة بمناظر شارحة محتواها في أغلب الأحيان.

سجل المصريون أسماء ملوكهم ورتبوها في قوائم، ونقشوا سيرهم الذاتية، وتفاصيل معتقداتهم، كما سجلوا انتصاراتهم وأشاروا أيضا إلى هزائمهم، وغطوا مساحات جدران معابدهم بمناظر المعارك والقرابين والهبات إلى الآلهة، كما صوروا النباتات والحيوانات المعروفة في وقتهم، ودونوا المعلومات الطبية وخبرتهم المشهود بها في هذا المجال، وتركيب الأدوية والمعلومات الفلكية، والإدارية والجغرافية، ارتاع الفيضان كما نقشوا " نصوص الأهرام" أو " متون الأهرام " على الجدران الداخلية لأهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة، وبهذا حفظوا لنا أول مجموعة نصوص دينية في التاريخ من الزوال.

لقد سجل المصريون القدماء أوجه نشاطهم ومعالم حضارتهم وخطواتها بإتقان، فوصل إلينا الكثير ولكن الأكثر ما زال حبيس الرمال.

عادة عندما يؤرخ لتاريخ التاريخ يذكر أن المنهج التاريخي يخضع لقواعد وتنظيمات منذ أن كتب المؤرخ الإغريقي " ثوكيديس " كتابه عن " الحرب البلوبونزية " فلقد قال لقرائه بصراحة وأمانة الكيفية التي جمع بها مادته العلمية، كما روى الاختبارات التي طبقها ليفصل الحقيقة عن الخرافة والأسطورة، ولكننا ننسى أن هناك من سبق " ثوكيديس " وهو الكاتب المصري ذلك المجهول الذي ندين له بفضل كبير بل بكل ما وصل إلينا من مادة مكتوبة على الآثار والبرديات، ذلك الكاتب الذي كان يرافق الحملات الحربية ويسجل وقائعها ويسلمها فيما بعد مادة علمية كتبها ونقلها عن الواقع الذي عايشه إلى الفنان الذي يقوم بنقشها على جدران المعابد والصروح إلى جانب صورة الفرعون وهو يقضي على الأعداء. وكان للكاتب المصري هيبة كبيرة ودور هام. وكان للفرعون هيئة تخضع لإشرافه مهمتها التدوين، ولعل أقدم المناظر والذي يؤيد قولنا هذا هو المنظر المشهور الذي يمثل الكاتب الذي يرافق الملك نعرمر (مينا) موحد الأرضيين على صلايته الشهيرة المحفوظة بالمتحف المصري بالقاهرة تسجل لنا مناظرها كيف قام الملك " نعرمر " بهزيمة الوجه البحري (الشمال) وتوحيد الأرضيين. ولعل تسجيل هذا الحدث مع تصوير الملك وبرفقته " الكاتب " مسجل الحدث وشاهد العيان في آن واحد لهو أبلغ مثال على الحس التاريخي الذي تمتع به المصري القديم منذ فجر التاريخ، وذلك لأن تسجيل الحدث يصبغ عليه صفة الخلود وينشله من زاوية النسيان ويرفع صاحبه إلى مكانة عالية في الذاكرة.

وكان يطلق على " الكاتب " في مصر القديمة لقب " سش" أو " سش نسوت " بمعنى " الكاتب الملكي". وكان الكاتب يتبع قواعد وخطوات أي منهجا، فهو يسجل ما شاهده وما عاصره من أحداث ويؤرخها بسنوات حكم الملك ويتحرى الدقة ويقدم المعلومة كاملة فيذكر العام والشهر بل واليوم الذي وقع فيه الحدث، وان كان هذا الحدث معركة حربية مثلا فهو يقدم لنا مكان المعركة ويحدد جنسية المتحاربين وأعداد الجيش المصري بل وأسماء فرقه بل ويذكر إذا كانت هناك فرق من المرتزقة منضمة إلى الجيش المصري، وفى بعض الأحيان كان يقدم أسماء القواد المصريين، ويذكر الطريق الذي سلكه الجيش ومدة الرحلة وفى النهاية أعداد الضحايا والأسرى، إلا أنه كان يبرز دور الملك، فإذا تغضينا عن هذه التفاصيل يكون ما سجله الكاتب المصري قد اتبع فيه منهجا علميا قريبا من منهجنا اليوم، بدليل أننا في دراستنا لتاريخ مصر القديم نعتبر أن ما قدمه الكاتب المصري هو مصدرنا الأساسي للمعلومات. ولكن يظل أهم إنجازات المصري القديم لخدمة علم التاريخ وتسجيل أعمال الإنسان وترتيبها هو عملية قياس الزمن والوصول إلى عمل تقويم وان كانوا دائما يسجلون الأعمال طبقا لسنوات حكم ملوكهم.

(ب) الهدف:

لقد رأينا مدى اهتمام المصريين بتسجيل أعمالهم ونقشها غائرة في الصخر وتجسيد وتشكيل صورهم في أصلب الأحجار وكان هدفهم تخليد أعمالهم ونقل خبراتهم إلى الأجيال التالية، فنجحوا ونقلت التجربة ووصلت إلينا، وعاشت من خلالنا. ويرجع هذا النجاح إلى عدة عوامل من أهمها: عامل اللغة فاختيارهم للحروف التصويرية (الهيروغليفية) والإصرار عليها رغم توصلهم إلى حروف أكثر اختصارا (الهيراطيقية والديموطيقية)، مما سهل لشامبليون وزملائه فك رموزها، فأفرج عن الماضي الحبيس. وال" ولكن اللغة كان هناك عامل آخر مهم هو العامل البشرى وبالتحديد ذلك الفنان المصري الذي برع في النحت والرسم وتكوين الألوان الثابتة التي أضفت على أعمالهم الكثير من الحيوية، فكانوا روادا وأصحاب حضارة، وقديما قال هيرودوت " مصر هبة النيل " ولكن يجب علينا أن نقول "مصر هبة المصريين" فكم من بلاد يجرى فيها النيل ليس بها حضارة مثل الحضارة المصرية.

المصادر

وتعتمد دراستنا لتاريخ مصر القديم على مصدرين أساسيين:

١- كتابات المؤرخين القدماء من إغريق ورومان. وقد أخذت قيمة هذا المصدر تتضاءل منذ أن نجح العلماء خلال القرن التاسع عشر من قراءة اللغة المصرية القديمة وترجمة نصوصها.

٢- الآثار بما تحمله من كتابات ونقوش وصور والتي تتفق الآراء الآن على اعتبارها المصدر الرئيسي والأول لمعلوماتنا.

وبجانب هذين المصدرين قد يعتمد على المعلومات التي تمدنا بها دراسات حضارات الشرق القديم الأخرى كالبابلية والأشورية والحبشية التي عاصرت بعض أدوار الحضارة المصرية وتفاعلت معها وأثرت فيها وتأثرت بها. وقد يعتمد المؤرخ وخاصة من يهتم بالعصور المتأخرة على بعض ما جاء في الكتب السماوية كالتوراة التي روت قصص سيدنا يوسف وموسى وسليمان وتحدثت كثيرا عن مصر.

المصدر الأول:

من أوائل المؤرخين والرحالة القدامى الذين زاروا مصر وكتبوا عنها هو:

١- هيكاتيه الملطى[1]:

وقبل أن نتكلم عن أقدم المؤرخين الإغريق والرومان يجب أن نبدأ الحديث بمانيتون السمنودى ذلك الكاهن المصري الذي كلفه بطليموس الثاني بكتابة تاريخ مصر وذلك في إطار اهتمام المصريين بتخليد أعمالهم وتاريخهم الطويل الذي اعتبر ملوك البطالمة أنفسهم ورثة

---

[1] نسبة إلى بلدة ملطية الإغريقية في لآسيا الصغرى.

لعرش حورس والحافظين له وأيضا بهدف توطيد أواصر الود بين اليونانيين والمصريين، ولا يعرف أحد مكان مولده ولا حتى معنى اسمه. لكن عند تكليفه بكتابة تاريخ مصر كان كاهنا بمعبد سمنود، وربما أصبح فيما بعد الكاهن الأكبر في هليوبوليس. وقد لعب مانيتون دورا هاما في خلق ونشر عبادة الإله سيرابيس ليكون معبود كل من المصريين واليونانيين في مصر، وذلك في حوالي ٢٨٦ ق.م. كان مانيتون ضليعا في اللغة المصرية وكتابتها الهيروغليفية. وكان عالما في الدين وعلى علم بالتاريخ القديم لبلاده، وقد ساعده الملك وسخرت جميع امكانات الدولة لمساعدته، ووضعت كل ما تملك من مصادر وما يوجد في المعابد من وثائق تحت تصرفه. وفي بعض الأخبار التي رويت وكتبت عنه في العصور اللاحقة، ولكن ليس هناك ما يؤكدها، أنه كتب ثمانية مجلدات كان كتابه "ايجيبتياكا" -أي تاريخ مصر- أهمها. ولكن لم يصلنا لسوء الحظ إلا جزء قليل منه وهو منقول عن الأصل حينا ومختصر حينا آخر، وهو لا يزيد في أغلب الأحيان عن جداول أو قوائم بأسماء الملوك مرتبة ومقسمة إلى ثلاثين أسرة، وقد وصلت إلينا أجزاء منها منقولة في مؤلفات أقدمها من القرن الأول الميلادي مثل كتاب فلافيوس يوسيفوس الأورشليمي المعروف باسم (الرد علىٰ أبيون Apion ما نقله أفريكانوس (الأفريقي) حوالي ٣٢٠ م. وكان آخر من نقلوا عن مانيتون الراهب جورجيس المسمى سينكلوس في مؤلفه الذي وضعه حوالي ٨٠٠م عن تاريخ العالم منذ بدء الخليقة حتى أيام الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م).

لقد أقدم الذين أتوا إلى مصر وكان هذا في القرن السادس ق.م. حوالي عام ٥٧٠ ق.م. وادعى أنه اتصل بكهنة آمون في طيبة وغيرهم. وقد انصب اهتمامه في كتابه الذي فقده على فيضان النيل وتكوين الدلتا وحيوانات مصر أكثر من الاهتمام بالمصريين فهو جغرافي ومؤرخ ثم رجل سياسة لعب دورا هاما في إثارة الأيونيين ضد دارا الفارسي.

٢- هيرودوت الهليكارنسي:

أطلق عليه الخطيب شيشرون لقب (أبو التاريخ). يختلف الباحثون في تحديد مولده، فمنهم من يجعله في ٤٨٩ ق.م. ومنهم من يجعله بعد ذلك بخمسة أعوام. وينتسب هيرودوت إلى أسرة معروفة موسرة ومؤثرة في توجيه السياسة. عمه أو خاله (بانياس) كان من الشعراء المعروفين كما كان زعيم حركة المقاومة لتخليص وطنهم من حكم الطاغية (لجداموس الثاني) وقد أثرت

كل هذه الحوادث في الفتى هيرودوت الذي هاجر إلى (سلموس) التي كانت مدينة مزدهرة اقتصاديا ومركزا ثقافيا، فأقام فيها واستفاد من المناخ العلم الذي كان يهيمن عليها. وبقى هيرودوت في سلموس حتى بدء رحلاته، وحينما شعر بضخامة ما تجمع لديه من تراث عكف على التدوين واستطاع أن يترك للأجيال تراثا - مهما يختلف الناس في الحكم عليه- يعد مجهودا ضخما وبناء قويا وسيظل كذلك فترة طويلة.

سمي هيرودوت مؤلفه (تمحيص الأخبار) ويقع الكتاب في صورته الحالية في تسع كتب وهذا التقسيم يرجع إلى النحويين والسكندريين وأطلقوا على كتاب اسم إحدى بنات زيوس. أما هيرودوت نفسه فلم يشر إلى أجزاء كتبه إلا بعبارات عامة كالأحاديث الليبية أو الروايات الأسوية..الخ، ولكن الكتاب يدور حول محور واحد وهو تاريخ الحروب والوقائع التي حدثت بين الهلينيين والفرس. وما يعنينا من كتب هيرودوت التسعة هو ثانيها لأنه خصصه للحديث عن مصر، وسمي هذا الكتاب ربة الموسيقى Euterpe ويحوى ١٨٢ فصلا. ذكر هيرودوت في مطلع كتابه أن حديثه عن مصر سيطول نظرا لكثرة ما فيها من عجائب وروائع من الفنون والصناعة. ويضم كتاب هيرودوت عن مصر بابين: يتناول أولهما الحديث عن أرض مصر وطبيعتها وخصائص شعبها، مدعيا أنه اعتمد في ذلك على مشاهداته وآرائه الخاصة. ويتناول ثانيهما تاريخ من اشتهروا من فراعنتها، زاعما أنه اعتمد في ذلك على رواية الكهنة، وهم أهل العلم والمعرفة وأصحاب الثقافة الواسعة والفنية.

ودون شك أن هيرودوت قد خدع فيما سمع من روايات الأداء والترجمة. وذلك أمر له خطره العظيم في تقدير ما سجل لنا من معارفه ولكن مهما يكن من الأمر، فإن ما كتبه هيرودوت عن مصر يدل على أنه بذل جهدا كبيرا في إخراجه كما يدفعنا إلى النظر فيه، ولكن بحذر وحيطة وحرص على تحرى الحقيقة المجردة في غير تعصب أو قسوة في النقد.

وتنتهي حياة هيرودوت في المستعمرة الإغريقية (ثروى) التي أنشأتها أثينا في جنوب إيطاليا في عام ٤٤٣ ق.م. وقد عايش السنوات الأولى من حرب البلوبونيوس ومات في عام ٤٢٥ ق.م. ودفن في سوق المدينة[٢].

---

[٢] ترجم صقر خفاجة كتاب هيرودوت الثاني، كما ترجم أمين سلامة مؤلف أ.ج.ايفانز، هيرودوت مجموعة من مذاهب وشخصيات، عدد ٧، بدون تاريخ.

٣- ديودور الصقلي :

"لم يهمل التاريخ مؤرخا كما أهمل ديودور ..." هكذا بدأ د.وهيب كامل[٣] كلامه عن هذا المؤرخ الصقلي.

ولد ديودور في النصف الأول ق.م. في مدينة آجريوم وهى من أعمال صقلية، وزار مصر حوالي علم ٥٩ ق.م. ولا نعرف بالضبط مقدار المدة التي قضاها في مصر، ولمن الظاهر أنه غادرها بعد عام ٥٧ ق.م. مباشرة، فقد بدأ في كتابة مؤلفه الذي سماه "خزانة التاريخ" في علم ٥٦ ق.م. وقضى ثلاثين عاما في تأليفه وهذه الفترة الطويلة تشمل على الأرجح السنين التي قضاها في رحلاته إلى البلاد التي كتب عنها ويرجح أنه لم يبدأ رحلاته بمصر وأنه زار قبلها روما ويرجح أنه مات قبل أن يقع الصراع بين أنطونيو واغسطس في حوالي علم ٣٥ ق.م.

و"خزانة التاريخ" مؤلفة من أربعين جزءا، يظهر أنها كانت متساوية الحجم، ولم يبق منها إلا الأجزاء الخمسة الأولى والأجزاء من الحادي عشر إلى العشرين، ووصلت إلينا مقتطفات من الأجزاء التي ضاعت مقتبسة في كتب من أتى بعده من مؤرخين وعلى رأسهم يوسيبوس.

وضع ديودور منهجا لكتاب في المقدمة يتبين منه أن الكتب الستة الأولى تقف عند الحرب الطروادية، والكتب الإحدى عشر التالية تتناول تاريخ العالم من حرب طروادة إلى موت الإسكندر، أما الكتب الثلاثة والعشرين الأخيرة فتروى قصة العالم من موت الإسكندر إلى علم ٥٩ ق.م. وقد أفرد ديودور الجزء الأول من كتابه لتاريخ مصر.

٤- هيكاتيه الأبدارى:

سمي الأبدارى نسبة إلى (أبدارا) Abdera من بلاد اليونان. عاش فترة من الوقت في بلاط بطليموس الأول، ووضع كتابا عن مصر ضاع للأسف الشديد أغلبه، ولم يتبق منه إلا القدر اليسير الذي أشار إليه ديودور الصقلي، وهذا القدر اليسير يحدثنا عن العادات والأساطير الدينية.

---

[٣] وهيب كامل، ديودور الصقلي في مصر، دار المعارف بمصر ١٩٤٧.

٥- فلافيوس يوسيفوس الأورشليمي:

ولد عام ٣٧ ق.م. كتب (الرد على أبيون Apion) وفيه يرد على اتهامات الكاتب اليوناني (أبيون) المعروف بعدائه الشديد لليهود وينسبهم إلى أصل أبرص ونجس، فشردهم المصريون في طول البلاد وعرضها، ثم أخرجوهم من مصر، فلجأ يوسيفوس أو يوسف الأورشليمي السكندري اليهودي إلى مانيتون ليس حبا فيه أو في المصريين بل ليضفي نوعا من الهالة على بني جنسه اليهود ويدافع عنهم، فقد نقل عن مانيتون بعض الفصول التي عقدها في مؤلفه عن الهكسوس أردفها بقائمة بأسماء الملوك من أيام تحتمس الأول وحتى عهد رمسيس الرابع وهم واحد وعشرون اسما كما حدد مدد حكمهم بالسنوات أو الشهور والأيام. وأكبر الظن أن يوسيفوس لم ينقل مباشرة عن مؤرخنا المصري وإنما نقل عمن أخذوا عنه، وعلى أية حال فقد أورد يوسيفوس نقلا عن مانيتون قائمة أخرى بأسماء الملوك من عهد مينا إلى أيام الإسكندر مع بيان سنوات حكمهم.

٦- استرابون:

وفي الربع الأول من القرن الميلادي الأول زار مصر الجغرافي (استرابون) فصعد النيل حتى وصل إلى الجندل الأول، فوصف الطبيعة المصرية كما وصف النيل وصفا رائعا، وأفرد لمصر الفصل السابع عشر من كتابه، وحدثنا فيه عن المدن المصرية وحدد عواصمها وعادات سكانها.

٧- بلوتارخ:

عاشق مصر وأكثر المؤرخين القدماء أمانة وصدقا، وهو مؤرخ يوناني ولد في حوالي

عام ٥٠ م وتوفى بعد عام ١٢٠م وقد عاش (بلوتارخ) في مصر فترة طويلة وأفرد في مؤلفه فصولا عن العقائد والأساطير المصرية، ثم أفاض في الكلام عن إيزيس وأوزوريس، ثم سمي كتابه بقصتها فسماه "إيزيس وأوزوريس"

٨- الراهب جورج المسمى سينسلوس Syncellus:

عاش في القرن التاسع الميلادي وكان جورج يخدم بطريرك الإسكندرية ويكتب، فنقل عن (يوسبيوس) و(أفريكانوس) تاريخ مصر وأشار فيه إلى أن (مانيتون) قد قسم كتابه ثلاثة أجزاء وأنه قسم الحكام إلى أسرات، وأنه نسب هذه الأسر إلى بعض الأقاليم المصرية، ثم بين جورج أن مخلفات (مانيتون) نوعان من كتب التاريخ: "المختصر" وهو يقدم لنا أشهر الفراعنة و"الجامع" وهو الأصل ويعطينا صورة كاملة لتاريخ الملوك المصريين جميعا ومدد حكمهم بالأعوام والشهور والأيام.

وبجانب من سبق ذكرهم من المؤرخين يوجدعدد كبير من الكتاب الذين اعتمد على كتاباتهم في الدراسات الخاصة بالفترة المتأخرة من التاريخ المصري القديم أمثال (أسطوفان) و(بليني الكبير) و(بطليموس الجغرافي) و(أكسينوفن) و(تاكتوس) وغيرهم الكثير.

ومع إدراكنا لأهمية ما كتبه هؤلاء المؤرخون عن مصر القديمة فإننا ننظر بحذر وشك إلى كثير من المعلومات التي أوردوها ونرفض جانبا منها لأسباب متعددة. فهؤلاء المؤرخون جميعا قد زاروا مصر في عصور تأخرها واضمحلالها، فكانت مصر مختلفة عما كانت عليه فيما سبق. وكانت إقامة الغالبية من هؤلاء العلماء في مدن الوجه البحري فلم يتبينوا أوجه الحياة المصرية السابقة وكذلك اعتمد هؤلاء في كثير مما أوردوه من معلومات على الأحاديث التي تبادلوها مع من قابلهم، فأدى عدم معرفتهم للغة المصرية إلى سوء فهمهم للكثير مما ذكره أولئك المصريون، كما دارت تلك الأحاديث عن عصور قد مضى عليها آلاف أو مئات من السنين فلختلط بأحاديثهم كثير من الأوهام والأساطير. وأخيرا فإن هؤلاء الكتاب لم يكتبوا باتجاه علمي سليم بل أفاضوا في المبالغات ليثيروا حب استطلاع قرائهم.

المصدر الثاني:

تعتبر الآثار هي المصدر الحقيقي لدراستنا للتاريخ في عصور الفراعنة، فقد اهتم المصريون القدماء منذ العصر الحجري الحديث الأعلى أو عصر المعادن Eneolithic Period بالتاريخ عندما سجلوا بعض الأحداث على مسطحات الأواني الفخارية وأيضا على جدران حدائق الكوم الأحمر (نخن) بالقرب من (الكاب) في صعيد مصر. استمر المصري يسجل الأحداث الشخصية والعامة والتاريخية ويؤرخها ليضفى عليها صبغة الخلود. ولم يترك المصري القديم مساحة ما أو مادة ما دون أن يستغلها للتسجيل، فكانت البداية أواني الفخار واللوحات العاجية الصغيرة الأخشاب ثم على لوحات حجرية وفيما بعد مسطحات أكبر مثل التماثيل، وجدران المعابد والمقابر واللوحات الضخمة، وأيضا أوراق البردي، وتركوا لنا بالفعل آثارا هامة ووثائق نادرة ضمت قوائم الملوك وهى تعتبر وثائق تاريخية نقشوا ودونوا عليها أسماء ملوكهم مرتبة ترتيبا زمنيا، مع تحديد مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم، ووصلت الدقة بهم في بعضها أنهم ذكروا أهم أحداث عصر كل ملك.

١ـحجر بالرمو:

عرف بهذا الاسم نسبة إلى متحف بالرمو عاصمة صقلية المحفوظ فيه منذ ١٨٧٧، وهو إحدى الوثائق التاريخية الهامة، التي سجل عليها أهم أحداث ملوكهم. وهى عبارة عن لوح كبير من حجر الديوريت، حطم إلى سبعة أجزاء أكبرها محفوظ في متحف بالرمو، كما حفظ البعض الأخر في كل من متحفي القاهرة ولندن.

ويبلغ طول حجر بالرمو ٤٣،٥ سم ، وهو منقوش على الوجهين بحوليات ملكية جمع فيها المؤرخ المصري أحداثا بدأت بأتباع حورس وهم أولئك الملوك الذين حكموا مصر قبل توحيد مينا، وقد سجل الكاتب أسماءهم بداية من الصف الأعلى ونقش تحت كل اسم مخصص الملك وهو جالس يلبس التاج المزدوج.

وسجلت هذه الوثيقة التاريخية الهامة مدد حكم الملوك منذ الأسرة الأولى حتى عصر كتابتها في الأسرة الخامسة وربما في عصر الملك (جد- لا- رع-أسيسى).

وقد انتهج كاتب حجر بالرمو طريقة فريدة لم يتبعها المصريون في وثائقهم المماثلة والتي وصلت إلينا من عصر الدولة الحديثة، إذ سجل إلى جانب اسم الملك اسم أمه وارتفاع الفيضان في عهده عاما بعد عام وأيضا تعداد الماشية والأراضي وأهم الأحداث التي شملت تأسيس المعابد وإقامة المدن والاحتفالات الدينية والملكية والحروب وإرسال البعثات وتقديم الهبات والقرابين. ويتميز كاتب حجر بالرمو بالإيجاز والوضوح فنجده يفصل بين أحداث كل عام وآخر بعلامة رأسية تدل على العام في المصرية القديمة. أما الحجر نفسه فقد قسم إلى صفوف أفقية منها ستة على وجه وخمسة على الوجه الآخر. وآخر اسم ملك ذكر في هذه القائمة هو اسم الملك (نفر- اير- كا- رع) وهو ثالث ملوك الأسرة الخامسة.

٢- قائمة الكرنك:

وترجع إلى عهد الملك تحتمس الثالث (الأسرة الثامنة عشرة). وقد وجدت منقوشة على جدران إحدى الجدران الصغيرة[٤] المجاورة لصالة الأعياد. وقد تم اكتشافها عام ١٨٤٤ ونقلها مكتشفها (بريس- دافن) إلى وطنه فرنسا حيث تحتل مكانا بارزا في متحف اللوفر.

ولسبب لا نعلمه حوت هذه القائمة مجموعة مختارة من أسماء الملوك تبلغ ٦١ ملكا، وقد أغفلت أسماء ملوك الأسرات الثلاث الأولى وملوك فترة الانتقال الأولى وكذلك ملوك الهكسوس.

٣- قائمة أبيدوس:

نقشت على جدران إحدى الممرات بمعبد سيتى الأول في أبيدوس وهى ترجع إلى عصر الأسرة التاسعة عشرة، وقد صور الفرعون سيتى الأول وبرفقته ولى عهده رمسيس فيما بعد رمسيس الثاني يقدمان الهبات والدعوات لأسماء ٧٦ ملكا من الأسلاف، وعلى رأس القائمة نجد اسم مينا، ولكن الكاتب أغفل لأسباب سياسية أسماء بعض الملوك مثل الملكة سوبك نفرو

---

[٤] وتسمى أحيانا بحجرة الأجداد.

آخر حكام الأسرة الثانية عشرة، ويهمل أيضا ذكر أسماء ملوك فترة الانتقال الثانية ومعهم ملوك الهكسوس، ثم يسقط من القائمة أسماء حتشبسوت واخناتون وسمنخ- كا- رع، وتوت عنخ آمون، وأيضا اسم آي. وتنتهي القائمة باسم سيتى الأول*.

٤- قائمة سقارة:

وهذه القائمة موجودة الآن بالمتحف المصري بالقاهرة وكانت في الأصل منقوشة على جدران مقبرة الكاهن تونرى المعاصر للملك رمسيس الثاني، وكان كاهنا في أحد معابد مدينة منف ودفن في سقارة، وهذا الثبت مكتوب على الوجهين وكان عليه أسماء ثمانية وخمسين ملكا يتصدرهم اسم الملك (مر- بى- با) سادس ملوك الأسرة الأولى وينتهون بالملك رمسيس الثاني.

ويبدو واضحا أن هذه اللوحة قد كتبت في نفس العصر الذي كتبت فيه قائمة أبيدوس، إلا أن الغرض من كتابتها كان مختلفا ولأنه من المرجح أن الكاهن تونرى قد أراد أن يسجل أسماء الملوك الذين قاموا بإنشاءات معمارية في العاصمة منف أو الذين أغدقوا الهبات على معابدها وآلهتها، وقد أسقطت هذه القائمة أسماء ملوك الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة وأسماء ملوك الهكسوس، كما أغفلت أسماء حتشبسوت والملك اخناتون وخلفائه ممن اعتنقوا عقيدة آتون.

٥- بردية تورين:

كتبت بالخط الهيراطيقي وهى ترجع إلى أسرة التاسعة عشرة وربما إلى عصر الملك رمسيس الثاني بالتحديد، اشتراها قنصل فرنسا در وفتى في عام ١٨١٨ وكانت آنذاك في حالة سليمة إلا أنها تفتت فيما بعد، وعند انتقالها إلى متحف تورين قام الدكتور (أبشر) مرمم متحف برلين في ذلك الوقت بترميمها. وتعتبر هذه البردية من الوثائق التاريخية الهامة بل من أهم مصادر تاريخ مصر القديم، وتمتاز بتبويبها التاريخي وتقسيم أسماء الملوك إلى مجموعات أو

---

*وكان هناك ثبت آخر في معبد رمسيس الثاني بأبيدوس ولكنه تحطم وتوجد أجزاء منه الآن في المتحف البريطاني.

أسر. وتبدأ القائمة بأسماء الآلهة الذين حكموا مصر وهم رع، شو، وجب ثم أخرون يليهم أنصاف الآلهة أتباع حورس ثم أسماء ملوك الأسرات وعلى رأسهم مينا، وتستمر إلى ملوك الأسرة السابعة عشرة، فتمدنا بمعلومات هامة ونادرة عن هذه الفترة التي تنتهي بتحرير البلاد من احتلال الهكسوس. وبهذا تقدم لنا هذه القائمة أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء ملوكها وتحت اسم كل منهم حدد النص عدد سنوات حكمه وهكذا قدم لنا النص مستندا ربما كان هو النموذج الذي نقل عنه (مانيتون) قائمته أو اقتبس منها معلوماته.

٦- نصوص الأنساب:

مما يلاحظ أن قوائم الملوك والتي سبق لنا استعراضها، لا تتخطى عصر رمسيس الثاني، ولكن نصوص الأنساب التي انتشرت في العصر المتأخر – أي ما بعد الأسرة العشرين – تضيف لنا ما نستطيع به سد الثغرات في تاريخنا القديم وتؤكد ما سبق أن عرفناه من مصادر أخرى.

وأشهر نصوص الأنساب هذه وأهمها هو نص كاهن بتاح (عنخ – إف – أن سمخت). وهو يرجع إلى عصر الأسرة الثانية والعشرين أي في حوالي منتصف القرن الثامن ق.م. وقد كتب على لوح من الحجر الجيري – محفوظ الآن بمتحف برلين تحت رقم ٢٣٦٧٣ – ذكر عليه نسبا طويلا لعائلته تضمن ستين جدا، كتب أمامهم الكثير منهم أسماء الملوك الذين عاشوا ومارسوا أعمالهم في ظل حكمهم. عاش هذا الكاهن خلال الأسرة الثانية والعشرين ورجع في لوحته إلى أقدم جد أو الجد الأول الذي عاصر نهاية الأسرة الحادية عشرة، أما أحدثهم عصرا فهو الملك شاشنق من الأسرة الثانية والعشرين. ويلاحظ أنه لم يسقط عصر العمارنة ولم يغفل اسم اخناتون ولا من أتوا بعده على عكس المصادر الملكية.

حضر هؤلاء جميعا إلى مصر، وبعضهم لم يحضر إليها إلا بعد أن طاف ببلدان الشرق القديم، ثم كتبوا مشاهداتهم ونقلوا إلينا ما سمعوه من أهل البلاد وظلت كتبهم هذه هي المصادر الوحيدة التي كان يقرؤها طلاب العلم والمعرفة رغم ما حوته هذه الكتب من أخطاء.

وبانتشار المسيحية ثم الإسلام في مصر تنزوى تماما الحضارة المصرية الفرعونية. وبالتالي تختفي تدريجيا اللغة القديمة لتحل محلها في القرن التاسع الميلادي اللغة العربية، وبذلك

تتحقق نبوءة هرمس- تريس- مجيست[٦] التي تقول: "سيأتي اليوم الذي يتضح فيه أن المصريين عبدوا دون طائل آلهتهم فيصعدون إلى السماء ويهجرون مصر، وستصبح هذه الأرض المقدسة موطن العبادة، عبارة عن جبانة واسعة مغطاة بقابر الأموات، آه يا مصر، يا مصر لم يبق من عباداتك غير الأساطير، حتى أبناءك لن يعتقدوا فيك، ولن يبقى منك إلا كلمات منقوشة على الحجر تروى عن أعمالك المجيدة، فبدون الإله والإنسان تصبح مصر صحراء جرداء[٧].

وكلما مرت السنون والأعوام ينسى الماضي السحيق بما يحويه من حضارة مزدهرة ويختفي لتحل محله الأساطير والأوهام كما يتضح لنا من وصف المقريزى لأهرام الجيزة[٨] فيدعى أولا: أن الملك سوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن بدرسان بن هوصال أحد ملوك مصر قبل الطوفان بثلاثمائة عام قد رأى في منامه حلما يفسر له بأن الطوفان سيغرق أرض مصر ويلحق بها خرابا يستمر عدة سنين، فيأمر عند ذلك بتشييد الأهرام وأن يكون لها مسارب يدخل منها النيل ويمر بها ليفيض في الغرب وأرض الصعيد وملأها عجائب وأموال وتماثيل وأجساد ملوكهم، ونقش جدرانه بجميع ما الحكم وجميع العلوم وصوروا فيها صور الكواكب ونقشت أيضا أسماء العقاقير ومنافعها ومضارها وعلم الحساب والهندسة، ويقول المقريزى في وصفه لطريقة بناء الأهرام "...أمر بقطع الأسطوانات العظيمة ونشر البلاط الهائل وباستخراج الرصاص من الغرب واحضار الصخور من أسوان فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة الشرقي والغربي والملون وكانت لهم صفائح وعليها كتابة، وإذا الحجر تم إحكامه وضعوا عليه تلك الصفائح وضربوه فيبعد بتلك الضربة قدر مئة سهم ثم يعاودون ضربه حتى يصل الحجر إلى الأهرام..." ثم يختم المقريزى روايته بالنص المكتوب على باب الهرم:"أنا سوريد الملك – قد أتممت بناء الهرم في ست سنين فمن أتى بعدى وزعم أنه ملك مثلي فليهدمها في ستمائة عام...".

يعتبر ما كتبه المقريزى مثالا بسيطا لما كان يسود عصره وما تلاه من عصور من تصورات خاطئة بل وخرافات يتداولها وينقلها الكتاب ذوو الأسماء اللامعة.

---

[٦] اسم أطلقه الإغريق على الإله جحوتى أو توت ويعنى "توت الكبير" (مكرر) ثلاث مرات.

[٧] كتاب "الخطط" للمقريزى ، الجزء الأول. ص١١.

[٨] المرجع السابق.

وكما سبق أن نوهنا فإن العوامل الدينية أدت إلى تردد الكثير من الأوروبيين على مصر، خاصة رجال الدين الذين تعرفوا على تاريخ مصر القديم عن طريق الكتب الدينية وعلى الأخص العهد القديم (التوراة). وفى نهاية القرن السابع عشر بدأت تفد على مصر مجموعات من رجال الدين منهم بروتز Protais وفرانسوا François وفان-سلب Vansleb وكان هذا الأخير أول من وجه الانتباه إلى آثار الأقصر، إلا أن التقدم الأكبر كان في القرن الثامن عشر وأهم شخصيات هذه الفترة القس سيكار الذي قضى أعواما طويلة يكبب المرضى ويتجول في أنحاء مصر ومات على إثر إصابته بالطاعون بعد أن ترك مؤلفا يحوى الكثير من المعلومات الجغرافية عن مناطق الصعيد الهامة، ومنها أبيدوس، ادفو، الأشمونين، وفيلة وأيضا وإسنا. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر كثر عدد الكتب التي تناولت مصر ووصفت بالتفصيل نباتها وحيواناتها وتقاليد وعادات أهلها وأحوالهم الاقتصادية بل والإدارة أيضا. وإن ظل تناولهم للآثار يتم بقليل من الفهم ولكن ما تركوه لنا من مناظر مرسومة مازلنا نستفيد منه إلى الآن رغم أنهم غيروا في أسلوب المناظر التي نقلوها من على آثار الأقدميين ورسموها بالأسلوب الكلاسيكي اعتقادا منهم أنهم بأنه تصحيح لأخطاء وقع فيها الفنان المصري القديم غير مدركين أنهم يشوهون أسلوبا أصيلا.

وقبل الانتقال إلى موضوع أخر يجدر هنا الإشارة إلى رحلة "كرستن نيبور" إلى مصر في علم ١٧٦١-١٧٦٢. ويلى نيبور بعد سلسلة كبيرة من رجال الدين والرحالة والمغامرين الذين توافدوا على الشرق منذ العصر الوسيط ولعل أقدم رحلة معروفة هي الرحلة التي قام بها المطران أركولفوس Arculfos في علم ٦٩٧ زار خلالها فلسطين ومصر وإثيوبيا واليمن وغيرها من بلاد الشرق، وكتب فون هارف وما كتبه عنها يوضح لنا أن أهداف أولئك الرحالة قد تغيرت، فلم يعد الحج إلى بيت المقدس هو وحده الذي يجتذبهم، بل أصبح السعي إلى العلم والمعرفة، والحرص على الأخبار العجيبة والطريفة يجذب الكثير منهم، وبمرور الوقت قل عدد الرحلات الدينية وعظم شأن الرحلة العلمية التي تسعى إلى كشف جغرافي أو جيولوجي أو أثرى.

وتعتبر رحلة "كرستن نيبور" حلقة هامة في تاريخ الرحلات العلمية وقد نشأت فكرة هذه الرحلة العلمية عندما أخذ الأستاذ "يوهان دافيد ميخائيلس" يطبق في شرع الكتاب المقدس منهجا قائما على الرجوع في تفسير الكلمات والعبارات إلى الواقع الملموس، ووجد أنه من الضروري أن يذهب أحد علماء اللغات السامية إلى البلاد العربية سعيا وراء المدلولات الواقعية

لبعض نصوص الكتاب المقدس الغامضة. وكان ميخائيلس أستاذا بجامعة جوتنجن بالمانيا، وكان وثيق الصلة بالبلاط الملكي الدانمركي، فقدم هذه الفكرة في عام ١٧٥٦، فتحمس لها وزير الخارجية "جراف برنستورف" Graf Bernstorff وطلب من الأستاذ ميخائيلس أن يرشح من يصلح للمهمة، على أن يتولى البلاط الدانمركي الإنفاق على رحلته إلى البلاد العربية. واختار ميخائيلس تلميذا له ضيق الأفق قليل الكفاءة هو "فون هافن". وأدرك الوزير بسعة أفقه أن إرسال شخص واحد لهذه المهمة أمر غير سليم، فقرر أن تسافر بعثة علمية تضم إلى جانب المتخصصين في اللغات متخصصا في الجغرافية، ومتخصصا في العلوم الطبيعية، ومتخصصا في الطب، ورساما. وهكذا دار البحث عن أعضاء آخرين، وشاءت الصدف أن يقع الاختيار على "كرستن نيبور".

"كرستن نيبور" Carsten Niebuhr

ولد في ١٧ مارس ١٧٣٣ في لودينجفورت في أقصى شمال ألمانيا، لأب يعمل بالزراعة ويتملك قدرا محدودا من الأراضي، أرسل ابنه كرستن إلى المدرسة اللاتينية واستمر فيها الصبي حتى وفاة أبيه، وورث منه قدرا من المال، فاتجه إلى تعلم الموسيقى ثم اشتغل بفلاحة الأرض مع خاله، واتجه بعد ذلك إلى تعلم المساحة لكي تكون له حرفة أخرى غير الزراعة.

وعندما بلغ الثانية والعشرين ذهب إلى هامبورج ليتعلم الهندسة في جامعتها، وتحت ظروف معيشية قاسية واصل دراسته ثم انتقل للدراسة في جامعة جوتنجن على أمل الالتحاق بسلاح المهندسين في هانوفر. ومن المؤكد أنه لفت أنظار أساتذته وزملائه بما اتصف به من ذكاء ومثابرة وما تحلى به من خلق قويم. وفي صيف ١٧٥٧ وقع الاختيار عليه للاشتراك في البعثة المتجهة إلى البلاد العربية، ووافق البلاط الدانمركي على منحه راتبا شهريا والسماح بفترة للاستعداد لدراسة الفلك والرسم ورسم الخرائط.

وبدأ كرستن نيبور استعداده للمهمة، ولم يكتف بدراسة هذه المواد، بل زود نفسه بدراسة مستفيضة للمصادر التاريخية والرحلات السابقة، كما درس شيئا من الميكانيكا ومن الحرف اليدوية، وبذل جهدا كبيرا في دراسة اللغة العربية على يد ميخائيلس الذي كانت معرفته بالعربية محدودة جدا على الرغم من كتاب النحو الذي ألفه وبذل جهدا أكبر في دراسة الفلك على

بهالأستاذ "يوهان توبيلس ماير" الذي أعانه على إعداد الآلات اللازمة للرحلة الوشيكة، وفى عام ١٧٦٠ سافر إلى كوبنهاجن وكان البلاط الدانمركي قد منح لقب الأستاذية لفون هافن، وعرض على كرستن نيبور منحه اللقب نفسه، فاستكثره على نفسه، واكتفى برتبة ملازم مهندس.

واجتمعت البعثة في كوبنهاجن، ثم انطلقت لأداء مهمتها في ٧ يناير ١٧٦١. وتنقل كرستن نيبور مع رفاقه أولا، ثم وحده بعد وفاتهم، من القسطنطينية إلى مصر واليمن ومنها إلى الهند وفارس والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين، وعاد عن طريق القسطنطينية مخترقا أوربا الشرقية إلى ألمانيا ومنها إلى كوبنهاجن التي وصلها في نوفمبر ١٧٦٧. وأخرج نيبور كتابه "وصف البلاد العربية" في عام ١٧٧٢ وفى نفس العام قام بترجمته إلى الفرنسية. وفى عام ١٧٧٤ نشر نيبور المجلد الأول من رحلته، ثم نشر أعمال رفيقه في البعثة الأستاذ "فورسكال". وفى عام ١٧٧٨ نشر المجلد الثاني من الرحلة، أما المجلد الثالث فقد ظهر بعد وفاته ونشر عام ١٨٣٧.

أعضاء البعثة:

انطلقت فكرة البعثة أولا من مجال الدراسات اللغوية المرتبطة بتفسير الكتاب المقدس، ووقع اختيار (ميخائيلس) على (فون هافن) لهذه المهمة، وكان المفروض أن يكون (فون هافن) صاحب الكلمة المهمة فيها ولكن كفاءته كانت محدودة فبرز دور (نيبور) بروزا كبيرا أهله له جهده الهائل وتفانيه وحسن خلقه، وأخيرا بقاؤه على قيد الحياة بعد موت الجميع صرعى الأمراض والمشقة خلال الرحلة وإصراره على إتمام الرحلة والانتهاء من مهمته وحده، أما العضو الثالث فهو الأستاذ "فورسكال"، والرابع هو الطبيب "كرامر"، والخامس هو الرسام "باورينفايند". وسافر مع البعثة خادم سويدي الأصل هو "برجرن".

في عام ١٩٥٦ نشر الباحث "ثوركيلد هانزن" Thorkild Hansen كتابه "الرحلة إلى البلاد العربية. تاريخ البعثة الملكية الدنمركية إلى اليمن بين عام ١٧٦١-١٧٦٧:

Reise nach Arabien. Die Geschichte Koeniglich Daenischen – Jemen-Expedition 1761-1767, Hamburg, 1956.

Reise nach Arabien. Die Geschichte Koeniglich Daenischen – Jemen-Expedition 1761-1767, Hamburg, 1956.

وقد استخدم هانزن الكثير من الوثائق المحفوظة في دار المحفوظات الدنمركية. وكشف النقاب عن الكثير من غوامض هذه الرحلة الفريدة. وكتب هانزن عن مهمة بعثة نيبور يقول أنه في ديسمبر ١٧٦٠ تلقى نيبور بيانا مكتوبا يشتمل على ٤٣ بندا محددا ترسم خط سير البعثة ومهامها. ومما جاء في هذا البيان: "تذهب البعثة إلى البلاد العربية السعيدة (اليمن) وتقوم هناك بأكبر قدر ممكن من البحوث. وتسلك البعثة إلى اليمن خط سير يمر بالقسطنطينية فالإسكندرية والقاهرة، ثم تجتاز البحر الأحمر وتعبر إلى سيناء. وتنتقل إلى اليمن حيث تقيم عامين إلى ثلاثة أعوام إذا دعت الضرورة، وتتلخص مهمتها الأولى في تعلم العربية على خير نحو ممكن، والتجوال في البلاد وسواحلها، وعلى كل عضو أن يسجل يومياته، وأن يرسل من سجل اليوميات نسخة إلى الوطن كلما سنحت الفرصة. وقد وضع تحت تصرف البعثة مبلغ ٢٠٠٠ تالر لشراء مخطوطات بأسعار مناسبة. وينبغي على أعضاء البعثة أن يجتهدوا في الإجابة على الأسئلة التي وضعها الأستاذ ميخائيلس والتي يثيرها العلماء الأوربيون الآخرون. وعلى أعضاء البعثة أن يرصدوا خطوط الطول والعرض لتكون أساسا لرسم خريطة للمنطقة التي يجوبونها، وأن يتبينوا الاختلافات بين موسم الجفاف وموسم المطر. ،أن يهتموا بآثار العصور القديمة، وعدد السكان وخصوبة الأرض، وملاحظة المد والجزر في البحر الأحمر، والعلاقة بين المواليد والوفيات، ،اثر تعدد الزوجات على زيادة العنصر البشرى أو نقصانه، والعلاقات بين الجنسين، وعدد النساء في المدن وفى الريف. وينبغي على الدكتور كرامر أن يبحث في الأمراض الخاصة بكل منطقة. وعلى الأستاذ (فون هافن) أن يلاحظ عادات وتقاليد الناس في كل بلد وبخاصة تلك التي تلقى ضوءا على الكتاب المقدس والشريعة اليهودية، وعلى الأستاذ (فورسكال) أن يجمع عينات حيوانية ونباتية. وأن يقوم (باورينفاند) بمعاونة أعضاء البعثة جميعا عندما يطلبون إليه ذلك. وعلى البعثة أن تسلك في طريق العودة طريق البر عبر حلب وازمير.

وهكذا يتضح لنا أنه قبل بعثة نابليون العلمية قد أتت بعثة دانمركية تستكشف بلاد الشرق من مصر حتى الهند وتكتب عنها التقارير العلمية.

وقبل أن نتكلم عن الاكتشافات الأثرية ونعرف كيف استيقظت مصر القديمة من سباتها

العميق، وعلى الأخص يجب علينا أن نذكر أن أول من أوحى إلى نابليون بونابرت باحتلال مصر التي تقع على الطريق إلى الهند هو ذلك الشاب الفرنسي (فولني) الذي تفحص وادي النيل بعيون فرنسية. وأيضا ذلك الرسام الموهوب (دينون) الذي سجل بريشته أدق تفاصيل الحياة في أنحاء مصر ورسم آثارها مما جذب العلماء وكذلك الأفاقين.

وكما سبق أن ذكرنا فإن الغرب تعرف على الشرق وعرف طريقه، فاتجه إليه الرحالة والحجاج والمغامرون وتلاهم العلماء. وكان حلول القرن الرابع عشر إيذانا بميلاد الإستشراق الرسمي Orientalism. ففي عام ١٣١٢ أصدر مجمع فينا الكنسي قرارا بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في اللغات العربية والعبرية والسريانية في جامعات باريس، أكسفورد، بولونيا وأفينيون لذ كان الإستشراق أسلوب الغرب للسيطرة على الشرق[9] فهو أيضا ميدان من ميادين الدراسة المتفقهة وتقليد جامعي اتسع مجاله ليصبح حقلا ذا طموح جغرافي. وكان المستشرقون بوجه عام حتى منتصف القرن الثامن عشر باحثين في التوراة، أو دارسين للغات السامية، أو متخصصين في الإسلام، أو حتى مختصين في لغة وحضارة الصين. وتبوأت باريس مكانة متميزة في عالم المستشرقين إذ استمرت إلى منتصف القرن التاسع عشر عاصمة الإستشراق. ودراسة الحضارات الشرقية القديمة هي بدون شك إحدى الروافد الهامة للإستشراق وإن بدت مستقلة عنه، فمن المعروف أن نابليون اعتمد على عدد كبير من المختصين في حملته المصرية هادفا تأسيس أرشيف كامل في صورة دراسات حول الموضوعات التي يمكن لأعضاء معهده العلمي تقديمها. ولعل ما سجلته ريشة رسام الحملة الفرنسية (دينون) ساعد على جذب الغرب إلى مصر وحضارتها. كما كان اكتشاف حجر رشيد إيذانا بميلاد هذا المجال الجديد من مجالات الإستشراق ألا وهو "علم المصريات" الذي نعتبره هو وقناة السويس من النتائج المباشرة للحملة الفرنسية. ولعلنا لا نغفل أمرا إذا ما أشرنا إلى كتاب "وصف مصر" [10] Déscription de l'Égypte العمل العلمي الذي يعتبر العلامة الأولى التي قامت عليها دراسة مصر القديمة. وقد ظهر هذا العمل في ٢٤ جزءا خلال أربع سنوات من ١٨٠٩ إلى ١٨١٣، وكان لظهوره دوى هائل في المحافل العلمية بأوربا وجعل من مصر منذ ذلك الحين قبلة العلماء والباحثين والمتفقين.

---

[9] المرجع السابق ص ٣٨- ٣٩.

١٠ ترجمت إلى العربية بعض أجزاء من هذا العمل، إلا أن المترجم زهير الشايب وافاه الأجل فلم يكمل مشروعه الضخم

والآن وبعد أن استعرضنا معا وضع "علم المصريات" كما أسماه الأوروبيون لا يفوتنا أن نتكلم عن "فولني" و"دينون"، الأول لما أوحى به إلى نابليون من أفكار أخذ بها ومهدت لحملته على مصر، والثاني لما قدمته ريشته الساحرة من صور لآثار مصر جذبت إليها الناظرين من أهالي الغرب.

فولني ١٧٥٥-١٨٢٠:

هو قسطنتان فرنسوا فولني. ولد لأب يعمل بالمحاماة وشب عليل الصحة. تفوق في دراسة العلوم الإنسانية، وبعد حصوله على ليسانس الآداب، استكمل معارفه في باريس بدراسة الفلسفة والتاريخ ثم الطب. وفي عام ١٧٨١ هبط عليه ميراث لم يكن ينتظره، فوجدها فرصة ليحقق بها أحلامه بزيارة الشرق واختار مصر وسوريا. وجد فولني في الترحال تحقيق أمله وتسجيل ملاحظاته السياسية والعسكرية والاجتماعية والجغرافية ولما كان فولني في الخامسة والعشرين وصحته ما زالت معتلة فكان عليه أولا أن يؤهل نفسه صحيا للتغلب على مشقة الرحلة، فغادر باريس ليقيم في الريف ومارس هناك التريض والتمرينات الرياضية الشاقة وروض نفسه على الحرمان من الطعام أياما كاملة والنوم في العراء وامتطاء الخيل دون سرج. وبعد أن اطمأن إلى اكتمال تدريبه غادر مرسيليا في نهاية ١٧٨١ متجها إلى مصر ليحقق هدفا علميا محددا بوصفه مؤرخا وفيلسوفا يدعم ملاحظاته بالأرقام والأسانيد. وقضى فولني بالقاهرة سبعة أشهر اعترضت خلالها طريقه كثير من الصعاب فلم يتقن العربية ولم يلق أي عون من الجالية الفرنسية مما دفعه إلى التحامل على مصر ومغادرتها إلى سوريا التي كانت تتمتع بالاستقرار أكثر منه في مصر، فأحسن الدروز استقباله وتعلم وأتقن العربية أثناء إقامته بينهم.

قسا فولني على مصر، بل واشتد في ذلك على الأوضاع الداخلية المتهرئة في مصر، وتناول دفاعها العسكري ووضع الجيش بالتحليل فنجده كأنه يدعو صراحة إلى احتلالها، فهي حسب تعبيره عارية من أي دفاع أو استحكامات. وفي كلمات مسمومة وصف فولني شعب مصر بأوصاف مؤلمة مثلما وصف بكلماته الفظة بؤس الأهالي حيث قال في وصف البعض بعد وباء ١٧٨٣ ومجاعة ١٧٨٤: "رأيت تحت جدران الإسكندرية القديمة بعض التعساء ملتفين حول جثة جمل ميت يتناهشون مع الكلاب بقاياه العفنة".

وهكذا يرى فولني في مصر هذه الصورة الكئيبة فهي دولة أنهكتها الفوضى والتفسخ السياسي والاجتماعي والعسكري، بل إنه لا يرى خلاص مصر إلا في تدخل "أوروبي" ينقذها من حالتها المؤلمة ولا يتورع عن ترشيح فرنسا.

وبعد خمس سنوات من ظهور كتابه يقصد فولني في عام ١٧٩٢ جزيرة كورسيكا وهناك يلتقي بالضابط الشاب بونابرت الذي استمع بشغف كبير إلى أحاديث فولني عن مصر، مما حفزه على قراءة كتابه فأعجبه أشد الإعجاب، وقدر فيه قوة حجج المؤلف ووضوح ودقة ما قدمه من أسانيد موثقة. وفهم نابليون من هذا المؤلف الثاقب الرؤيا الواضح الفكر أنه يستطيع السيطرة على طريق الهند باحتلاله مصر. فكتاب فولني يعد تقريرا صادقا عن الأحوال في مصر.

دومينيك فيفان دينون (١٧٤٧-١٨٢٥)

عهد نابليون إلى عالم الكيمياء الشهير (برتوليه) Berthole أن يختار نخبة من العلماء بين أساتذة المعاهد والجامعات. وانضم إلى هذه الحملة عالم الطبيعة والمهندس الأشهر (مونج) Monge هذا إلى جانب مئة من العلماء الذين انخرطوا في هذه الحملة دون أن يتضح لهم الهدف منها – ألا وهو شق قناة السويس وفتح الطريق إلى الهند حتى لا يثيروا شكوك الإنجليز، واكتفى العلماء بأنهم سيبحرون إلى مصر مرافقين نابليون. وفي هذه الأثناء وصل إلى نابليون التماس من البارون (دينون) الأديب، المثال والمصور الذي كان في الخمسين من عمره، وهو من الأشراف المعدودين الذين كان لهم الحق في حضور مراسيم استيقاظ الملك لويس الخامس عشر، وكان أثيرا لديه يحدثه ويؤنس وحشته. كما كان (دينون) من الشخصيات البارزة في البلاد والأثيرة لدى الملك وحاشيته خاصة النساء منها، وإلى جانب نبوغه في الرسم فقد كان عضوا بأكاديمية الفنون الجميلة. وفي عهد الجمهورية شفعت له مواهبه في إنقاذه من القتل.وفي عام ١٧٩٧ تعرف على نابليون وعلى زوجته جوزفين فكان من أبرز المدعوين إلى صالونها.

وسافر (دينون) مرافقا للحملة الفرنسية إلى مصر كجندي ورسلم يحارب بسيفه ويرسم أجمل المناظر الطبيعية بريشته الساحرة من خلال تنقلاته مع الجند في جميع أنحاء مصر حتى أعماق صعيدها فرسم آثارها وأطلالها، وقد جذبته رشاقة خطوطها وجمال مناظرها وان

كان قلبه تعلق بمعبد فيلة ودندرة وفضلهما عن باقي ما شاهده من آثار، وكنه لم يكتف بنقل صور مناظر الآثار بل تعداها إلى رسم الحياة في مصر آنذاك والطبيعة وتقاليد وأزياء أهل البلاد.

وتحتل لوحات (دينون) حيزا ضخما من كتاب "وصف مصر" فقد نقلت إلى أوروبا انطباعا صادقا فاق كل ما سبقه من أعمال. وغادر (دينون) مصر في صحبة نابليون في ٢٠ أغسطس ١٧٩٩. وترك (دينون) ٣٢٥ لوحة قدم فيها مصر حضارة وشعبا إلى الأوروبيين. فكانت رسوماته أول مسح لآثار مصر ورصد لها في نهاية القرن الثامن عشر فمهد بذلك لنشأة علم المصريات[١١].

[١١] انظر ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص٧٥-١٢٨.

الإكتشافات الأثرية في مصر

يعتبر وفود الحملة الفرنسية على مصر بمثابة الشعاع الذي نفذ فأضاء ظلمات الماضي. وصل فريق العلماء والباحثين الفرنسيين في الثاني من شهر يونية ١٧٩٨ فألف منهم نابليون جمعية علمية هي "Institut d'Egypte" عكفت على تسجيل كل ما وجدته في مصر، ومن ذلك آثارها الظاهرة فوق سطح الأرض وقد ساعد أولئك العلماء في أداء مهمتهم هذا الرجل الموهوب في فنه البارون (دينون) ورسماته الدقيقة في كتاب "وصف مصر".

وفى علم ١٧٩٩ عثر على حجر رشيد فكان إيذانا باستيقاظ مصر القديمة. وفى شهر أغسطس في علم ١٧٩٩ كان الضابط "بوشار" مكلفا بحفر خندق حول قلعة "سان جوليان" فعثر الجنود على حجر من البازلت الأسود نقش على وجهه الأمامي نص بثلاث خطوط ولغتين: ففي الجزء الأعلى نقشت (الهيروغليفية) أي الخط المقدس، وفى الجزء الأوسط نقش النص بالخط الشعبي أي (الدموطيقى)، أما الجزء الأسفل من الحجر فنقش النص عليه باليونانية القديمة، وعرفت هذه الكتلة باسم "حجر رشيد" نسبة للمكان الذي عثر فيه عليها. وأما كانت اليونانية معروفة ومقروءة فقد عرف أنه عبارة عن شكر يوجهه كهنة منف إلى الملك بطليموس الخامس الذي أغدق عليهم الهبات، وقد ورد في النص اليوناني إيضاح بأن هذا الشكر سجل بالهيروغليفية والديموطيقية ومنذ ذلك الحين تهافت العلماء على النصوص المصرية في محاولات منهم لفك رموزها. ومن أهم العلماء الذين بحثوا الخط الهيروغليفى كان: توماس يانج، جان- فرانسوا- شامبليون، أكربلاد، دى ساسى.

نقل حجر رشيد إلى الإسكندرية و لكن بعد هزيمة الجنرال الفرنسي مينو انتقل هذا الأثر الهام إلى الإنجليز حيث يحتل مكانا بارزا في المتحف البريطاني بلندن.

جان – فرانسوا – شامبليون:-

كان يبلغ من العمر عشر سنوات عندما وقع نظرة لأول مرة على صورة تمثل حجر رشيد أتى بها عمة الضابط (دي شامبليون) المصاحب لجيش نابليون في مصر، ومنذ تلك

اللحظة بدأ جان-فرانسوا يؤهل نفسه لقراءة الهيروغليفية فبدأ بدراسة العربية، العبرية، الكلدانية، السريانية، الفارسية ثم القبطية، وفيما بعد الإثيوبية. وكان يتابع أبحاث من سبقوه وفى نفس الوقت يتابع مجهوده الفردي إلى أن اكتشف أن النص المصري على رغم تشويهه يحتوى على علامات أكثر من النص اليوناني، وفهم شامبليون أن هذا يرجع إلى أن الحروف الهيروغليفية تصويرية وصوتية في آن واحد وبمعنى آخر، أنها تحتوى على علامات تقرأ وأخرى لا تقرأ وإنما هي موجودة لتحديد معنى الكلمة. وطبق شامبليون هذه القاعدة، واستطاع قراءة أسماء الملوك البطالمة التي ترجمت إلى المصرية، ثم بدأ يهتم بالكلمات المصرية نفسها، وكان الاكتشاف عندما وقع في يده خرطوش ملكي، بداخله رسم للإله توت (تحوتى) أي أبو قردان وآخر يحوى رسماً لقرص الشمس رع، فتذكر أسماء احتفظت بها النصوص اليونانية هما اسما (تحتمس) و(رمسيس)، وبمقارنة بسيطة لاحظ أن كلا من الاسمين ينتهيان بلفظ (مس) فخطرت له فكرة استطاع أن يستخلص منها أن هناك علامات ثنائية وعلامات أخرى تشير للمعنى وتحدده ولما تأكدت الفكرة في ذهنه سقط مغشياً عليه وظل فاقداً للوعي مدة ستين ساعة ولما أفاق كتب في أغسطس ١٨٢٢ خطابه الشهير إلى مسيو داسيه وهو السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية. وكان هذا الخطاب الذي قوبل بحفاوة بالغة إيذاناً بمولد علم جديد هو علم المصريات.

وبدأ شامبليون يدرس كل ما يقع تحت يده من نصوص مصرية وفى كل مرة كانت تقابله الصعاب، يستطيع بحماسه وغزارة علمه وإجادته للغات القديمة وخاصة اليونانية والقبطية، أن يتغلب عليها ويقهرها. وفى عام ١٨٣٥ سافر إلى إيطاليا وزار مجموعة الآثار المعروضة هناك، ونقل نصوصها وأضاف إلى معلوماته كلمات جديدة كما أتم دراسة قيمة قدم فيها قواعد اللغة المصرية القديمة وهو في حد ذاته اكتشاف أهم وأقيم من قراءة العلامات، كما أتم حصر العلامات الصوتية والمخصصات، وفى عام ١٨٢٦ عاد مرة أخرى إلى باريس حيث عين أميناً للقسم المصري بمتحف اللوفر. وبين عام ١٨٢٨- ١٨٣٠ زار مصر برفقة زميله العالم الإيطالي (روزلينى) وفى مصر اشتدت دهشة شامبليون عندما اختفاء أربعة عشر معبداً كانت بعثة نابليون قد سجلتهم في كتاب "وصف مصر" وذلك بسبب نشاط قناصل الدول الأوروبية في تجارة الآثار على رأسهم القنصل الفرنسي در وفتى، فكتب إلى والى مصر محمد على راجيا التدخل ومنع هذه التجارة وإيقاف هذه العمليات البربرية، وعدم المساس بالآثار والمحافظة عليها، واستجاب الوالي لرجائه. وبعد أن أمضى عامين متجولا بين آثار مصر دارساً لها وناقلاً لنصوصها، عاد شامبليون إلى فرنسا، ولكن لسوء الحظ يمنع من دخول بلاده إلا بعد قضاء ثلاثين يوماً في الحجر

الصحي، وفى جو شديد الرطوبة بمضى شهرا كاملا ولكن صحته الضعيفة المنهكة من كثرة العمل لا تحتمل كل هذه القسوة. وفى عام ١٨٣١ يعين أستاذا في أكبر المعاهد للبحث العلمي وهى الكلية الفرنسية Collège de France وبعد شهور قليلة يموت شامبليون بداء الرئة وكان هذا في الرابع من مارس ١٨٣٢ وهو لم يتعد الثانية والأربعين من عمره، وترك لنا هذا العالم الجليل عدة مؤلفات وقاموسين، أحدهما للغة المصرية القديمة والأخر للغة القبطية، لم يفقدوا أهميتهم رغم مرور هذا العدد الكبير من السنين.

و تستمر المسيرة، و في الربع الأول من القرن التاسع عشرة هبت موجه ثانية استهدفت تسجيل النقوش و الرسوم ووصف الآثار القائمة مع القليل من الكشوف المنظمة، و لقد بدأت بعثة روزلينى Rosellini في ١٨٢٨ وامتد نشاطها حتى الجدل الأول و نشر مؤلفة في علم ١٨٣٢ – ١٨٤٤ [١٢] ثم تلتها بعثة ريتشارد ليبسيوس Lepsiusالألماني في عام ١٨٤٠ مبتدئة من الدلتا شمالا حتى السودان جنوبا، و لم يترك ليبسيوس أثرا واحدا دون أن يرسمه ويصفه و صفا ساميا دقيقا، كما كشف عن عدة مقابر في جبانات الجيزة و سقارة و مصر الوسطى، ثم نشر نقوش بعثات التعدين التي أوفدها المصريون القدماء إلى مناجم شبه جزيرة سيناء.

لم يكن فتح باب الدراسة و التنقيب في مصر خيرا كله و ربما كان خيره اقل بكثير من شره، و هذا لان نشاطا تخريبيا بدأ يشتد و يقوى، فقد وفد على مصر نفر من المغامرين الأوربيين فاتخذوا من البحث عن الآثار مهمة لهم، هادفين إلى الإثراء و الكسب السريع، و في مقدمه ناهبي القبور هؤلاء (جيوفني بلزوني) الذي قيل انه كان يعمل في سيرك بانجلترا ثم وفد إلى مصر ليروج ماكينات للري غير انه ما لبث أن وجد في الكشف عن الكنوز الأثرية موردا للكسب فعمل في الحفر باسم البحث العلمي لحسابه و لحساب القنصل الإنجليزي فيد بين ١٨١٧ – ١٨١٩. و قد اجمع الأثريون على تشبيهه بحرباء آدمية أما هو فقد تحدث عن نفسه في وصف جولاته بأنه كان في كل خطوة يخطوها يهشم جانبا من مومياء بحثا عن الذهب.

و يبدو أن النجاح الذي إصابة " بلزوني " كان حافزا للقنصل الفرنسي "در وفتى" أن يقلده فاستأجر هو الأخر وكلاء يعملون لحسابه في التنقيب و نهب الآثار و على رأسهم " فردريك

---

[١٢] انظر قائمة أهم المراجع.

كابو" و كان من نتيجة هذه الأعمال أن دخل سيل من التحف الأثرية في متاحف لندن و باريس و تورين و برلين فضلا عما اكتنزته المجموعات الخاصة.

و في منتصف القرن التاسع عشر كانت أهم الآثار الموجودة على سطح الأرض سجلت كما قطعت دراسة اللغة المصرية شوطا كبيرا و حقق الرواد الكثير من النجاح و في هذه الأونة ظهر (أوجست ماريت) Mariette أو ماريت باشا، والى هذا الرجل يرجع الفضل في تنظيم البحث عن الآثار والتنقيب عنها بل و حمايتها بواسطة إدارة حكومية، فانشأ مصلحه الآثار (الآن هيئة الآثار) و المتحف المصري. و لكن ماريت عندما أتى إلى مصر لم يكن يهدف إلى كل هذا النشاط العلمي الأمين، بان أتى من بلده فرنسا هادفا شراء مجموعات من البردي و الوثائق لتكوين مجموعة لمتحف باريس أي اللوفر أسوة بمجموعات لندن، و الفاتيكان، و برلين و لكن الله شاء أن يكون لماريت شأن آخر.

و لد ماريت في ١٧٢١ و درس في كلية بولونيا و عين مدرسا بها العلمي. و في عام ١٨٤٩ تحول اهتمامه إلى الآثار المصرية فترك كليته و شغل وظيفة صغيرة بمتحف اللوفر بباريس و جاء إلى مصر عام ١٨٥٠ ليجمع المخطوطات و أوراق البردي و لكنه تحول إلى أعمال الكشف. و مما لاشك فيه انه يتميز عمن سبقوه من حيث الخبرة و الهدف العلمي . لقد قضى ماريت حوالي ثلاثين عاما كشف فيها عن السر ابيوم و كثير من المقابر في سقارة و معبد الوادي للملك خفرع بالجيزة، كما كشف عن معابد أبيدوس و مدينة هابو و الدير البحري و ادفو و دندره، كما أنشأ في عام ١٨٥٩ أول متحف للآثار المصرية، فقد استطاع أن يقنع الخديوي إسماعيل بإنشاء أول متحف للآثار بمصر عام ١٨٥٩ فأبطل بذلك حجة الأوروبيين بالخروج بآثارنا على أساس إننا لا نعرف قيمتها[١٣] . و أنشأ هذا المتحف في بولاق و بعد فيضان عظيم غرق متحف بولاق فنقلت الآثار إلى مقر آخر بالجيزة و في ٩ مارس سنة ١٩٠٢ نقلت الآثار إلى المتحف الحالي بميدان التحرير وانتهى العمل فيه في ١٣ يوليه و افتتح للجمهور في نوفمبر من نفس العام.

ولماريت منزلة خاصة في قلوب المصريين فهم لا ينسون صنيعه و ذلك انه عندما عرضت متحف بولاق في معرض باريس عام ١٨٦٧ و طمعت الإمبراطورة (أوجيني) في

---

[١٣] في عام ١٨٣٤ أصدر محمد على قرارا بإنشاء إدارة للآثار ومتحف أو بمعنى أخص مخزن بالقرب من بركة الأزبكية على أن ما كان يصل إلى المتحف من آثار كان يهدى إلى كبار الزوار من الأجانب.

الحصول عليها فطلبتها من الخديوي إسماعيل الذي أحالها إلى ماريت قائلا "أن ثمة من هو أقوى مني في بولاق" فرفض ماريت طلب مليكته و أصر على عودة نفائس مصر إلى بولاق.

و كما كان لماريت نواحي حسنة كانت له سيئة أضرت بالعلم كثيرا و هو شغفه بالنفائس قبل أي شيء آخر فكان ينقب و قليلا مل يتم عملا بدأه ما دام قد استوفى غايته و عثر على نفائسه. كما انه لم يعن بتسجيل التفاصيل و لم ينشر نتائج كشوفه كاملة بل إن بعضها لم ينشر على الإطلاق و لم يقدر في عمله ما سوف تحتاج إليه الأبحاث المستقلة من معلومات دقيقة و تفصيلات عما تم الكشف عنه من آثار و هناك قصة المسرحية التي أراد تمثيلها أمام الأمير نابليون ابن عم الملك نابليون الثالث فقد ابغ الأمير الحكومة المصرية برغبته في زيارة مصر ففكرت الحكومة أن تقدم له مفاجئة تليق بمقام الضيف الكبير و أقترح " ماريت" أن يقوم بحفائر واسعة ليكشف عن آثار هامة ثم يعيد دفنها و يكشفها مرة أخرى أمام الأمير، فوقع اختياره على جبانة الأسرة السابعة عشرة في ذراع أبو النجا بالأقصر و نفذ مشروعه الغريب و نقب في كل ركن من أركان هذه الجبانة سعيا وراء التحف دون أن يسجل أو يرسم أو يصف ما يعثر عليه ثم أهال الرمال ثانية على الجزء الذي اعتقد أنه يصلح لتمثيل مسرحيته. و هنا حدثت المفاجأة و اعتذر الأمير عن الحضور إلى مصر، و لكن الاعتذار لم يمنع " ماريت " من أن يعيد الحفر و يقدم مجموعة مختارة مما عثر عليه و يقدمها باسم مصر إلى الضيف المعتذر و في نفس الوقت يسعى لدى نابليون ليقنع الخديوي على الموافقة على إنشاء مصلحة الآثار المصرية و أن يكون أول مدير لها. حقيقة أن نجاح ماريت في تنفيذ فكرته كان من نتائجه المبشرة في إنشاء هذه المصلحة التي رعت الآثار و صانتها و عملت على حمايتها و لكن من جهة أخرى كان من نتائج تعرفه أن فقدنا كل المعلومات التي كان يمكن جمعها عن عصر هذه الأسرة الهامة في التاريخ المصري.

ومن أهم ما عثر عليه (ماريت باشا) طوال سنوات الحفر و التنقيب في مصر ما نضيفه إلى ما سبق: تمثال شيخ البلد، و الكاتب المصري، و مقابر ميدوم و لوحة العام الأربعمائة و الحديقة النباتية الخاصة بالملك تحتمس الثالث و الدير البحري حيث أخرج من الرمال مناظر رحلة بونت الشهيرة ....الخ، و هذه القائمة البسيطة توضح لنا أن أهم آثار مصر و أكثرها قيمة من الناحية الفنية و التاريخية أخرجها ماريت بنفسه لتحتل اليوم مكانتها في المتحف المصري بالقاهرة و إلى جانب الآثار ترك " ماريت " أيضا أبحاثا و مؤلفات لها قيمة علمية كبيرة حتى يومنا هذا، و في ١٩ يناير ١٨٨١ توفى " أوجست فرديناند فرانسوا ماريت" و دفن حسب رغبته

في مصر، ثم نقل جثمانه ليدفن مرة ثانية في تابوت حجري في فناء المتحف المصري الحالي، و بجواره تمثال بمثله واقفا.

و هناك رجل آخر لعب دورا كبيرا في قسم علم المصريات و هو أيضا فرنسي و نشير هنا إلى (جاستون ماسبيرو Maspero) ولد في ٢٢ يونيه ١٨٤٦. ودرس في باريس ثم نقل منصب أستاذ الآثار المصرية في كلية الدراسات العليا في جامعة السر بمن و كان هذا في علم ١٨٧٩، ثم عين أستاذا للآثار المصرية في أعظم منصب لها في فرنسا و هو أستاذ في " الكلية الفرنسية" بباريس و هو المنصب الذي سبقه إليه (شامبليون) مؤسس علم المصريات و استمر في شغل هذا المنصب لمدة ست سنوات.

و في عام ١٨٨٠ أتى إلى مصر في رأس اكبر بعثة علمية فرنسية و لكن ما لبث أن حل محل (ماريت) بعد وفاة هذا الأخير في رئاسة مصلحة الآثار المصرية، و تبوأ " ماسبيرو " هذا المنصب فترتين، الأولى من ١٨٨٠– ١٨٨٦ و١٨٩١ – ١٩١٤، و توفى بعد ذلك بعامين في باريس.

يعتبر " ماسبيرو " من دعائم علم المصريات فهو الذي كشف هرم أوناس و أخرج للنور أجمل نسخة لمتون الأهرام و التي تعتبر أهم مصدر للتعرف على عقائد المصريين القدماء. و كان " ماسبيرو" عالما واسع الإطلاع متعمقا في علمه غزير الإنتاج فترك لنا مائتي و خمسين مؤلفا أكثرها لا يزال يعتد به حتى الآن، و كان " ماسبيرو" أول من أباح للبعثات الأجنبية حق التنقيب العلمي في مصر، وعلى إثر هذا تكونت في لندن "The Egypt Exploration Fund" وفى القاهرة تكونت بعثة فرنسية باسم:

"La Mission Archéologique Française au Caire"

و كان من أبرز الآثار في العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر هو السير (وليم ماثيوس فلندرز بتري Petrie).

ولد " بتري " ببلدة شارلتون بإنجلترا في الثالث من يونيو ١٨٥٣ و توفى في ٢٨ يوليو ١٩٤٢ بعد حياة حافلة أمضاها في الاشتغال بالتنقيب و تكوين أجيال من المنقبين. أغرم بتري بالآثار المصرية منذ صباه. و توفى ١٨٨٠ بدأ يحفر في مختلف المناطق في وادي النيل و له الفضل الأكبر في وضع الأسس الصحيحة لعمل الحفائر المنظمة، و تسجيل كل صغيرة و كبيرة،

و الإسراع في نشر النتائج العلمية لحفائره لتكون في متناول يد العلماء في نهاية كل موسم.

حفر " بتري " في جميع المناطق الأثرية الهامة في الدلتا القديمة، بل وجه عناية خاصة إلى الجبانات و خصوصا جبانات عصر ما قبل الأسرات (نقاده) و العصر العتيق و ترك للأثريين المتخصصين ثروة ضخمة من المؤلفات. و من أهم أبحاث " بتري " هي التي توصل فيها للتاريخ المتتابع كوسيلة لتاريخ فخار ما قبل التاريخ و في أواخر حياته أوقف حفائره في مصر ليبدأ حفائر أخرى في فلسطين. و نتيجة لهذه السنين الطويلة في العمل و البحث و التنقيب أفاد " بتري " كثيرا و استفاد، و كون مجموعة خاصة أهداها إلى جامعة لندن الذي كان يعمل بها أستاذا، و تمثل هذه المجموعة مكانا بارزا في متحف الجامعة: "University Museum"
و في نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين توالت الاكتشافات الهامة فعثر " كويبل" Quibell على مجموعة برديات الرامسيوم و منها البردية الجغرافية المعروفة باسم Ramesseum Onomasticon طقوس حفل تتويج سنوات الأول، و أجزاء من قصتي سنوهى و الفلاح الفصيح، و رسائل سمنه الادارية.

و في عام ١٨٩٠ عثر على رسائل تل العمارنة و يبلغ عددها حوالي ٣٠٠ رسالة، كتبت بالخط المسماري على لوحات من الطمي المجفف، و هي تمثل الرسائل الدبلوماسية المتبادلة بين ملوك مصر و ملوك و أمراء بابل، و نينوى و ميتان، و قبرص و كذلك أمراء الولايات المصرية في فلسطين و سوريا. و للأسف أهمل شأن هذه اللوحات في بداية الأمر نظرا للشكوك التي أحاطت بقيمتها ثم اتضحت فيما بعد قيمتها العلمية و قام بنشرها العالم الألماني الكبير " كنودتسون " Knudtzon في مستهل القرن العشرين.

و تضاف إلى قائمة الاكتشافات الكبرى ذلك الكشف الذي حدث في أواخر القرن الماضي، و نتج عنه العثور على خبيئة الدير البحري و التي تضمنت أعدادا ضخمة من المومياوات الملكية فكان في الكشف عنها مادة لا تقدر لعلماء الآثار من ناحية و علماء الطب و التشريح من ناحية أخرى.

و في الربع الأول من القرن العشرين تم اكتشاف مقبرتين كان لهما أثر كبير في زيادة معرفتنا عن حضارة عصرين من أهم عصور التاريخ المصري: الأولى هي مقبرة حتب حرس أم الملك خوفو عثر عليها " رايزنر " شرق الهرم الأكبر و الاكتشاف الثاني هو مقبرة توت عنخ أمون احد ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذين تولوا الحكم في أعقاب حركة التوحيد الذي قام بها

إخناتون.

و يتميز القرن العشرون في مصر بالدراسات الشاملة التي هدفت إلى دراسة عصور فجر التاريخ و مدى ما وصل إليه المصري من تقدم في تلك العصور التي سبقت (مينا) بآلاف السنين، فإلى جانب اكتشافات (دي مرجان) و(بتري) هناك اكتشاف " يونكر " لمرمدة بني سلامه في غرب الدلتا، و أبحاث " كيتون تمبسون " و جاردنر في منطقة الفيوم و التي انتهت بتقسيم حضارتها إلى أ و ب. و قامت حفائر المعادى و جزره و السمانية و العمرى و حلوان. أما في الصعيد فاكتشف " برنتسون " جبانات البدارى، و " كيتون تمبسون " عملت ما بين قاو و البدارى ثم واصل " برنتون " اكتشافاته في مصر الوسطي فكانت حضارات دير تاسا قرب نزلة المستجدة، و قام " فينيارد " بحفائر في نجع حمادي بالقرب من قرية السبيل و اثبت أن حضارتها السبيلية ترجع إلى العصر الحجري الحديث.

وهكذا نجد أن اكتشاف (بتري) لحضارات ما قبل التاريخ و اهتمامه بها قد أدى إلى المزيد من اكتشاف نقاط أخرى أو محلات أخرى لعبت دورها في هذا الزمن السحيق في القدم و انضمت إلى حضارات نقاده المزيد من الأسماء الأخرى التي على عراقة هذه الحضارة.

بعد أن قمنا باستعراض سريع لتاريخ علم المصريات نلاحظ انه لم يرد اسم عالم مصري واحد في هذه القائمة الطويلة و ذلك لان اهتمام المصريين بحضارتهم القديمة، و بتراثهم كان ضعيفا جداء على الأقل في البداية.

أحمد كمال باشا أول عالم
مصريات مصري

كان للخديوي إسماعيل أيادي بيضاء على الآثار المصرية فإليه يرجع الفضل في إنشاء متحف للآثار المصرية و إدارة تحمى هذه الآثار، و تنظيم عمليات التنقيب و الحفر. و خطا إسماعيل بعد هذا خطوة عظيمة و هي إعداد شبان مصريين دارسين للغات القديمة و التاريخ و الآثار ليشاركوا العلماء الأجانب في الحفر و البحث و الدراسة و صيانة آثار وطنهم مصر.

اختير عدد من تلاميذ التجهيزية لدراسة اللغتين الحبشية والمصرية القديمة، و اختير العالم الألماني (هنرى بروكش) Brugsch الأمين الأول لمتحف الآثار المصرية ببرلين ليشرف على هؤلاء الشباب و إعدادهم كما ينبغي. و في ١٨٦٩ بدأ بروكش عمله في مصر حيث أعدت له الحكومة منزلا و مدرسه سميت باسم " مدرسة اللسان القديم " و كان يدرس فيها عشرة تلاميذ إلا أنها لم تستمر طويلا و أغلقت على اثر تعذر عودة بروكش من بلاده و كان هذا في عام ١٨٧٤ و تشتت التلاميذ و عمل أكثرهم معلمين للغات الأجنبية و التاريخ و الجغرافيا. و لكن احد هؤلاء التلاميذ نبغ و كون لنفسه مدرسه جديدة من الأثريين المصريين هم الذين سيحملون عنه العبء و يكملون المشوار، ذلك التلميذ هو أحمد كمال باشا الذي وضع على رأس قائمة المؤرخين و الأثريين المصريين، فهو أول مصري يدرس اللغات القديم و تاريخ مصر القديم و يكتب فيه دون أن يلجأ إلى ترجمة ما كتبه الأجانب و تساوى معهم بل في كثير من الأحيان تفوق عليهم.

ولد أحمد كمال بالقاهرة في التاسع و العشرين من شعبان ١٢٦٧ هـ (١٨٤٩م) و التحق بمدرسه المبتديان الإبتدائية بالعباسية، ثم بالمدرسة التجهيزيه التي كان مقرها إحدى الثكنات العسكرية بالعباسية ثم درس بمدرسة بروكش للآثار و اللغة القديمة.

و قبل أن يلتحق بمصلحة الآثار عمل بعدة جهات حكومية و لكن شغفه بالآثار جعله يترك هذه الوظائف رغم ما كان يجنيه من مكاسب ماديه، و يلتحق بوظيفة كاتب بمصلحة الآثار، ثم لم يلبث أن شغل منصب مترجم بالأنتكخانة المصرية مع وظيفة معلم لغة قديمة بها، ولما خلت وظيفة أمين مساعد بالمتحف المصري تمكن من الفوز بها، و كان أول مصري يتقلد هذا المنصب، و قد ظل يعمل بمصلحة الآثار حتى اعتزل العمل سنة ١٩١٤ و هو في الخامسة و الستين من عمره.

و توفى أحمد كمال عن أربعة و سبعين عاما في ٥ أغسطس ١٩٢٣، نجح أحمد كمال في المجال الذي اختاره فأفاد أمته خير أفاده و بفضل إلمامه بالكثير من اللغات الحديثة كالفرنسية و الإنجليزية و الألمانية إلي جانب التركية وبعض اللغات السامية، وبالطبع العربية، وبفضل إطلاعه الواسع وما له من دقة وتفان وإخلاص في العمل وميل للدراسة والتحصيل قدم أول عالم مصري تخصص في علم المصريات إنتاجا وفيرا تميز بأسلوب علمى رفيع فألف باللغة العربية ثمانية كتب إلي جانب ترجمة دليلى المتحف المصري بالقاهرة ومتحف الإسكندرية. تناول إنتاجه باللغة العربية جميع المجالات في المصريات. وتميز بالابتكار والمنهج العلمي السليم – أما

مؤلفاته باللغة الفرنسية فأهمها كتابان يدخلان في نطاق الكتالوج العام للمتحف المصري بالقاهرة.
واشترك أحمد كمال بعمل كتالوجين في هذا العمل العلمي الضخم الذي اشترك فيه أعظم علماء المصريات وقتئذ، يعد أهم تقدير علمي له، فهذه الكتالوجات تعتبر إلى الآن أهم مراجع الآثار المصرية.

١- ويتناول الكتالوج الأول لوحات القبور المنقوشة بالخط الهيروغليفي وترجع إلى العصر اليوناني الروماني (من جزئيين).

٢- والكتالوج الثاني خاص بموائد القرابين من عصر الدولة الوسطى إلى العصر الروماني.

كذلك قام بتأليف ما يقرب من ستين مقالا باللغة الفرنسية، إلا أن أهم عمل علمي قام به هو (المعجم المصري القديم) الذي يقع في ٢٢ جزءا ويجمع مفردات اللغة المصرية وما يقابلها بالعربية والفرنسية والقبطية والعبرية، وللأسف فإن هذا العمل الثمين الضخم لم ير النور حتى الآن ولم يعرف طريقه إلى المطبعة، وظل مخطوطا في حوزة أسرته إلى الآن.

وهذا المعجم يرتبط بناحية اهتم بها أحمد كمال وهي مدى صلة اللغة المصرية القديمة باللغات السامية بوجه عام واللغة العربية بوجه خاص، بل وصل إلى رأى هام وهو أن اللغة المصرية واللغة العربية من أصل واحد.

وتقدم أحمد كمال قبل وفاته ببضعة شهور إلى وزارة المعارف طالبا طبع المعجم على نفقتها، فأحيل جزء منه إلى مدير المطبوعات وكان إنجليزيا في ذلك الوقت، فأحاله إلى كبير الأمناء بمصلحة الآثار العالم الإنجليزي (فيرث) ليبدى رأيه فيه وأشرك (فيرث) معه في الموضوع العالم الفرنسي (لاكو) مدير مصلحة الآثار وقتذاك وعالم الآثار الأمريكي (ريزنر) الذي كان يشرف على حفائر جامعة هارفارد بمنطقة أهرامات الجيزة، وقد حبذ الأمريكي طبع المعجم بينما رفض الفرنسي، وامتنع الإنجليزيان عن إبداء الرأي، وهكذا قدر لهذا المعجم ألا يرى النور.

كان هذا شقا من نشاط أحمد كمال وهو النشاط العلمي، ولكن هناك شق ثان بل وثالث أيضا، ونشير إلى نشاطه في مجال التنقيب والحفائر، فقد أسهم أحمد كمال في التنقيب والحفائر التي أجريت في عشرات المواقع الأثرية وخاصة بمنطقة مصر الوسطى. وكذلك قام بدور رئيسي في سبيل نقل آثار المتحف المصري، وتنظيمها وترتيبها، عندما نقلت من مقرها في بولاق إلى المقر

المؤقت بالجيزة ثم إلى مقرها الحالي بمتحف التحرير. كما قام بالدور الرئيسي في اكتشاف ونقل مومياوات فراعنة مصر التي كانت متكدسة في خبيئة الدير البحري، وذلك إلى متحف القاهرة. أما النشاط الثالث فهو خلق جيل ناشيء من الأثريين المصريين ليعملوا في حقل الآثار الذي كان قاصرا في ذلك الوقت على الأجانب. ورحل أحمد كمال بعد أن كون صفا ثانيا حمل الشعلة من بعده وأصبحت دراسة تاريخ مصر القديم والتخصص في آثارها من المجالات التي تجذب الكثيرين. ولكن ماذا عن تكريم أحمد كمال رائد علم المصريات في وطنه مصر، فحين توفى لم تنعه مجلة مصلحة الآثار بكلمة واحدة، وهو الذي طالما ملأ صفحاتها بمقالاته المبتكرة، ونعى من يرحل من العلماء هو تقليد لهذه المجلة وغيرها من هذا التخصص. وهكذا لم ينع أحمد كمال في عشرات من المجلات العلمية إلا مجلة المجمع العلمي، ومجلة الآثار المصرية البريطانية، وكان ذلك في بضعة سطور.

و يرى الزائر للمتحف المصري أسماء ثمانية عشر عالما أجنبيا مسجلة على واجهة المتحف، ليس من بينهم اسم أحمد كمال. وفى حديقة المتحف وحول تمثال "ماريت" الذي يعلو مقبرته نجد سبعة عشر تمثالا لكبار الأثريين الأجانب، أضيف لهم في الثمانينات تمثال "أحمد كمال" المصري وآخرين.

فترات التاريخ المصري

العصر العتيق: الأسرتان الأولي والثانية (٣١٨٥-٢٧٠٠ ق.م.)

الدولة القديمة: الأسرات من الثالثة إلي السادسة (٢٧٠٠- ٢١٩٥ ق.م.)

عصر الإنتقال الأول: الأسرات من السابعة إلي منتصف الحادية عشرة
(٢١٩٥- ٢٠٠٠ ق.م.)

الدولة الوسطي: الأسرات من منتصف الحادية عشرة إلي الثانية عشرة
(٢٠٠٠- ١٧٩٧ ق.م.)

عصر الإنتقال الثاني: الأسرات من الثالثة عشرة إلي السابعة عشرة
(١٧٩٧-١٤٥٣ ق.م.)

الدولة الحديثة: الأسرات من الثامنة عشرة إلي العشرين (١٤٥٣-١٠٨٠ ق.م.)

عصر الإنتقال الثالث: الأسرات من الحادية والعشرين إلي الثالثة والعشرين
(١٠٨٠- ٧١٥ ق.م.)

العصر الصاوي الأول: الأسرة الرابعة والعشرون (٧٢٧- ٧١٥ ق.م.)

العصر النوبي: الأسرة الخامسة والعشرون (٧٤٧-٦٦٤ ق.م.)

العصر الصاوي الثاني: الأسرة السادسة والعشرون (٦٦٤-٥٢٥ ق.م.)

العصر الفارسي: الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥-٤٠٤ ق.م.)

العصور الأخيرة: الأسرات من الثامنة والعشرين إلي الثلاثين
(٤٠٤-٣٤٣ ق.م.)

السيطرة الفارسية الثانية: ٣٤٣-٣٣٢ ق.م. ودخول الإسكندر الأكبر وبداية مرحلة تاريخية جديدة.

الموقع

تمتد مصر بمعناها الحقيقي من البحر المتوسط إلى وادي حلفا بين دائرتي عرض ٠٠'٢٥° - ٣٦'٣١° شمالا وبين خطي طول ٠٠'٢٥° - ٠٠'٣٧° شرقا.

من أهم العوامل التي تؤثر في مصير الدول هو "الموقع"، وقد تمتعت بموقع جغرافي مميز جعل منها منذ القدم بمثابة الزاوية ففرض عليها دورا تاريخيا مؤثرا لعبته في المنطقة منذ أن عرف العالم "التاريخ".

من العوامل الهامة التي ساهمت في الحفاظ على آثار مصر هو جفاف أرضها وخاصة الأماكن المرتفعة عن الفيضان. وقد اعتمد العلماء على تلك المصادر الأثرية لدراسة الجانب المادي لحضارة وادي النيل حتى فجر عصر الأسرات. وقد بدأ الاهتمام بعصور ما قبل التاريخ في منتصف القرن التاسع عشر خاصة بفرنسا، لذا أصبحت أغلب المصطلحات العلمية المستخدمة للتعبير عن مراحل هذه العصور مصطلحات فرنسية.

الاستقرار وتكوين الجماعات الأولى نواة الأقاليم

يمكننا ولو بصورة محددة تتبع الظروف التي أدت إلى تكوين الأقاليم في مصر منذ عصر ما قبل التاريخ.

فقد تمت الخطوة الكبرى بانتقال الإنسان من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة التي أدى احترافها إلى الاستقرار وتكوين الجماعات في هيئة أسر منفصلة استقر كل منها في مكان خاص به. ونظرا لتعدد أفراد الأسرة الواحدة وقسوة الظروف الطبيعية ظهرت الحاجة إلى وجود قواعد محددة يكون على الجميع إتباعها لفض ما قد ينشأ من منازعات بين أفراد الأسرة وتحقيق حاجة الإنسان للأمن وهكذا ظهرت القوانين (في صورة تقاليد أسرية وأعراف)، وكنتيجة لما سبق ظهر حرص الرجل على ارتباط باقي أسرته به واستقرارهم معه فأصبحت الأسرة أكثر التصاقا والتفافا حول رئيسها المسئول عن حمايتها، وهو عادة ما يكون الأب، ويحل محله حال غيابه أو ضعفه أقوى الذكور في الأسرة.

وبمرور الوقت أصبحت الأسرة أكبر حجما وتفرعت منها جماعات من الأسر ترتبط ببعضها عن طريق روابط الدم فانتقت بذلك من مجتمع الأسر إلى مجتمع العشيرة التي تنحدر من جد واحد. وقد أتى تكوين العشائر بنتائج جديدة، فوجود العشيرة مفروض فيه حتما وجود اجتماعات تعقد بين رؤساء الأسرات فيجتمعوا لتقرير مصلحة مشتركة وهم بذلك يتحدون معا للمحافظة على سلطاتهم المتبادل ويؤلفون مجلسا يمثل فيه كل عضو أسرته، على أن ذلك التمثيل لا يدل على أن العضو المعنى هو أقوى فرد في أسرته بالضرورة، ولكن يدل على أنه الوالد فحسب. ومن ثم تكتسب السلطة الأبوية بهذه الصورة صبغة خلقية. هذه الصورة لا يرجع أصلها لقوة ولكن للتشريع، فكل خلاف ينشأ داخل الأسرة يفصل فيه الأب بسلطان لا ينازعه فيه أحد، ولكن إذا قامت منازعات بين الأسر نفسها فليس لإنسان ما السلطان الكافي للفصل فيها، ومن ثم تحتم اشتعال نار الحروب الداخلية بين الأسرات.

وقد أنشى مجلس الأسرات للتوسط في حل المنازعات، وكان هذا المجس يفتقد لأية

سلطة مباشرة على الأسرات، لذا كان يلجأ إلى العاطفة الدينية لمساعدتهم في مواجهة ما يقع لهم من مشكلات، وهذه العاطفة ترجع في أصلها إلى قرابة الدم الموجودة بين أعضاء العشيرة والأفراد الذين هم على الفطرة ولهم آراء دينية يعتنقونها، فهم يحبون قوى الطبيعة ويهابونها، وهم يخافون الموت ويخشون بأس الأموات وبخاصة موتاهم، وذلك لأنه من بين هؤلاء الأموات الجد الأول للعشيرة أي الفرد الذي ينحدر منه الجميع ويتعبد إليه كل نسله ويرجى سلطانه ليسود السلام بين أفراد الأسرة، فباسمه تعقد المجالس بين رؤساء الأسرات المكونة للعشيرة – ويحتكمون إلى أعماله عند نشوب أي نزاع أو قيام أي عداء بينهم، ومن ثم يتضح أن عبادة الجد ليست هي المنبع الأصلي للتشريع بل هي تصديق للقانون والعرف.

وارتباط الأسر وانحدارها من جد واحد أو جدة واحدة، فمن جماعات الأسر تكونت العشيرة ومن مجموع العشائر تكونت القبيلة(؟)

ولما كانت القبيلة في الأصل هي جماعة من الناس يرتبط أفرادها ببعض برابطة الدم ثم الدفاع عن النفس والمصالح المشتركة وتنظمها أعراف والتزامات، وعلى هذا كان لابد لأفرادها أن يعتنقوا ديانة واحدة فضلا عن عبادة جدهم الأول، وهذه الديانة إما أن تكون ديانة عشيرة أقوى من العشائر الأخرى داخل نفس القبيلة وإما أن تكون ديانة جديدة أخذت عن قبيلة أخرى أقوى أو عبادة إحدى قوى الطبيعة، وهكذا اتسع مفهوم الدين ووضع في مرتبة أعلى من الجد المقدس عند العشيرة باتخاذ اله آخر أعظم منه قوة ويسيطر على كل القبيلة، وذلك لأن نفوذه أعظم انتشارا وبالتالي يكون أكثر قبولا من جميع العشائر المكونة للقبيلة الواحدة، وعندئذ يكون القانون الذي ترتكز عليه العبادة قد خطا خطوة عظيمة وامتد سلطانه إلى كل الذين يتعبدون إلى نفس الإله. وبوصول الإنسان إلى مرحلة تكوين القبيلة استلزم هذا الاستقرار في مكان معين محدد المعالم، خصب، غنى، فسيح يتسع لكل الأفراد. واستلزم هذا أيضا الدفاع عن المكان واستغلال موارده. وبهذا يضاف إلى عوامل رابطة الدم والدين التي استلزمت تكوين القبيلة، تنظيم شئونها برياسة كبير منها يعلو سلطانه على سلطان الأب رب الأسرة والعشيرة، وكما كان للأسرة والعشيرة رئيس، أصبح للقبيلة أيضا رئيس قوى يدين له الجميع بالطاعة ويأتمرون بأمره، وكان عليه واجبات أهمها حماية مجتمعه وتنظيم علاقات الجوار بين أفراد القبيلة وأفراد القبائل الأخرى القريبة والتي تتداخل مصالحهم.

وهكذا أدى تكوين العشيرة إلى نشأة القرية ومن اتحاد القرى نشأت المدينة.

أصل الإقليم وتكوينه:

المدينة في مصر قديمة قدم الكتابة المصرية على أقل تقدير، وهذا لأن المخصص الذي قدر به المصريون أسماء المدن كان على شكل مدينة مسورة تقاطعت طرقها، ومنذ ذلك الحين والحضارة ترتبط بالمدن ارتباطا وثيقا. وكان الفراعنة عموما من مؤسسي المدن: أنشأ الملك مينا الجدار الأبيض (اينب- حدج) ميت رهينة الحالية، والملك أمنمحات الأول أنشأ (ايثت- تاوى) بالقرب من اللشت، كما أنشأ اخناتون مدينته المسماة (آخيت- آتون) تل العمارنة الحالية، وأنشأ أيضا رمسيس الثاني مدينة (بي رمسيس) بشرق الدلتا، وفي العصر المتأخر أنشأ الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية، وبهذا يكون تخطيط المدن فنا مصريا أصيلا وسبقا حضاريا مبكرا.

وتدل المعلومات الأثرية على أن مصر كانت مقسمة إلى أقسام إدارية منذ عصر ما قبل الأسرات مما يدل على أن التقسيم الإداري والسياسي الذي ظهر في العهد التاريخي كان على الأرجح معمولا به قبل ظهور الكتابة. فقد وجد أن الشارات التي اعتبرت في عصر الأسرات أسماء للأقاليم المصرية، مرسومة على أواني عصر ما قبل الأسرات، وقد ظلت هذه الشارات طوال فترة التاريخ المصري القديم تدل على نفس الأقاليم التي رمزت لها رغم ما حدث في البلاد من تقلبات سياسية وتغيرات إدارية واجتماعية ودينية.

والواقع أن هذه الشارات الدالة على مختلف الأقاليم كان كل منها في الأصل شارة لعشيرة أو قبيلة سكنت وادى النيل في عصر ما قبل التاريخ، وهذه الشارات كانت إما صورة لحيوان أو شجرة أو أي شيء آخر يدل على مظهر من مظاهر الطبيعة التي لجأ الإنسان لعبادتها في بدءالأمر.

ففي بداية عصر ما قبل التاريخ كانت مصر مقسمة إلى عدة أقاليم وقد أطلق المصري القديم على الإقليم كلمة (سبات) وتعنى في الأصل قسما، ونفس رموز كتابتها بالمصرية القديمة تدل دلالة واضحة على معناها، إذ هي عبارة عن شكل مستطيل قسم بخطوط متوازية أخرى عمودية عليها. وقد وجد عدد كبير منها مرسوما أيضا على فخار عصور ما قبل الأسرات، كما وجدت إحداها على "لوحة نعرمر" الذي يعد أول ملوك الأسرة الأولى، وفى نصوص "متن" من الأسرة الثالثة، ومناظر الأقاليم التي تزين جدران معبد الوادي بدهشور للملك سنفرو من الأسرة الرابعة، كذلك مجموعات التماثيل التي عثر عليها في معبد الملك منكاورع بالجيزة، وهى عبارة عن مجموعات من التماثيل الثلاثية وكل مجموعة تمثل الملك وبجانبه إله أو إلهة وشخص ثالث

على رأسه رمز الإقليم، ولكن للأسف لم يعثر منها إلا على أربع مجموعات كاملة، ثلاث منها محفوظة بالمتحف المصري بالقاهرة والرابعة موجودة في متحف بوسطن، كما عثر على بض قطع من مجموعات أخرى. ومن عصر الأسرة الثامنة وجدت قائمة كاملة لأقاليم الوجه القبلي وعددها ٢٢ إقليما، هذا بالإضافة إلى القوائم الكاملة لأقاليم الوجهين القبلي والبحري في معبدي (سيتى الأول) و(رمسيس الثاني) بأبيدوس، وقائمة ثالثة من معبد الكرنك هذا بالإضافة إلى أسماء المدن التي وردت في النصوص المختلفة من كافة العصور المصرية القديمة.

وهناك مجموعة كبيرة من المتخصصين يعتقدون أن العدد الأصلي للأقاليم هو ٤٢ منها ٢٢ إقليما للوجه القبلي و ٢٠ للوجه البحري، استنادا إلى ما ورد فيما يسمى بـ"كتاب الموتى" والذي ظهر في الأسرة الثامنة عشرة، إذ يذكر لنا أنه يجلس في محكمة أوزيريس يوم القيامة أو يوم الحساب اثنان وأربعون قاضيا، كل منهم يمثل إقليما من الأقاليم. إلا أن القوائم التي عثر عليها حتى الآن من الدولة الحديثة لا ينطبق عليها هذا العدد وخاصة ما يتعلق بالوجه البحري فلم يتخط ١٧ إقليما حتى عصر المُلكة حتشبسوت. ولكن يمكننا الاعتقاد بأن العدد الرسمي للأقاليم كان ٤٢، ويجوز أنه كان موجودا في العصر الفرعوني في صورة دينية وإن لم يعثر عليه بصورة كاملة في القوائم المعروفة لدينا حتى الآن وترجع إلى العصور الفرعونية، وأن القوائم الكاملة وإن كانت أعدادها مبالغا فيها ترجع كلها إلى عصر الإغريق والرومان، فعلى جدران معبد ادفو من عصر بطليموس التاسع نقشت قائمة متكاملة وصل عدد الأقاليم فيها إلى تسعين إقليما. وقد ذكر لنا أسترا بون أن عدد الأقاليم كان ستة وثلاثين، وذكر بليني أنه كان ثمانية وأربعين، بينما قال بطليموس أنه وصل إلى سبعة وأربعين إقليما.

ولحسن الحظ أنه عثر على مصدر بالغ الأهمية عن نظام الأقاليم المصرية في عصر الأسرة الثانية عشرة مما مكننا من معرفة عدد أقاليم مصر في عهد الملك سنوسرت الأول ونشير هنا إلى "المقصورة البيضاء" التي شيدها سنوسرت الأول بالكرنك والتي عثر على أحجارها الناصعة البياض الجميلة النقش مع أحجار مقبرة حتشبسوت المعروفة باسم "المقصورة الحمراء" داخل الصرح الثالث الذي أقامه بنفس المعبد امنحوتب الثالث، فأعادت هيئة الآثار بناءها فكانتا مكسبا كبيرا لنا أضاف إلى معلوماتنا الكثيرة وساعدتنا على الوصول إلى نتائج هامة، فقائمة مقصورة سنوسرت الأول الجغرافية تعتبر أكمل قائمة عثر عليها حتى الآن من العصور الفرعونية وهى مقسمة إلى ست خانات الواحدة تلو الأخرى من أعلى إلى أسفل، ففي الخانة الأولى نقشت أسماء الأقاليم من الجنوب إلى الشمال مبتدئة من أسوان وهو الإقليم الأول وتنتهي

بالإقليم الثاني والعشرين من الوجه القبلي، ثم تأتى أقاليم الوجه البحري ويتصدرها إقليم منف أول أقاليم الشمال وتنتهي بالإقليم السادس عشر. أما الخانة الثانية فتحتوى اسم الإله الذي عبد في الإقليم واسم العاصمة وأحيانا يكتفي بذكر الإله. أما الخانات الأربع الأخيرة فقد ذكر فيها مساحة الأراضي المنزرعة والتي تحتويها هذه الأقاليم.

الدولة القديمة
الأسرات: ٣-٦
٢٧٠٠-٢١٩٥ ق.م.

وصلت مصر في أيام الدولة القديمة إلى ذروة قوتها المادية والفكرية. فقد امتازت هذه الفترة بالقوة والجرأة، فهي تمثل الروح المصرية الخالصة. وكان المصريون في ذلك العهد يحاولون تنظيم طريقة حياتهم. وكان يسودهم شعور بالاطمئنان، وهو شعور لازم لنضوج الحضارة، إذ لم تتعرض حدودها لأي خطر خارجي في ذلك العهد، أو تصيبها حروب داخلية. وكان من أشد العوامل أثرا في نبوغ المبدأين العلمي والمادي إذ حقق المصري لنفسه ما أراده من قوة، فاستولى عليه الشعور بالكبرياء، وشعر بأن له من القوة ما يمكنه من مكافحة الدنيا بأسرها. وطبق مبدأه المادي بنوع خاص على ما كان ينشده من حياة خالدة، فاشترى الخلد بتشييد مقبرة فخمة، وبتقديم هبات جنائزية سخية، وما حققه من نجاح في الدنيا وما ناله من عطف الإله-الملك. ولكن إلى جانب هذه الأشياء المادية كانت هناك أشياء أخرى لتدعيمها مثل الديانة والسحر والإصرار على إتباع مبادىء "الماعت". ولكن هذه الأشياء كلها لا تستطيع أن تدحض التعميم بأن القيم الحقيقية في الدولة القديمة كانت في الأغلب تتمثل في النجاح الدنيوي، وأن يكون الإنسان ثريا. ومثل هذا النظام من شأنه أن يبث شيئا من الاستقلال في نفوس الأفراد، ولكنه كان يرتكز على نظام معلوم معترف به، وهو أن الملك كان المحور المركزي الذي يدور حوله كل شيء.

وتعرف الدولة القديمة اصطلاحيا باسم "العصور المنفية" نسبة لاستقرار ملوكها العظام وحكوماتهم المركزية في مدينة منف التي عرفت في عصر بداية الأسرات باسم (انب-حج). كما عرفت أيضا باسم عصر "بناة الأهرام" إشارة إلى ضخامة وفخامة ما شيده أهلها من أهرام لا تزال شاهدة على عظمة مقدرتهم وثراء عصورهم.

الأسرة الثالثة ٢٧٠٠-٢٦٣٠ ق.م.

بدأ عصر الدولة القديمة بالأسرة الثالثة وأول ملوكها من عرفته نصوص عهده باسمه الحورى (نثر خات) أو (نثرى خت) أو (نثر-إر-خت)[14] الذي يصف صاحبه بأنه "رباني الجسد" أو "إلهي الجسد". أما اسمه المعروف به والأكثر شيوعا فهو (زوسر) وأحيانا (جسر) بمعنى "المقدس" فيرجع إلى الدولة الوسطي إذ أنه لم يعرف قبل الأسرة الثانية عشرة.

وحكم زوسر ٢٩ عاما طبقا لـ"مانيتون" و١٩ عاما طبقا لما ذكرته قوائم الملوك وهو ابن للملك (خع سخموى) آخر ملوك الأسرة السابقة وأمه هي الملكة (نى- ماعت- حب) التي لقبت في عهده بـ"أم الملك".

ويتساءل العلماء إذا صح أنه كان ولدا لملك (خع سخموى) فما هي الأسباب التي دعت إلى اعتبار عهده بداية لأسرة حاكمة جديدة؟

سجلت بردية تورين اسم (زوسر) بالمداد الأحمر، تأكيدا لتميزه وأهمية عهده. واعتبره مانيتون أول ملوك منف كلها.

ويبدو أن الأقدميين قد تأثروا بأحد الاحتمالات التالية:

١-تضمن اسم الملكة (نى- ماعت- حاب) أم زوسر اسم الإله (حاب) وهو اله قديم عبد في منف مما أدى إلى ارتباط هذا الملك بمنف واهتمامه بها وتشيع له من أتى بعده.

٢-تميز بأنه صاحب أول بناء شيد بأكمله من الحجر، كما أنه صاحب أول هرم معروف.

---

[14]وضع فركوتيه اسم الملك (نب كا) على رأس ملوك الأسرة الثالثة انظر

Vercoutter, J., *L'Egypte et la Vallée du Nil* I, 1992, p.248.

٣-أنه قد حكم بين عهد (خع سخموى) وبين عهد ولده (زوسر) بعض المغتصبين للعرش، فلما استرد زوسر العرش منهم أصبح يمثل بداية لحكم جديد.

ارتبط اسم زوسر بمظاهر حضارية هامة نذكر منها هرمه المدرج ومجموعته المعمارية بسقارة وقصة المجاعة وابتداع التقويم الشمسي.

يرتبط اسم زوسر بثلاث مقابر:

أولا: مقبرة بيت خلاف، وتقع جنوب أبيدوس، وقد شيدت من اللبن على هيئة مصطبة ضخمة (٩٥ X ٥٠ X ١٠ م) عثر فيها على اسمه مكتوبا ومعه أسماء كروم وبعض الموظفين على سدادات طينية لأواني النبيذ... وثانيا: مقبرة في سقارة تعرف باسم المقبرة الجنوبية... ثالثا: الهرم المدرج الشهير في سقارة أيضا.

ظلت مقبرة بيت خلاف تنسب لعهد قريب إلي (زوسر) إلا أنه يرجح الأن أنها تخص أحد كبار موظفيه ويدعى (عنخ أو نجم-عنخ)، ورد اسمه أكثر من مرة على بعض من محتويات المقبرة كما عثر له على تمثالين كبيرين يؤكدان أهميته وعظمة شأنه.

أما المقبرة الجنوبية في سقارة فقد شيدت من الحجر على هيئة المصطبة، واكتست بعض جدران غرفها السفلية بالقيشاني الفاخر، كما صور الملك على بعض اللوحات الداخلية، ولكن تعددت الآراء في معرفة الغرض من بنائها، بالنسبة إلى وظيفة الهرم المدرج الذي دفن فيه الملك ويقع شمالها وعلى مسافة قريبة منها، وإن كنا نعتقد أنها كانت بمثابة قبر رمزي خاص بالملك (زوسر).

وعلى كل حال فإن المقابر الثلاث وجميع المباني الملكية الخاصة بـ(زوسر) من عمل مهندسه العبقري (ايمحوتب) والذي يعتبر الشخصية الرئيسية في عهده.

و(ايمحوتب) ابن (كانفر) من السيدة (عنخ-خردو) وهو أصلا من أبناء مدينة الجبلين التي تقع جنوب الأقصر. وقد أشار إليه مانيتون وأسماه (إيموتس Imuthes) واعتبره الإغريق سكليبيوس اله الطب وهذا بسبب براعته في الطب والسحر. وخلده المصريون منذ عهد الأسرة الرابعة وألفوا الأغاني في مدحه ومنها البردية المعروفة باسم "العازف على الجنك" أي الهارب، واعتبره ابنا لبتاح وراعيا للفنانين والكتبة. وكان مركز عبادته في منف كما عبد في مناطق

متفرقة من الشمال والجنوب بل وفى النوبة أيضا، واستمرت عبادته حتى نهاية التاريخ القديم.[١٥]

وقد عثر على اسم (ايمحوتب) على قاعدة أحد تماثيل الملك (زوسر) مرفقا بلقب "مدير الأعمال" وهو اللقب الذي يوازى لقب "مهندس" اليوم. وحمل (ايمحوتب) سلسلة طويلة من الألقاب الهامة التي تدل على عظمة شأنه وهى "كبير الرائين" (أي كبير كهنة هليوبوليس)، المهندس، حامل أختام الوجه البحري، الأول لدى الملك، التالي للملك، مسجل الحوليات، كبير الكهنة المرتلين، الكاتب المشرف على القصر، والنبيل الوراثي.

أشرف (ايمحوتب) على بناء مقبرة (زوسر) وتوابعها في جبانة سقارة، وحاول في بنائها ثلاث محاولات هامة، وهى استخدام الحجر على نطاق واسع لأول مرة، والانتقال بهيئة الجزء العلوي للمقبرة من شكل المصطبة المستطيلة إلى هيئة الهرم المدرج، وتقليد خصائص العمارة النباتية واللبنية التي عرفها الأسلاف في عمارته الحجرية الجديدة.

وبدأ (ايمحوتب) بالمراحل الثلاث التي عرفت من قبل في بناء المقابر: مصطبة وإضافتين، ولكنه بناها جميعا بالحجر وليس من اللبن كما كانت تبنى قبل عهده، وتبين حينذاك أنه يستطيع أن يطور البناء بالاستعانة بالحجر الذي استخدمه على نطاق واسع لأول مرة، فاستمر يضيف إلى جوانب مصطبته الحجرية الكبيرة إضافات جديدة جانبية ماثلة تعتمد كل منها على الأخرى، وتعتمد كلها على المبنى الأصلي للمصطبة، وأتم ذلك في ثلاث مراحل، مع الارتفاع بمباني مصطبته الأصلية كل مرة، حتى تحولت المصطبة المدرجة القديمة إلى هرم مدرج ظهر في هيئته الأخيرة بست درجات بلغ ارتفاعها نحو ٦٠ مترا، وطول القاعدة المستطيلة ١٣٠ مترا وعرضها ١١٠ مترا.

ولم يقتصر المجهود المعماري في الهرم المدرج على جزئه العلوي فقط بل امتد إلى جزئه الأسفل أيضا، فشيدوا حجرة الدفن من أحجار جرانيتية ضخمة، وقطعوا في الصخر على جوانبها سراديب وغرف عديدة، كسوا بعض جدرانها بقراميد صغيرة محدبة من القيشاني الأزرق وثبتوها وقلدوا بها هيئة حصير مجدول، هذا إلى جانب تزيين بعض الجدران بلوحات. وتضمنت سراديب الهرم وحجراته آلافا من أواني الفخار، الألبستر والشست. دفن في الحجرات

---

[١٥] وأشهر المقاصير والمعابد التي شيدت لعبادته تقع في سقارة والكرنك، الدير البحري، دير المدينة وفيلة.

الجانبية أفراد من أسرة الملك عثر على بقايا توابيتهم المصنوعة من الحجر الجيري والمرمر المصري، كما وجدت معها قطع خشبية صغيرة تخلفت عن تابوت طفل صغير.

احتل الهرم المدرج[١٦] مركزا متوسطا في مجموعة معمارية كبيرة أحاطت به وشغلت معه مساحة قدرها ٢٥١ ألف متر مربع. وأحاط بها سور ضخم يبلغ ارتفاعه ١٠،٤٠ مترا، وبلغ سمكه في بعض مواضعه نحو ٦ أمتار. أما كساء هذا السور فكان من الحجر الجيري الناصع البياض وأملس، قلدوا في زخرفته العناصر اللبنية النباتية التي أخذوها من عمارة العصور السابقة، ورسموا في جوانبه ثلاث عشرة بوابة رمزية. أما المدخل الحقيقي والمستعمل حاليا فيقع في الركن الشرقي الجنوبي من السور، وهو المعروف اصطلاحا باسم البوابة الرابعة عشرة.

وتتكون المجموعة الهرمية لزوسر من إحدى عشر عنصرا دينيا ودنيويا:

١ ـ الهرم.
٢ ـ المدخل الموصل للفناء الكبير.
٣ ـ الفناء الكبير.
٤ ـ معبد الحب سد.
٥ ـ فناء معبد الحب سد.
٦ ـ مبنى تخزين الملابس والرموز المقدسة.
٧ ـ السرداب.
٨ ـ المعبد الجنائزي.
٩ ـ بيت الشمال.
١٠ ـ بيت الجنوب.
١١ ـ المقبرة الجنوبية.

ولم يقتصر نشاط (زوسر) على سقارة بل امتد اهتمامه وشمل مناطق كثيرة في مصر، وعثر على بقايا معبد له في هليوبوليس وهوربيط بالشرقية، كما أنه أرسل حملة لتأديب بدو سيناء الذين كانوا يغيرون على مناجم النحاس والفيروز عند وادي مغارة. ونسب إلى عهده

---

[١٦] انظر Lauer, J.Ph., *Les Pyramides de Sakkara*, 1991, p.7-39.

أيضا حدوث مجاعة نتيجة توقف الفيضان. وقد نقش النص الذي يروى هذا الحدث على صخرة كبيرة في جزيرة سهيل جنوبي مدينة أسوان، ويطلق عليه اصطلاحا اسم "لوحة المجاعة". ويقص علينا النص أحداث مجاعة ثلث في العام الثامن عشر من حكم زوسر بعد أن عز الفيضان مدة سبع سنين. فاستدعى الملك (مهندسه) (ايمحوتب) وطلب منه التعرف على منابع النهر والإله الذي يجمع ماءه، وبعد أن اختلى (ايمحوتب) بمخطوطاته يعود إلى مولاه ويخبره أن قرية (أبو "أسوان") هي التي تسيطر على منابع النيل، فيسارع الملك بتقديم الهبات والقرابين لآلهة (أبو) غير أنه يرى في حلم الإله (خنوم) يحدثه أنه الخالق الواهب للعافية والخيرات وأنه "نون العظيم" (المحيط الأزلي) والفيضان الذي يرتفع حيث شاء. ولما أفاق الفرعون أمر بوقف خيرات المنطقة لصالح (خنوم) وحده، وجعل لمعبده الحق في تحصيل ضريبة العشر من صيد السمك والطيور وأعمال المحاجر والتجارة المارة بالمنطقة. ولوحة المجاعة بصورتها الحالية ترجع إلى عصر البطالمة، ويحتمل أنها نقلت من عصر قديم تعرض للتلف بحكم مرور الزمن. ويرى فريق من العلماء أنها قصة مختلقة ومن تأليف كهنة (خنوم) في المنطقة وابتدعوها أصلا لاستدرار عطف الملوك البطالمة بعد أن طغت عليهم شهرة الآلهة (ايزيس) ومعبدها الكائن بالقرب منهم في جزيرة فيلة والذي نقل الآن إلى جزيرة أخرى هي جزيرة (ايجيليكا) بمنطقة أسوان.

وهناك حدث آخر هام يرجعه العلماء إلى عصر (زوسر) وهو "التقويم الشمسي" الذي ابتدعه ونفذه كهنة الشمس منذ عام ٢٧٧٣ ق.م. على وجه التقريب، واحتسبوا على أساسه السنة ٣٦٥ يوما وقسموها اثني عشر شهرا، ضمنوا كل شهر منها ثلاثين يوما ثم اعتبروا الأيام الخمس الأخيرة أيام أعياد يحتفلون فيها بمولد الآلهة أوزير (أوزيريس) وايزيس وست ونفتيس وحورس. وهي تسمى أيام النسيء Epagomenal، وكانت السنة مقسمة إلي ثلاث فصول:

- برت = الشتاء (من منتصف نوفمبر إلى منصف مارس).
- شمو = الصيف (من منتصف مارس إلى منتصف يولية).
- آخت = الفيضان (من منتصف يولية إلى منتصف نوفمبر).

وكان كل فصل مقسما إلى أربعة أشهر، والشهر كما سبق أن ذكرنا كان مقسما إلى ثلاثين يوما، ولكل يوم اسم خاص به. وقسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة: اثنتا عشر ساعة للنور واثنتا عشر ساعة للظلام.

وكانت السنة عند المصريين القدماء تبدأ بفصل الفيضان، وقد لاحظنا أن يوم وصول الفيضان كان مصحوبا أيضا بحدوث ظاهرة فلكية وهى ظهور نجم الشعري اليمانية التي أسموها (سوبدة)، في الأفق في نفس الوقت مع الشمس، فأصبح تحديد بداية العام مرتبطا بظاهرة طبيعية وغير محددة وهى بداية الفيضان وأخرى فلكية وهى ظهور نجم الشعري اليمانية في الأفق.

إلا أن هذا التقويم لم يكن بالصحة المطلوبة، وبمرور الوقت ظهر اختلاف كبير بين هذا التقويم المدني والسنة الفلكية الصحيحة. فقد احتسبوا سنتهم ٣٦٥ وليس ٣٦٥ يوما وربع يوم، وكان من شأن ربع اليوم هذا أن يصير يوما كل أربع سنوات، ويصير شهرا كل ١٢١ عاما وربع عام تقريبا، وبمعنى آخر كان من شأن بداية السنة الشمسية أو الشعرية أن تتأخر عن بداية الفيضان الفعلية شهرا بعد كل ١٢١ عاما وربع عام، ثم تعود وتتفق معها بعد ١٤٥٦ عاما. ولم تتفق بداية السنة الشمسية وبداية الفيضان غير أربع مرات منذ بدأ المصريون توقيتهم: في عام ٢٧٧٣ ق.م. وعام ١٣١٧ ق.م. وهو عام تولى سيتي الأول العرش وعام ١٣٩م وعام ١٥٩٥م؟[١٧]

وأدرك المصريون القدماء أنفسهم هذا الفارق إلا أنهم لم يحاولوا إصلاحه أن حاول بطليموس الثالث في عام ٢٣٧ ق.م. تلافى هذا الأمر، فأشار مرسوم كانوب إلى إضافة يوم على أيام النسيء الخمسة، وهو نظام السنة الكبيسة، وحتى لا تأتى أعياد الشتاء في الصيف. واستمر الوضع على هذا الحال حتى ظهور التقويم اليوليانى (نسبة إلى يوليوس قيصر) عام ٧٠٨م تلاه إصلاح آخر في القرن السادس عشر الميلادي وهو معروف بالتقويم الجريجورى نسبة إلى البابا جريجورى (أو جريجوار) الثالث عشر (١٥٧٢-١٥٨٥م).

[١٧] انظر عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٠٤-١٠٦.

خلــفاء زوســر

تولى بعد زوسر ملوك لا نعرف عددهم ولا ترتيبهم، ولكن "بردية تورين" و"قائمة سقارة" اتفقتا على أن "حوني" هو آخر ملوك هذه الأسرة وايدتها في ذلك الآثار القديمة. أما مانيتون فذكر أسماء ثمانية ملوك أتوا بعد (زوسر) بينما اختلفت القوائم الملكية والآثار في عددهم بل وفى أسمائهم.[18]

اتفق أغلب العلماء على اعتبار (حور- سخم- خت، زوسر- تيى) أبناء لزوسر وخلفاءه على العرش، وقد عثر على هرمه المدرج بزاوية العريان في عام ١٩٥٤ فارغا إلا من تابوته - الخالي من الجثمان - وبعض الأواني والحلي الذهبية. وقد أدت الحفائر التي قام بها المرحوم زكريا غنيم والتي نتج عنها الكشف عن هذا الهرم، إلى التأكد من الطريقة التي كان المصريون يشيدون بها أهراما تهم وذلك بعمل طريق صاعد يجرون عليه الأحجار اللازمة للبناء وأن الطريق كان يطول ويرتفع كلما تقدم البناء فإذا انتهى العمل أزالوه من مكانه.

وأهم آثار (سخم- خت) هو نقش مادي الغارة المجاور لنقش أبيه الملك (زوسر) وقد أمر به بمناسبة انتصاره على بدو سيناء وتأديبهم.

ونعرف من أسماء الملوك الذين أتوا بعد (سخم- خت) أسماء (خع- با)، (سانخت) و(نب- كا)، ومن آثارهم هرما (خع- با) و(نب- كا)المشيدان في منطقة زاوية العريان.أما عن أخبارهم فلا نملك تأكيدا إلا من تولوا حكم البلاد(؟)

وآخر ملوك هذه الأسرة هو (حونى) الذي حكم حوالي أربعة وعشرين عاما، وقد تكرر اسمه في قوائم الملوك، ونعرف من بردية ترجع إلى الدولة الوسطي أنه أتى إلى الحكم أنه أتى إلى الحكم بعد الملك (نب- كا)، وأن (سنفرو) مؤسس الأسرة الرابعة قد تولى العرش من بعده.

---

[18] Vercoutter., J., op.cit., p. 248

وشيد (حونى) هرم ميدوم إلا أنه مات قبل أن يتم العمل فيه فأتمه الملك (سنفرو) بعد ذلك، وربما كان ذلك أيضا هو السبب في صلة اسم (سنفرو) بذلك الهرم، والذي جعل القدماء أنفسهم في الدولة الحديثة ينسبون هذا الهرم إليه في كتاباتهم التي نقشوها على أحجاره عندما يأتون لزيارته.

ويعتبر (متن) من أهم شخصيات الأسرة الثالثة الذي امتد به العمر إلى أيام الأسرة الرابعة. وهو من كبار موظفي الدولة، وقد نقلت نقوش مقبرته بأكملها إلى متحف برلين، ومنها عرفنا الكثير عن التنظيم الإداري للبلاد في ذلك العهد، وقد عددت الوظائف التي تدرج فيها، أسماء الأقاليم المختلفة التي أشرف على إدارتها باسم الملك، ومن نقوش (متن) يتضح لنا مدى مركزية الإدارة في مصر خلال هذه الفترة.

الأسرة الرابعة ٢٦٣٠- ٢٥١٠ ق.م.

تعتبر الأسرة الرابعة من أقوى أسر الدولة القديمة وأكثرها تقدما خاصة في مجال الهندسة المعمارية، ويكفينا شاهدا أهراماتها التي ما زالت شامخة تتحدى الدهر والإنسان.

سـنفرو

ويأتي على رأس هذه الأسرة ملك هو بتاح سنفرو أي "بتاح جملني" والمعروف باسم سنفرو، وهو ملك جمع بين القوة والرحمة، فحكم وقاد بلاده وشعبه إلى حياة أفضل يظللها الأمن والسلام.

ذكرت بردية (بريس Prisse) أن سنفرو قد تولى العرش بعد وفاة حونى، وجاء في بردية تورين أنه حكم ٢٤ سنة. ، أصبح من المؤكد الآن أن الملكة (مرس- عنخ) هي أم سنفرو ويرجح أنها كانت إحدى زوجات الملك حونى الثانويات، وأن سنفرو استحق وراثة العرش عن طريق زواجه بالأميرة (حتب- حرس) ابنة حونى التي حملت لقب "ابنة الإله"، وأن زواجهما تم قبل وفاة الملك حونى آخر ملوك الأسرة الثالثة.

وتمتعت مصر بعصر الرخاء والطمأنينة في عهد سنفرو، انتعش فيه الاقتصاد بفضل تشجيعه لإقامة علاقات تجارية مع فينيقيا وحسن استخدامه لموارد بلاده.

وذكر حجر بالرمو[١٩] معلومات عن أربعين سفينة محملة بأخشاب الصنوبر الآتية من ميناء جبيل بلبنان، وهى الأخشاب التي استعملت وصنعت منها الأبواب وبعض الأجزاء الداخلية من أهرا مات الملك. والجدير بالذكر أنه مازال البعض من هذه الأخشاب ظاهرا للعين في هرمه

---

[١٩] محفوظ بمتحف بالرمو بجزيرة صقلية، وهو عبارة عن حجر من الديوريت مكتوب على الوجهين ٤٣،٥ ٢٥ سم ونقشت عليه قائمة بأسماء ملوك مصر ابتداء من عصر ما قبل =الأسرات إلى الأسرة الخامسة ومسجل عليه اسم كل ملك واهم أحداث عصره. وهناك بعض القطع المكسورة من هذا الحجر وهى محفوظة بمتحف القاهرة وأخرى في لندن وباريس.

الجنوبي بدهشور. واهتم سنفرو اهتماما خاصا بالملاحة فذكر حجر بالرمو خبر تشييد ستين سفينة لكل منها ستة عشر مجدافا.

وكان لسنفرو نشاطا عسكريا واسعا، فقد اهتم الملك بتأمين حدوده الجنوبية وهذا بإرسال حملة إلى بلاد النوبة وهى الحملة التي ورد ذكرها في حوليات بالرمو[٢٠]. ومن الأرقام التي ذكرتها الحوليات يتضح لنا مدى المقاومة التي واجهها سنفرو في النوبة.

وبالرغم من أن تلك المعلومات سجلت بطريقة مقتضبة كما اتبع مع كل الأحداث المسجلة على الحجر المذكور، فقد وردت أرقام الأسرى التي بلغت ٧ آلاف أسير بالإضافة إلى ٢٠٠ ألف رأس من الأغنام والماشية، وقد أطلق سنفرو اسم "نحسيو"، أي السودانيين، وكان المقصود بهذه التسمية كل القبائل التي تسكن جنوبي الحدود المصرية.[٢١]

أما من جهة الغرب فقد أرسل سنفرو حملة أخرى إلى ليبيا و أتى منها بـ١١ ألف أسير و ١٣ ألف رأس من الثيران والأغنام. وإلى سيناء أرسل أيضا جنوده لتأديب بدو سيناء الذين كانوا يغيرون على مناجم الفيروز والنحاس وقوافل التجار – وقد عثر على مناظر منقوشة في وادي مغارة تمثل سنفرو وهو يؤدب الأسرى. واستتب الأمن في ربوع شبه جزيرة سيناء واستحق الملك بذلك أن يمجد كأحد الآلهة الحامية للمنطقة وأن يعبد إلى جانب آلهة سيناء حاتحور وسبد.

شهد عصر سنفرو نوعا من التنظيم الإداري انتهى إلى استحداث وظيفة الوزير التي ظهر هنا لأول مرة - وليس من دليل أقوى من وجود ممثلات للأقاليم المصرية المنقوشة على جدران معبد الوادي بدهشور، وهو أقدم نقش للأقاليم المصرية يعثر عليه، وتنظيم العمل في تشييد هرمي الملك بنفس المكان، فهذا العمل الضخم استخدم فيه كم من الأحجار قدرت بحوالي ٣،٨٤٢،٠٠٠ مترا مكعبا من الحجر الجيري بينما قدرت الأحجار التي استخدمها الملك خوفو في بناء الهرم الأكبر بحوالي ٢،٥٠٠،٠٠٠ مترا مكعبا. والغرض من هذه المقارنة الدلالة على حجم العمل ومدى فاعلية التنظيم الإداري المشرف على سيره ومدى ثراء هذا العصر وقوة اقتصاد مصر خلاله.

---

[٢٠] دون اسم سنفرو وحروبه في النوبة على الوجه الثاني من حجر بالرمو.

[٢١] محمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم (القاهرة ٨٣) ص٣٥.

هرمي سنفرو:

يمكننا أن نعتبر أن هرم ميدوم مركز الوسطي بمحافظة بنى سويف، قد بنى في عصر حونى الذي مات قبل انتهاء العمل فيه، وأكمله سنفرو بعد توليه العرش.

قام سنفرو على بعد عشرة كيلومترات والى الجنوب من هرم زوسر بمقارة ببناء هرمين في دهشور، أحد هما هو الجنوبي (القبلي) ويطلق عليه الهرم المنكسر الزاوية أو المنحنى Bent Pyramid. والثاني فيقع إلى الشمال من الهرم الأول ويسمى الهرم الشمالي (البحري) ويسمى في بعض الأحيان بالهرم الأحمر وهذا الاحمرار لون أحجاره الجيرية.

الهرم الجنوبي (المنحنى):

شيد هذا الهرم من الحجر الجيري المحلى وكذلك الكساء الخاص به والذي بقى أغلبه، وقد صعب انتزاعه لأن البناء القديم قد وضعه بزاوية تميل إلى الداخل. وقاعدة الهرم مربعة الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها ١٨٨،٦٠ مترا وارتفاعه ١٠١،١٥ مترا وزاوية ميله ٣٣"٣١'٥٤° وهذا إلى ارتفاع ٤٩،٠٧ مترا ثم تغيرت الزاوية إلى ٢١'٤٣° وهذا التغير هو السبب في شكله غير المألوف. وقد علل الدكتور أحمد فخري أن اختلاف الزاوية نتج عن احتمال وقوع تصدعات في حجراته ودهاليزه. لذلك عمد المهندس المصري القديم إلى تغيير الزاوية وتصغيرها. وينفرد هذا الهرم بوجود مدخلين، أحداهما في جانبه الشمالي ويقع على ارتفاع ١١،٨٠ مترا، والثاني من الجهة الغربية. وقد عثر بداخل إحدى الحجرات الداخلية على عروق كبيرة من خشب جبيل ملتصقة بجدران الحجرة العلوية وعاشت هذه الأخشاب سليمة طوال هذه المدة.

أما عن ملحقات هذا الهرم فأولها معبد الوادي ويقع قريبا من حافة الأرض الزراعية بناحية دهشور، يربطه بالمعبد الجنائزي طريق صاعد يحده من كل جانب سور من اللبن – وعلى جدران إحدى أبهاء هذا المعبد رسوم ونقوش مختلفة بعضها يمثل ضياع الملك، رمز لها

بفتيات يحملن كل واحدة منهن اسم الضيعة أو اسم الإقليم. وقد استخدم هذا المعبد كمحجر في العصور الحديثة. وعثر في أنقاض معبد الوادي على أجزاء ثلاثة تماثيل اختلفت في أطوالها وأشكالها مثلت إحداها الملك سنفرو متوجا بتاج الصعيد، كما رسم على واجهات بعض هياكل المعبد رسوم بارزة بديعة الصنع، وقد نقشت عليها أسماء الملك محاطة بالرموز الملكية وعلى جانب منها رسم كبير يمثل سنفرو. أما عن الطريق الصاعد الذي يربط هذا المعبد بالمعبد الجنائزي، فنجده خارج المبنى نفسه في الركن الجنوبي الغربي من السور المشيد من الحجر الجيري والذي يحيط بالمعبد. ولا يستمر الطريق الصاعد مستقيما وكنه ينحني بعد مسافة سبعمائة متر ثم يستقيم بعد ذلك ليصل إلى المعبد الجنائزي الواقع في الناحية الشرقية من الهرم، وجنوبي الهرم الكبير يوجد هرم صغير وهو في الغالب هرم الروح.

الهرم الشمالي (البحري):

وهو ثاني هرمي سنفرو وأول مقبرة على الشكل الهرمي الكامل والذي سينتشر ابتداء من عصر خوفو ويستمر طوال الدولة القديمة وخلال بعض عهود الدولة الوسطى.

ويقع هذا الهرم شمالي هرم سنفرو المنحنى (الجنوبي) ويبلغ ارتفاعه ٩٩ مترا، وطول قاعدته ٢٢٠ مترا، أما زاوية الميل فهي ٤٠'٤٣° أما مدخله فيقع على ارتفاع ٢٨ مترا من الأرض على جانبه الشمالي. والجدير بالملاحظة أنه لم يعثر على أي أثر يدل على أن هذا الهرم قد استخدم كمدفن للملك، ويرجح الدكتور فخري أن الملك قد دفن في الهرم الجنوبي الذي اكتملت أبنيته الجنائزية، أما الشمالي فلم يعثر له على أية مباني جنائزية إلى الآن.

ويمتاز عصر سنفرو ببدء عهد جديد في تاريخ العمارة المصرية، وذلك لأن أول هرم صحيح وأول مجموعة هرمية كاملة ظهرت في ذلك العصر – وأصبحت آثار سنفرو هي النموذج الذي احتذاه بناة الأهرام من بعده.

عناصر المجموعة الهرمية:

١. هرم ويحيط به سور خارجي مشيد من الحجر.

٢. معبد جنائزي.

٣. معبد الوادي.

٤. هيكل أمام مدخل الهرم والناحية الشمالية.

٥. تجاويف محفورة في الصخر على هيئة السفن.

٦. هرم صغير يحيط به سوره الخاص.

٧. الطريق الصاعد.

الفـــن:

عندما نتحدث عن عصر سنفرو وأعمال هذا الملك، يجب أن نذكر الرخاء المادي الذي كانت تتمتع به مصر آنذاك والتي استطاعت بواسطته تنفيذ المشاريع الكبرى، كما انعكس على الفنون، فأبدعت مدرسة منف الفنية فنا مميزا راقيا وجدناه في آثار العائلة المالكة وأيضا في مخلفات الأفراد الذين تمتعوا بدرجة من الثراء.

ومن آثار هذه الفترة التي تميزت بدرجة عالية من الصناعة والفن الأثاث الجنائزي للملكة (حتب - حرس) زوجة سنفرو وأم الملك خوفو. وقد عثر على هذا الأثاث في حالة سيئة وملقى في غياهب بئر بلغ عمقه حوالي ٣٠ مترا ويقع على بعد مئة متر شرقي الهرم الأكبر بالجيزة. وقد كشف عنه العالم الأمريكي ريزنر في مارس ١٩٢٥. وقد تم نقله إلى المتحف المصري بالقاهرة حيث يعرض الآن بعد أن قام الأستاذ أحمد يوسف بترميمه، والجدير بالذكر هنا أن أحمد يوسف هو مرمم مركب الملك خوفو التي عثر عليها أيضا بالجيزة. ويتكون أثاث الملكة (حتب - حرس) من مظلة الملكة وصندوق ستائر هذه المظلة، والمحفة الخاصة بالملكة،

وأدوات زينة من الصوان والنحاس والذهب، وعثر أيضا على تابوتها المرمرى وصندوق الأحشاء وبه بقايا من أحشاء الملكة، هذا بالإضافة إلى سريرها الخاص ومسند الرأس. وتعتبر محفة الملكة المصنوعة من خشب الأرز وحليت بنقوش حروفها من الذهب الخالص وملصوقة على خشب الأبنوس الثمين والمزينة بصفائح من الذهب. وفى أثناء الترميم تم استبدال خشب الأرز القديم بآخر حديث. وتعتبر نقوش هذه المحفة تحفة فنية، بل أدق ما أخرجته يد فنان ذلك العصر.

ومن المرجح أن مقبرة (حتب – حرس) كانت في مكان آخر ربما دهشور، وأنها نهبت في عصر ابنها خوفو فنقلت محتوياتها أو على الأصح ما تبقى منها إلى مكان قريب من قبر خوفو، وقد تم هذا دون درايته مما يفسر العثور عليها في أعمال بئر وليس بداخل قبر يليق بزوجة سنفرو أم خوفو.

وإلى نفس هذا العصر يرجع أيضا تمثالا الأمير (رع – حتب) وزوجته (نفرت) اللذان عثر عليهما في مقبرة بميدوم، وقد نقلا إلى المتحف المصري بالقاهرة هذا مع جزء من حائط المقبرة مزين برسم ملون معروف باسم "أوز ميدوم". وهذا التمثالان من الحجر الجيري وملونان بألوان زاهية تبهر الزائرين ببريقها الذي تحتفظ به حتى الآن.

هذا هو عصر سنفرو الزاهر والذي وضعه المؤرخ المصري مانيتون على رأس أسرة جديدة، وكم كان مانيتون على حق في ذلك.

خوفو

واسمه المصري (خنوم خفوى) أي "الإله خنوم يحميني" وهو ابن للملك سنفرو من زوجته الملكة (حتب – حرس) الأولى، وقد حكم ثلاثة وعشرين عاما.

ويرى فريق من العلماء نسبة ملوك هذه الأسرة إلى إقليم الأشمونين بمصر الوسطي، وقدموا في سبيل ذلك عدة قرائن تؤكد رأيهم[٢٢] وأهمها نسبة خوفو إلى خنوم رب (حور) وهى مدينة تقع بالقرب من الأشمونين، وكذلك تسمية إحدى محلات المنيا القريبة من الأشمونين باسم (منعة خوفو) أي "مرضعة خوفو"، إلا أن الإله (خنوم) الذي انتسب إليه خوفو كان يعبد في مناطق كثيرة منها أسوان واسنا وأيضا منف[٢٣] الذي انتسب إليها أبوه سنفرو عندما سمي نفسه (بتاح - سنفرو). أما بالنسبة لتسمية إحدى محلات المنيا باسم (منعة خوفو)، فيرى الدكتور عبد العزيز صالح أنها تسمية قد تدل على مولده فيها كما أنه ليس من المستبعد أن تعنى نسبة مرضعته إليها أو تعنى أنه كافأها بها بعد أن تولى العرش فنسبها الناس إليها. ولكن هناك اعتقاد بأن هذه المنطقة هي نفسها (منعة سنفرو) أي "مرضعة سنفرو" وأن خوفو أطلق عليها اسمه بعد أم تولى حكم البلاد[٢٤] وعلى كل حال، فإن مشكلة أصل الأسرة قد وجدت الأن طريقها إلى الحل، فهي من المؤكد أسرة من أصل منفى فمؤسسها سنفرو هو ابن لحونى أخر ملوك الأسرة الثالثة المعروفة بنسبتها وارتباطها بمينة منف.

تزوج خوفو من أخته الأميرة (مريت – ات – اس) أي (حبيبة أبيها) التي عاشت حتى عصر خفرع، ورزق منها خوفو بابنه البكر الأمير (كاو – عب) وابنته الأميرة (حتب – حرس) الثانية. كما تزوج خوفو بعدة نساء أخريات وهن زوجاته الثانويات وأمهات للعديد من أبنائه المعروف لدينا منهم: خفرع، خوفو- خع - اف، مين – خع - اف، جدف - رع، حور – ددف، بلو – اف – رع والأميرة حنوت – سن.

---

[٢٢] الدكتور عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها (القاهرة ١٩٦٦) ص ٣٢٢-٣٢٥.

[٢٣] خنوم هو أساسا الإله الحامي للإقليم الأول من الوجه القبلي (أسوان) وهو أيضا الإله الفخراني الذي يشكل من الصلصال، في لحظة الولادة قرين الإنسان.

[٢٤] Montet, *La géographie de l'Egypte ancienne* II (1961), p.160.

استفاد خوفو من إمكانيات عصره وخبرات رجاله وكفاياتهم، وأتاح له الاستقرار والرخاء الإقتصادي اللذان تمتعت بهما مصر في عهده أن يتجه أكثر إلى التشييد والبناء، وساعده على تحقيق ذلك ما اكتسبه مهندسوه من خبرات العصور السابقة. وعلى الرغم من شهرة خوفو وخلفائه من بناة الأهرام إلا أن معلوماتنا عنهم ما زالت ضئيلة، لذا اقتصرت أعمال المؤرخين من القدامى والمحدثين على تقديم ودراسة أهراماتهم. وقد أظهر المؤرخون الإغريق وكذلك بعض المعاصرين هؤلاء الملوك بمظهر القسوة، وأنهم أنهكوا قوى الشعب واستغلوه أسوأ استغلال في بناء مقابرهم الضخمة، واستنزفوا اقتصاد بلادهم. ويذكر (بوزنير) أنه تقليد يرجع إلى الأدب المصري القديم ذي الاتجاه المناهض والمضاد للملكية. وقد انتشر هذا النوع من الأدب في مصر إبان الثورة الطبقية، إلا أن استمرار الطقوس الجنائزية الخاصة بهؤلاء الملوك حتى العصور المتأخرة يجعلنا ننفى هذا الإتهام عن بناة الأهرام.[٢٥]

الهرم الأكبر:

يعتبر الهرم الأكبر المشيد فوق هضبة الجيزة شمال العاصمة (انب – حج، منف) الشاهد الصريح على عظمة مصر في عهد خوفو.

ويشغل الهرم الأكبر مساحة ١٣ فدانا، ويبلغ ارتفاعه الأصلي ١٤٦ مترا تقريبا والآن ١٣٧ مترا، كما تدل عليه القائمة الحديدية فوق قمته. وقاعدته مربعة طول كل ضلع منها حوالي ٢٣٠ مترا والآن ٢٢٧ مترا نظرا لنزع أحجار الكساء الخارجي، أما زاوية الهرم فهي تبلغ ٥٠° ٥١° . وقد اختفى الآن الكساء الخارجي للهرم عدا بعض أجزاء مازالت باقية في الجهتين الشمالية والشرقية للهرم. واستخدم في بناء الهرم حوالي ٢،٣٠٠،٠٠٠ كتلة حجرية تراوح وزن الواحدة منها بين ٢،٥ طنا، إلا أن بعضها وصل وزنه إلى ١٥ طنا. ويقع المدخل الأصلي للهرم في الجهة الشمالية وعلى ارتفاع ٢٠ مترا من الأرض ولا يزال إلى الآن مغلقا، أما المدخل الحالي فيعرف باسم "مدخل المأمون" أو "ثقب المأمون" وهو أوطأ من المدخل الأصلي، ثم

---

[٢٥] رمضان عبده السيد ، تاريخ مصر القديم، الجزء الأول، ١٩٩٩، ص ٤٩٣ وما بعدها.

ينحرف قليلا إلى جهة الغرب وبعد مسافة قدرها ٣٦ مترا يتصل هذا الممر بالممر الأصلي والممرات الأخرى للهرم. وقد أطلق خوفو على هرمه هذا اسم (أخت – خوفو) أي "أفق خوفو".

واستخدم البناءون في تشييد الهرم ثلاثة أنواع من الأحجار، الحجر الجيري المقطوع من محاجر هضبة الجيزة وطرة والمعصرة، كما استخدموا داخل الهرم أحجارا من الجرانيت الوردي الآتية من محاجر أسوان، أما أحجار البازلت الأسود، ففي بناء المعبد الجنائزي الواقع شرق الهرم.

ويعتقد علماء المصريات أنه طرأت عدة تغييرات على تصميمات الهرم أثناء تشييده، وأنه في التصميم الأصلي كان أقل حجما عما صار إليه فيما بعد. ففي التصميم الأول كانت حجرة الدفن الأصلية منحوتة في الصخر أسفل البناء، يقود إليها الممر الأصلي الذي ينحدر إلى أسفل بزاوية مقدارها ٥٢٨ ، ثم حدث التغيير فيعدل التصميم وعليه تركت حجرة الدفن الأولى دون انتهاء العمل فيها. ولهذا السبب بنوا ممرا صاعدا يوصل إلى ممر آخر أفقي طوله ٣٥ مترا وارتفاعه ١،٧٥ مترا وينتهي بما سمي خطأ باسم حجرة الملكة ولكن الحقيقة أن هذه الحجرة ليست إلا حجرة الدفن الخاصة بالملك في التصميم المعدل. وهى حجرة ذات سقف جملوني مثلث مساحتها حوالي ٥،٢٠ X ٥،٧٠ مترا وأقصى ارتفاع لسقفها حوالي ١٥ مترا. وفي نقطة التقاء الممر الصاعد بالممر الأفقي توجد فوهة بئر تنزل عمودية في بعض الأحيان وبزاوية شديدة الانحدار في أحيان أخرى، إلى عمق ٦٠ مترا إلى أن يصل إلى الجزء الأسفل من الممر الهابط. والمعتقد أن هذا البئر كان بمثابة طريق لخروج العمال المكلفين بملء الطريق الصاعد بالأحجار الضخمة بعد دفن الملك.

وبعد الانتهاء من بناء حجرة الدفن الثانية غير مهندس الهرم تصميم البناء للمرة الثانية، فقد زاد ارتفاع الهرم فبنى حجرة دفن ثالثة أعلى من الحجرتين السابقتين، وعند مستوى حجرة الدفن الثانية ينتهي الممر الأفقي ليصل إلى البهو الكبير الذي يقود إلى حجرة الدفن الثالثة والأخيرة التي دفن فيها الملك.

ويبلغ طول هذا البهو الكبير ٤٧ مترا وارتفاعه ٨،٥٠ مترا، وله سقف متدرج. وفي نهاية الجزء الأعلى من البهو الكبير توجد فتحة صغيرة تؤدى إلى ما يسمى بالحجرة السفلى من الحجرات الخمس المشيدة فوق بعضها البعض لتخفيف ضغط الجزء الأعلى من بناء الهرم على حجرة الدفن الواقعة تحتها، وهى حجرات مبنية بكتل الحجر الجيري ومسقفة بالجرانيت

وارتفاعها حوالي متر واحد. وفى هذه الحجرات عثر على كتابات ذكر فيها العلم السابع عشر من حكم خوفو، مما يدل على وصول مرحلة العمل في هذا المكان إلى ذلك التاريخ، وهى الكتابات الوحيدة التي عثر عليها داخل الهرم وذكرت اسم خوفو.

وينتهي البهو الكبير عند ممر أفقي مبنى بأحجار الجرانيت وينتهي بحجرة الدفن والتي يطلق عليها اسم "غرفة الملك" وهى مبنية من الجرانيت الوردي ومساحتها ٥،٢٠ X ١٠،٨٠ أمتار وارتفاعها ٥،٨٠ مترا وسقفها مستو ومكون من تسعة أحجار ضخمة وزن كل منها ٥٠ طنا تقريبا وفى الجزء الغربي من هذه الحجرة يوجد تابوت من الجرانيت لا غطاء له وخالي من النقوش، وفى كل من الحائطين الشمالي والغربي من هذه الحجرة "ممر هواء" ما زال أحداهما يعمل إلى الآن ويساعد على وصول الهواء النقي إلى هذه الحجرة.

وهناك نظريات عدة عن طريقة بناء الهرم، فذكر هيرودوت أن العمل في البناء استغرق حوالي ٣٠ عاما، عشرة منا للطريق الصاعد وعشرون للهرم نفسه، ولكن قوائم الملوك ذكرت أن خوفو حكم ٢٣ عاما فقط. ويضيف هيرودوت أن جميع أحجار الهرم قد جيء بها من الضفة الشرقية للنيل وأنهم حملوها في سفن عبرت بها النهر. ولكن من المعروف الآن أن الهرم شيد من الحجر الجيري المحلي أي المأخوذ من الهضبة نفسها، ولم تستخدم في بنائه أحجار من محاجر الضفة الشرقية إلا تلك الأحجار الجيرية البيضاء الجيدة النوع التي بنى بها الكساء الخارجي للهرم.

وتكلم هيرودوت عن "الآلات الخشبية" التي استخدمت لتحريك الأحجار فهي رغم وجاهة الفكرة ورغم نظرة بعض العلماء المحدثين إليها نظرة جدية، إلا أنها ما زالت مستبعدة.

وكتب ديودور الصقلي أن الطريقة التي بنى بها الهرم هي طريقة الجسور أو الطرق الصاعدة، وهى أقرب النظريات إلى التصديق قد حبذها أيضا بعض المهندسين.[٢٦]

والهرم الأكبر هو أعظم قبر بناه إنسان ليدفن فيه، ورغم هذا فلم يحقق الغرض من بنائه ألا وهو حماية جثمان صاحبه ولكنه نجح في تخليد اسمه.

---

[٢٦] دكتور/ احمد فخري، الأهرامات المصرية (ترجمة د. أحمد فخري) القاهرة ١٩٦٣ ص ١٧٧-١٧٨. وانظر أيضا Siliotti, A., *Guide to pyramids of Egypt*, 1977, p.48-57.

والهرم هو جزء من مجموعة هرمية مكونة من معبد الوادي والمعبد الجنائزي والطريق الصاعد والمركب التي يطلق عليها اصطلاحا اسم مركب الشمس.

تعتبر المجموعة الهرمية للملك خوفو حلقة الوصل بين كل من مجموعة سنفرو وخفرع، لما يمثله هذا الاختلاف من تغير في المعتقدات الجنائزية، إلا أن الأدلة التي توافرت لدى العلماء لا تزال قليلة، وذلك لأن جزءا كبيرا من مجموعة خوفو الهرمية لم يتم الكشف عنه إلى الآن، وجزءا آخر خرب تخريبا كاد يقضي على كل تفاصيله. ومن المؤسف أنه لم يتم حفر أو الكشف عن معبد الوادي الخاص بهرم خوفو حتى الآن ومعروف أنه يقع تحت منازل قديمة في نزلة السمان عند نهاية الطريق الصاعد.

أما الطريق الصاعد نفسه فقد زاره منذ أكثر من مئة عام العالم الألماني (لبسيوس) فوجده يكاد يكون كاملا، ولم ينزع منه سوى الكتل الحجرية التي كانت ترصف أرضيته، كما رأى أيضا نفقا أو ممرا محفورا تحته ليسمح بمرور الناس إلى الناحية الأخرى من الطريق. وأبدى هيرودوت إعجابا عظيما بهذا الممر وذكر أن بناءه استغرق عشرة أعوام وأنه كان مزينا بالنقوش. وفي عام ١٩٣٨ كشف سليم حسن عن بعض الأحجار المنقوشة، وهي أصلا من الجزء الأعلى منه، ومازال يوجد إلى الآن جزء من هذا الطريق الصاعد في مكانه القديم، وهو يؤكد عظمة هذا العمل ومدى إتقانه.

ويقع إلى الشرق من الهرم المعبد الجنائزي، إلا أنه لم يبق منه سوى بعض أساسات الجدران، وجزء من أرضية المعبد وهي من البازلت الأسود. كما يحيط بالهرم الأكبر سور لم يبق منه إلا أجزاء من أساساته وقد بني من الحجر الجيري.

وفي عام ١٩٥٤ تم اكتشاف مركب من خشب الأرز، وقد تم العثور على هذه المركب وأخرى إلى الغرب منها عندما كانت بعثة مصلحة الآثار المصرية (هيئة الآثار) تقوم بتنظيف الجهة الجنوبية من الهرم من الأحجار والأتربة المتراكمة. ومن الجدير بالذكر أن الأثريين كانوا يعرفون منذ وقت طويل بوجود مثل هذه المراكب إلى جانب مقابر الملوك منذ عصر الأسرة الأولى. وكان معروفا أيضا أن بعض المراكب كانت مدفونة على مقربة من الهرم الأكبر بالجيزة، وأن ثلاثا من الحفرات التي كانت موضوعة فيها قد تم الكشف عنها منذ عدة سنوات، وقد عثر على خمس من هذه الحفرات على مقربة من هرم خفرع، وكانت هذه المراكب موضع

دراسة مستفيضة نشرها سليم حسن في عام ١٩٤٦.[٢٧]

وقد عثر ريزنر على قطع من خشب مذهب وبعض أجزاء من الحبال عندما كان يقوم بتنظيف حفرات المراكب الواقعة شرقي هرم خوفو بالجيزة. إذن ما قيمة اكتشاف عام ١٩٥٤ والذي أثار اهتمام العلماء؟ هو ببساطة أول مركب خشبية ترجع إلى الدولة القديمة، وأن المراكب التي عثر عليها من قبل في دهشور ترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة، اثنتان منها معروضتان في المتحف المصري بالقاهرة والثالثة معروضة في متحف التاريخ الطبيعي بشيكاجو بالولايات المتحدة الأمريكية.

وتسمى السفن التي عثر عليها بجوار الأهرام عادة باسم "مراكب الشمس" ولكنها تسمية غير دقيقة ومن الأفضل تسميتها سفنا جنائزية أو طقسية، فقد كانت بدون شك ذات صلة وثيقة بالمعتقدات الدينية الخاصة بالبعث بعد الموت. وقد عثر إلى الآن على خمس مواقع سفن للملك خوفو: اثنتان منها في الجهة الجنوبية، واثنتان في الجهة الشرقية، وخامسة إلى جانب الطريق الصاعد، علما بأن جهتين أخريين من الهرم الأكبر وهما الجهة الشمالية والجهة الغربية لم تفحصا فحصا تاما حتى الآن.

مركب خوفو الجنائزية:

عثر عليها في حفرة تقع جنوب الهرم ويبلغ طولها ٣١ مترا أما عرضها فكان ٢،٦٠ مترا تقريبا، وعمقها ٣،٥٠ مترا. وهي تتكون من ٦٥٠ جزءا، صنعت من ١٢٢٤ قطعة من خشب الأرز رتبت بدقة داخل الحفرة.

والى الغرب من هذه الحفرة عثر على أخرى مماثلة إلا أنها تركت مغلقة إلى الآن. وليس هناك من شك في أن حفرتي السفينتين إنما صنعتا من أجل خوفو وأنهما لم توضعا في مكانهما وتغلق حفرتاهما إلا بعد وفاته، وأن الذي قام بهذا العمل هو الملك (جدف رع) الذي حكم من بعده، وعثر على اسمه في الكتابات المنقوشة على كتل الأحجار التي سقفوا بها أو أغلقوا بها حفرة المركب.

---

[٢٧] Selim Hassan, *Excavations of Giza*, Volvo, Part I.

والى الشرق من الهرم الأكبر توجد ثلاثة أهرا مات صغيرة الحجم يرجح أنها كانت لأميرات أو ملكات أسرة خوفو.

خلفاء خوفو

أراد خوفو على ما يبدو أن يخلفه ولده الأكبر (كاو عب) الذي ظهر في بعض تماثيله على هيئة الكاتب مما يوحى أن هذا الأمير قد نشأ نشأة خاصة جمع فيها بين العلم والثقافة إلا أن القدر لم يمهله طويلا فتوفى أثناء حياة أبيه فكانت وفاته فاتحة لانقسام الأسرة الحاكمة إلى فروع، تربص كل فرع منها بالفرع الآخر وحاول أن يستأثر بالحكم دونه. وكانت الفروع فيما يعتقد (رايزنر) ثلاثة: فرع أبناء الزوجة الأولى وبقى منه أميران صغيران وهما (ددف – حور) و(باو – اف – رع)، وفرعا ثانويا ترأسه (جدف – رع)، وفرعا ثالثا من زوجة ثانوية ترأسه (خفرع).

واستطاع (جدف – رع) أن يفرض نفسه واستولى على العرش بعد وفاة أبيه فكان الابن الوفي الذي أشرف على شعائر الدفن وأكمل ما لم يتم في عصر خوفو، وتزوج من امرأة أخيه (كاو عب) التي كانت في نفس الوقت أختا غير شقيقة له، وكان الهدف من هذا الزواج هو استقطاب الفرع الرئيسي للأسرة، إلا أن الأمور على ما يبدو ظلت متوترة، وانتقل (جدف – رع) بمقبرته بعيدا عن الجيزة المنطقة التي دفن فيها أبوه وما تضمنته من مقابر أمراء وكبار رجال الدولة الذين لم ينضموا إليه في النزاع، واختار أن يشيد هرمه ومعبديه في أبو رواش التي تقع إلى الشمال الغربي وتبعد عن الجيزة بنحو ثمانية كيلومترات.

ولم يطل حكم (جدف – رع) أكثر من ثمان سنوات غامضة لا نملك عنها من المعلومات ما يوضح لنا وضع مصر خلالها ولا حتى ما يفسر الصراع على الحكم الذي نشب بين أبناء خوفو بعد وفاته.

وباختفاء (جدف – رع) استولى خفرع على العرش وأعاد إلى الجيزة أهميتها، وتزوج من ابنة أخيه الأكبر (كاو عب) ونجح في القضاء على الخلافات الأسرية وانتهى بذلك صراع الحكم مما يوحى بأن الصراع أساسا انحصر بينه وبين (جدف – رع).

حكم خفرع حوالي خمسة وعشرين عاما، إلا أننا للأسف لا نعرف ما تم في عهده من

مشاريع أو نشاط حربي أو تجارى غير النذر اليسير، وأهمها أنه تأكد الآن ظهور لقب (سا – رع) أي "ابن الشمس" في عهده، وأن الفن وخاصة المعمار والنحت قد خطا خطوات واسعة في عهده مما ميزه عن باقي ملوك أسرته.

ومن أهم أعماله المعمارية هي بدون شك مجموعته الهرمية التي شيدها على هضبة الجيزة مجاورة لمجموعة أبيه خوفو، وبهذا أعاد للمنطقة رونقها القديم بعد أن أهملت أثناء حكم أخيه الملك (جدف – رع).

وتتكون المجموعة الهرمية للملك خفرع من هرمه ومعبديه والطريق الواصل بينهما، نضيف إلى ذلك تمثال أبى الهول.

هرم خفرع:

يقل هرم خفرع أو هرم الجيزة الثاني عن هرم خوفو في الحجم، ولكن مهندسه شيده على جانب من الهضبة أكثر ارتفاعا من الجانب المبنى عليه هرم أبيه، سمي (ور – خفرع) أي "خفرع العظيم".

يرتفع الهرم ١٤٣،٥ مترا، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع قاعدته المربعة ٢١٥،٥٠ مترا، أما زاوية ميله فهي ١٠ ´ ٥٥٣ ، وكان للهرم مدخلان وكلاهما في واجهته الشمالية. وظل مدخله مدفونا تحت الرديم حتى نجح الإيطالى "جيوفانى بلزونى" في العثور على مدخله والوصول إلى حجرة الدفن، وكان ذلك في علم ١٨١٨. والمدخل الذي اكتشفه "بلزونى" يرتفع ١١ مترا عن سطح الأرض، أما المدخل الثاني فهو مقطوع في الصخر في مستوى سطح الأرض على بعد أمتار قليلة من قاعدة الهرم. ويفسر وجود مدخلين لهرم واحد بتغير في التصميم الأصلي للهرم، إلا أن الدكتور أحمد فخري يرى أن ذلك تفسير غير مقنع[٢٨] ، وأن وجود المدخلين في رأيه مرتبط بموضوع دفن الملك كان أحدهما الممرات التي يؤدى إليها، مبنيا

---

[٢٨] الدكتور أحمد فخري، الأهرامات المصرية (ترجمة د.أحمد فخري) – القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٠٢. وانظر أيضا: Siliotti, A., *op.cit.*, p.58-71.

بإتقان ومحصنا بمتاريس كبيرة الحجم وثقيلة، أما الثاني فأعد لخروج ودخول العمال، وقد تم إغلاقه بالكتل الحجرية بعد وفاة الملك.

وتكوين الهرم من الداخل بسيط جدا، فالمدخل الذي نفذ منه "بلزوني" لأول مرة ومكتوب عليه اسم مكتشفه وتاريخ الاكتشاف، يؤدى إلى ممر هابط ينحدر بزاوية مقدارها ٢٦°، ينتهي إلى ممر أفقي في نهايته متراس من الجرانيت. أما المدخل السفلي فإنه يؤدى أيضا إلى ممر منحدر بزاوية قدرها ٢٢°، ويعتقد أن هذا المدخل المقتطع من الصخر- في مستوى الأرض – هو المدخل الأصلي لأن ممره الهابط ينتهي عند متراس[٢٩] يليه دهليز أفقي ثم ممر منحدر يؤدى إلى حجرة تسمى عادة بحجرة الدفن وهى منحوتة في الصخر. ويستمر الممر الأفقي بعد ذلك وبعد متراس آخر يبدأ في الارتفاع ليقابل الممر الآتي من المدخل العلوي ويتحدان معا في بهو طويل أفقي منحوت في الصخر ينتهي بحجرة الدفن الأخيرة. والجزء الأسفل من حجرة الدفن مقطوع في الصخر، ولكن الجزء العلوي من جدرانها وسقفها الجمالونى المثلث مشيد بالحجر الجيري وهى في منتصف الهرم. وفى الجهة الغربية من الحجرة يوجد تابوت الملك وهو من الجرانيت ويبلغ ٢،٦٠ مترا طولا وُ ١،٠٠٥ مترا عرضا، وارتفاعه حوالي متر واحد.

وعندما عثر "بلزوني" على مدخل الهرم ونفذ إلى داخله وجده منهوبا والتابوت خاليا من مومياء الملك. وهرم خفرع من الأهرام التي لم تفقد كل كسائها الخارجي إذ ما زال جزء منه باقيا في قمته.

معبد الوادي:

يقع المعبد على حافة الصحراء وكثيرا ما يشار إليه باسم "معبد أبو الهول" لأنه مشيد جنوبي هذا التمثال مباشرة. وكانت الرمال تغطى المعبد، وقام بحفره "ماريت" وكان هذا في عام ١٨٥٣، وكنه لم يكشف إلا بعضا منه فقط. وقد عثر ماريت داخله على تمثال خفرع المنحوت من حجر الديوريت الصلب وهو محفوظ الآن بالمتحف المصري بالقاهرة. وقام العالم "هولشر" بإتمام حفر المعبد فيما بعد والكشف عن باقي أجزائه.

---

٢٩ المرجع السابق.

وجدران المعبد مشيدة من كتل من الحجر الجيري المحلى مكسوة بكتل من الجرانيت الوردي، إلا أن الكساء الخارجي للمعبد قد تم نزعه في العصور السابقة فلم يبق سوى الكساء الجرانيتي الداخلي. كما استخدم البناءون القدماء كتلا من أحجار المرمر في أرضية المعبد في بناء جدران بعض الحجرات الصغيرة الداخلية.

وكان للمعبد مدخلان في الواجهة الشرقية أحدهما في الجهة الشمالية والآخر في الجهة الجنوبية يتقدمها تمثال على شكل "أبو الهول". ويقود كلا المدخلان إلى ردهة ضيقة حيث عثر ماريت على تماثيل من الديوريت تمثل الملك وكانت ملقاة في حفرة عميقة هناك. وتؤدى هذه الردهة إلى بهو على شكل حرف تى (T)، سقفه محمول على ستة عشر عمودا مربعا من الجرانيت الوردي. وإلي جانب جدران هذا البهو يوجد ٣٢ تمثالا للملك مازلنا نرى أماكنها في الأرضية.

والبهو مفتوح للسماء في الوقت الحاضر ولكنه في الماضي كان مسقفا بكتل من الجرانيت. وفى الركن الجنوبي الغربي من البهو يوجد ممر قصير يؤدى إلى ستة مخازن ذات سقف منخفض، ثلاثة منها فوق الثلاثة الأخرى، وقد شيدت السفلي منها من الجرانيت أما العليا فمن أحجار المرمر.

وفى الركن الشمالي الغربي من البهو نفسه ممر ضيق يؤدى إلى الباب الخفي لهذا المعبد حيث يبدأ الطريق الصاعد. وفي منتصف هذا الممر وفى الجهة الشمالية منه يوجد طريق يصعد إلى سقف المعبد، وفى الجهة المقابلة أي الجهة الجنوبي من الممر توجد حجرة صغيرة أرضيتها وكساء جدرانها من أحجار المرمر.

وربما قام قدماء المصريون بعملية التحنيط وطقس "فتح الفم" في هذا المعبد.

والطريق الصاعد لهرم خفرع يكاد يكون مقطوعا بأكمله في صخر الهضبة، ومازال جزء من جدرانه باقيا إلى الآن، وينتهي الطريق عند المعبد الجنائزي.

المعبد الجنائزي:

قام "هولشر" بحفر هذا المعبد في بداية القرن الحالي، فألفه في حالة سيئة مما أصابه

من التدمير والتخريب فلم يحتفظ مثل معبد الوادي بشكله الكامل. وقد شيدت جدران هذا المعبد من الحجر الجيري المحلي وغطيت بكساء قد يكون من الجرانيت، أما أرضيته فكانت من المرمر. ويتألف المعبد في صورته القديمة من عناصر كثيرة يمكن إجمالها في قسمين كبيرين: قسم أكبر يغلب عليه – كما يلاحظ الدكتور عبد العزيز صالح – طابع العمومية، وآخر أصغر يغلب عليه طابع السرية.[٣٠]

وعلى مقربة من المعبد الجنائزي توجد خمس حفرات سفن مقطوعة في الصخر، وهناك حفرة أخرى في الصخر شمال شرقي المعبد ربما كان المقصود بها أن تكون حفرة سادسة.

وفي منتصف الواجهة الجنوبية من الهرم كان يوجد هرم صغير اختفت تماما كل أحجاره، ألا أننا ما زلنا نرى مدخله والممر الهابط إلى داخله. وكان هذا الهرم الصغير محاطا بسور خارجي ما زالت بعض أحجاره ملقية إلى الآن. وفي الناحية الغربية من هذا السور توجد ١١٠ حجرة صغيرة اعتقد بتري أنها تمثل مجمعا لمساكن العمال الذين شيدوا الهرم، وفي تقديره أنها تتسع لعدد يتراوح ما بين ٣٥٠٠ و٤٠٠٠ عامل.

أبو الهــول:

ويرجع تاريخ "أبو الهول" إلى عصر الملك خفرع. وكان حتى عام ١٩٢٦ مغطى بالرمال حتى عنقه[٣١] . وما من شك في أن هذا التمثال الضخم جزء من مجموعة خفرع الهرمية ومميزا لها عن باقي المجموعات الهرمية المشيدة فوق هضبة الجيزة أو بعيدة عنها.

ويربض[٣٢] أبو الهول في وسط مكان منخفض على الحافة الشرقية للهضبة. وهذا المنخفض هو في الحقيقة ليس إلا محجرا كبيرا من المحاجر التي استغلت أحجارها في بناء أهرا

---

[٣٠] الدكتور/ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٥٠. (؟)

[٣١] ولمزيد من التفاصيل، أنظر:

Selim Hassan, *The Great Sphinx and its secrets* (1953).

[٣٢] الدكتور أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٢٤٠-٢٢٥.

مات الجيزة ومقابر كبار الموظفين. أخذت من هذا المحجر أحسن أنواع الأحجار وبقيت هذه الكتلة الضخمة في مكانها ربما لرداءة نوعية حجرها. وكان وجود هذه الكتلة يشوه المنظر العام لمجموعة خفرع الهرمية، فكان الاختيار بين إزالة هذه الكتلة الضخمة أو تغيير شكلها. وهكذا ظهرت فكرة نحت تمثال ضخم وفخم على هيئة أسد رابض له رأس آدمي.

وأبو الهول منحوتا كله في صخر الهضبة ويبلغ ارتفاعه حوالي ٢٠ مترا وطوله ٥٧ مترا. ولم يكن يغطي جسم التمثال أي نوع من الكساء ولكن بمرور الوقت ونتيجة لعوامل الزمن تفتتت وتآكلت بعض أجزاء من الحجر، لهذا كان الملوك في العصور المختلفة يرممون الجسم واليدين بأحجار صغيرة. ويتجه أبو الهول بنظره نحو الشرق، وهو بسيط في نحته عظيم في هيئته، وعلى رأسه رداء الرأس الملكي المعروف باسم "النمس"، ووجه يمثل الملك (خفرع). أما عن اتهام (نابليون) وجنوده بتحطيم أنف التمثال فهي قصة مختلقة ولا نصيب لها من الصحة. وقد روى (المقريزى) عن رجل صوفي كان يعيش في زمانه ويسمى "صائم الدهر" أنه شوه وجه "أبو الهول" لإصلاح أمور الدين. ويضيف (المقريزى) أنه منذ ذلك الحين بدأت الرمال تغزو المزارع وتتلف المحاصيل في منطقة الجيزة، وقد نسب الأهالي حدوث هذه الكارثة إلى ما أحدثه "صائم الدهر" من تشويه لوجه التمثال.

وقد نال أبو الهول اهتمام الملوك وعنايتهم منذ الدولة الحديثة وأطلقوا عليه اسم (حور – أختى) أي "حورس في الأفق". ونعرف من "لوحة الحلم" الموجودة بين يدي التمثال أن (تحوتمس الرابع) ينسب إليه فضل اعتلائه العرش. وهناك أيضا معبد (أمنحوتب الثاني) الذي شيده الملك في الجهة الشمالية الشرقية منه، وفيه وضع لوحة يروى عليها زيارته لمنطقة الجيزة حيث قضى اليوم يتجول فيه معجبا بالأهرام و"أبو الهول" وأقسم أنه عندما يعتلي عرش البلاد سيقيم معبدا تكريما لـ"أبو الهول" وأن يضع فيه لوحة يقص فيها كيف استمتع بزيارة المكان. وتتوالى زيارة ملوك الدولة الحديثة للمكان ولمعبد (أمنحوتب الثاني)، فهناك (سيتى الأول) و(مرنبتاح) بل وأيضا (توت – عنخ – آمون) أتوا جميعا إلى الجيزة لا لزيارة "أبو الهول" فقط ولكن أيضا لممارسة الصيد، فالمنطقة كانت قديما تعج بحيوانات الصيد. وإلي جانب ذلك كان هناك أيضا الرعايا، وقد عثر على كم هائل من اللوحات الصغيرة التي تركها أصحابها تكريما منهم لـ"أبو الهول". واستمر الاهتمام بالمنطقة والتمثال الرابض على حافتها الشرقية طول العصر البطلمى والروماني أيضا، فكان الأفراد يتوافدون على المنطقة للحج والزيارة. ومن الغريب أن

(هيرودوت) لم يذكر في كتاباته "أبو الهول" ولم يشر إليه على الإطلاق.

وبعد وفاة خفرع استطاع الحزب المعارض الاستيلاء على الحكم، فحكم مصر من بعده (حور – ددف) و(بلو – اف – رع). ولا نعرف حتى الآن أسباب هذا النزاع الناشيء ولا كيف استطاع (منكاورع) استرداد عرشه.

ومع (منكاورع) تبدأ فترة جديدة في تاريخ الأسرة الرابعة، اختلفت عن الفترة السابقة حيث الإمكانيات وصغر حجم العمائر.

هرم منكاورع:

شيد منكاورع هرمه على نفس الهضبة وما زال جزء كبير من كساته الجرانيتي باقيا في مكانه. وذكر (هيرودوت) أن كساء هذا الهرم من "الحجر الأثيوبي" أي "الجرانيت" وأنه يصل إلى نصف ارتفاع الهرم. وقد حدث لهرم الجيزة الثالث ما حدث لغيره من الأهرام، إذ نزعوا منه في العصور الوسطى أكثر أحجار كساته التي كانت من الحجر الجيري، كما خرب جزء من مبنى الهرم نفسه وبخاصة في الجهة الشمالية، ومن المعروف أن أحد حكام مصر في عام ١١٩٦م حاول أن يهدم هذا الهرم ولكنه اضطر لترك ما أراده بسبب النفقات الباهظة التي تتطلبها ذلك.

ويبلغ الارتفاع الأصلي للهرم ٦٦،٥٠ مترا، وطول كل ضلع من قاعدته المربعة ١٠٨،٥٠ مترا، وزاوية ميله ٥١°. أما المدخل فيقع في الناحية الشمالية ويرتفع نحو أربعة أمتار، ويؤدى إلى ممر هابط طوله ٣١ مترا وجدرانه وسقفه من الجرانيت. وينتهي الممر الهابط بآخر أفقي يصل إلى حجرة الدفن حيث عثر (برنج وفيز) في عام ١٨٣٧ على تابوت خشبي يحمل اسم الملك (منكاورع) ومنقوش بصورة من جزء معروف من نصوص الأهرام. وعثر في التابوت الخشبي على بقايا مومياء رجل ربما كان (منكاورع) نفسه، والتابوت والمومياء موجودان الآن بالمتحف البريطاني بلندن. وقد عثر أيضا في هذا الهرم على تابوت من البازلت جدرانه مزخرفة على هيئة واجهة القصر وهى من خصائص توابيت الدولة القديمة. وقد أراد المكتشفان نقل هذا

التابوت إلى انجلترا إلا أن عاصفة شديدة أغرقت السفينة التي كانت تحمله اتجاه شواطىء أسبانيا.

ومات (منكاورع) دون أن يكمل بناء مجموعته الهرمية، فيقوم خليفته بإتمام ما لم يتم من مبان، ولهذا نجده يقوم بإتمام مجموعة أبيه الهرمية في صورة سريعة إذ أتمها باللبن ولم يكلف نفسه مشقة قطع الأحجار وصقلها.

معبد الوادي:

ويقع معبد الوادي على مقربة من الجبانة الإسلامية الحديثة لنزلة السمان، وكذلك مدينة الهرم التي تتصل بمدينة هرم الملكة (خنتكاوس) وتغطي المقابر الحديثة جزءا من كل منهما.

وقد بني هذا المعبد من اللبن ما عدا قواعد الأعمدة وبعض أجزاء من الأرضية وأعتاب الأبواب فإنها من الحجر الجيري. ويقع مدخل المعبد في الجهة الشرقية ويؤدى إلى ردهة صغيرة سقفها محمول على أربعة أعمدة. وعلى كل من جانبي هذه الردهة توجد أربعه مخازن تفتح مداخلها من دهليز يؤدى إلى دهليز آخر يمتد بطول الجانب الجنوبي للمعبد. وفي منتصف هذه الردهة يوجد باب يؤدى إلى الفناء الكبير يمتد في منتصفه طريق يتجه من الشرق إلى الغرب وهو من قطع صغيرة من الحجر الجيري. وجنوبي هذا الطريق حوض من الحجر الجيري تتصل به قناة حجرية مغطاة لتصريف المياه تسير مائلة تحت المدخل. في الناحية الغربية من هذا الفناء الكبير نجد مدخل بهو حمل سقفه على ستة أعمدة. وخلف هذا البهو يوجد الهيكل وعدة حجرات صغيرة. وتتكون كل من هذه الحجرات من ثلاثة تماثيل كل منها يمثل الملك (منكاورع) تحيط به سيدة تمثل أحد الأقاليم وإله أو إلهة من معبودات مصر، وبعضها محفوظ الآن في المتحف المصري بالقاهرة والبعض الآخر بالولايات المتحدة.

أما الطريق الصاعد فبني بكتل ضخمة من الحجر الجيري المحلى، أما أرضيته فكانت من اللبن، وكان مسقفا بأفلاك النخل وكان يصل إلى السور الخارجي للمجموعة الهرمية.

المعبد الجنائزي:

ويقودنا إلى هذا المعبد الطريق الصاعد، وهو في حالة مقبولة ولم يصبه التخريب أو الهدم كما أصاب غيره من آثار الجيزة. وقد شيدت جدرانه بكتل ضخمة من الحجر الجيري كانت مكسوة في الأصل بألواح الجرانيت.

ويبدأ المعبد بدهليز يقود إلى فناء يقع في وسطه جدران مكسوة باللبن ثم بالحجر الجيري. وفي وسط هذا الفناء نجد حوضا وقناة صغيرة لتصريف المياه، وفي ناحية من الفناء يوجد بهو محمل على ستة أعمدة من الجرانيت، وخلفه حجرة طويلة ضيقة. وفي الجهة الشمالية من البهو نجد ممرا يقود إلى خمس حجرات صغيرة، أما في الجزء الأخير من المعبد والواقع بين المعبد الجنائزي والهرم نجد هيكلا للقرابين أرضيته من الجرانيت وفيها حفرة مستطيلة كبيرة الاتساع ربما كانت مكانا للوحة أو مائدة قرابين. ومات (منكاورع) قبل أن يكمل بناء معبده وأتم خليفته (شبسسكاف) البناء ولكن على عجل وبالطوب النيء.

وإلى الجنوب من الهرم الثالث توجد ثلاثة أهرام صغيرة، من المحتمل أن يكون أحدها هو الهرم الجانبي المعتاد. ويعتقد العلماء أن الهرم الشرقي يخص زوجة الفرعون وشقيقته الملكة (خع – مرر – نبتى) التي نراها تقف إلى جانبه في مجموعة التماثيل المحفوظة في متحف مدينة بوسطن. أما الهرم الغربي فلم يثبت أنه استخدم للدفن. ومن المحتمل أن يكون هذا الهرم هو الهرم الجانبي من مجموعة (منكاورع) الهرمية. ولهذا الهرم – مثل الهرمين الآخرين – هيكل صغير من الطوب النيء في الجهة الشرقية منه.

وإن كان الكهنة قد ذكروا لهيرودوت الكثير عن ظلم (خوفو) و(خفرع) للرعية، فقد ذكروا له أيضا كيف خالف (منكاورع) أساليب جده وأبيه وأبطل الظلم وفتح المعابد فنال حب الناس واحترامهم.

حكم (منكاورع) أكثر من واحد وعشرين عاما وربما امتد حكمه لثمانية وعشرين عاما لا نعرف للأسف الكثير عن تفاصيلها مثله في مثل جده وأبيه.

وتولى الحكم بعد وفاة (منكاورع) ابنه الملك (شبسسكاف)، إلا أن فترة ولايته لم تمتد

أكثر من أربع سنوات أيضا لا نعرف عنها الكثير، ولكننا نجده يبتعد بقبره عن هضبة الجيزة ويشيده في جنوب سقارة -سقارة القبلية- ويختار له شكلا مغايرا لمقابر أسلافه فبناه على هيئة المصطبة، وهو معروف اصطلاحا باسم "مصطبة فرعون" وهو يبلغ ١٠٠ متر طولا ٧٢ متر عرضا و١٨ متر ارتفاعا.

وتعتبر قائمة أبيدوس الوحيدة التي ذكرت اسم هذا الملك بينما ضاع اسمه فيما فقدته بقية القوائم من أسماء أو اختلط اسمه فيما احتفظت به من أسماء. وترتب على هذا شك العلماء في نسبته إلى منكاورع وفي ترتيب اعتلائه العرش. ولكنه الآن أصبح من المؤكد أنه ابن منكاورع وخليفته على عرش البلاد.

لفت نظر العلماء أن اسم (شبسسكاف) لم يحتو مثل سابقيه اسم " رع "، وبناء على هذه الملاحظة ظهرت آراء مفادها حدوث خلاف بين هذا الملك وكهنة الشمس، خاصة وأنه ترك الشكل الهرمي واتخذ لقبره شكل المصطبة، كما ابتعد به إلى سقارة القبلية تاركا منطقة الجيزة حيث بنى أسلافه مقابرهم العظيمة. إلا أن هناك فريق يعتقد في رأى يخالف ما سبق بل ويناقضه تماما، فيرى الدكتور عبد الحميد زايد (مصر الخالدة، ص ٢١٨-٢١٩) أن اتخاذه لشكل المصطبة لا يعبر عن عداء الملك تجاه الشمس وكهنة هليوبوليس ، وإنما يرجع إلى عدم قدرة خزانة الدولة على تمويل مثل هذا القبر المكلف. أما عن عدم إدخاله اسم "رع" في تركيبة الاسم الذي حكم به مصر، فقد لاحظ الدكتور عبد العزيز صالح (حضارة مصر القديمة وآثارها، ص ٣٥٨) أن شبسسكاف احتفظ بلقب (سا – رع) أي "ابن الشمس" الذي كان يجعله ولدا مباشرا لرع.

وسلك (شبسسكاف) نفس سياسة (منكاورع) في كسب ود كبار الكهنة وذلك عن طريق إعفاء معابدهم من بعض التكاليف المفروض عليهم دفعها لخزائن الملك، وكان أول من نالوا هذا الإعفاء هم كهنة مجموعة (منكاورع) الهرمية.

ويأتي بعد (شبسسكاف) اسم الملكة (خنتكاوس) والتي احتار العلماء في نسبها وعلاقة القرابة التي تربطها بمن سبقها في الحكم، إلا أن الأراء ترجح الآن اعتبارها ابنة لـ (منكاورع) وزوجة لأخيه (شبسسكاف).

وشيدت (خنتكاوس) مقبرتها على هضبة الجيزة واتخذت من هيئة المصطبة شكلا لها، وقد أطلق سليم حسن على هذه المقبرة اسم هرم وسماها "الهرم الرابع" وفي رأيه أنها

حكمت البلاد فعلا. ولكن فريقا من العلماء يرفضون هذا الرأي مستندين إلى أن اسمها لم يكتب داخل الخانة الملكية وإن كانت أما لملكين يلقب كل منهما بلقب ملك مصر العليا ومصر السفلى، كما أنها لم تمثل على الآثار التي عثر عليها إلى الآن مرتدية تاج الوجهين أي تاج الملوك الحكام. ولكن مما لاشك فيه أنها كانت من السلالة الملكية ولها حق وراثة العرش، وهي أيضا حلقة الصلة بين الأسرتين الرابعة والخامسة.

الأسرة الخامسة ٢٥١٠ ـ ٢٣٥٠ ق.م.

نجح كهنة هليوبوليس (أون) في الاستيلاء على العرش إلا أن تفاصيل هذا الصراع مازالت مجهولة بالنسبة لنا ولا نعرف على وجه التحقيق كيف انتقل الحكم من الأسرة الرابعة إلى الأسرة الخامسة.

ومع الأسرة الخامسة ظهرت عائلة مالكة جديدة ومعها بدأت عبادة الشمس تشغل مكانة رئيسية. وهناك أسطورة مصرية ترجع النسخة التي وصلتنا منها إلى الأسرة الثانية عشرة، وتقص علينا نشأة الأسرة الخامسة، وهى بردية عرفت اصطلاحا باسم "بردية وستكار" نسبة إلى الآنسة وستكار التي اشترتها من مصر وهى محفوظة الآن بمتحف برلين، وصورت البردية الملك خوفو محاطا بأبنائه يرفهون عنه يسامرونه برواية قصص أو معجزات حدثت في عصره أو خلال حكم من سبقوه من ملوك وتتكون من أربعة قصص. جرت أحداث القصة الأولى في عصر الملك زوسر والثانية ترجع إلى عصر الملك نب – كا، والثالثة تعود إلى أيام الملك سنفرو، أما الرابعة وهى التي تعنينا هنا فجرت أحداثها في عصر الملك خوفو نفسه ويرويها الساحر (رد جت) زوج كاهن "رع سيد سلخبو"[٣٣] (أوسر- رع) ولدت من روح رع أبناءها الثلاثة الذين سوف يتولون السلطة فيما بعد. وينزعج خوفو من النبوءة إلا أن (جدي) يطمئنه بقوله إن ذلك لن يحدث في حكمه أو حكم ابنه أو حفيده.[٣٤]

ومن الواضح أن أصل ملوك الأسرة الخامسة من هليوبوليس (أون)، وربما ساهم كهنة الشمس في هذه المدينة في الاستيلاء على السلطة وسلموها لهؤلاء الملوك. ومنذ عصر الملك خفرع نرى الملوك يتلقبون بلقب (ابن – رع)، وأن ستة ملوك من هذه الأسرة تضمنت أسماؤهم اسم الإله رع.

---

[٣٣] مدينة لا تبعد كثيرا عن هليوبوليس، فهي تقع غالبا على ضفة النيل الغربية. أنظر الدكتور رمضان عبده السيد، معالم تاريخ مصر القديم (الإسكندرية ١٩٧٩) ص١٧٧، هامش ٣.

[٣٤] يذكر مانيتون أن ملوك الأسرة الخامسة من مدينة خنوم الفنين (أسوان).

ولا نعرف شيئا عن أصل أول ملوك الأسرة (أوسركاف) [٣٥] ، أو صلته بكهنة رع، وإن كان من المحتمل أنه كان يتولى منصبا كبيرا في معبد الشمس وأنه بمعاونة الكهنة وصل إلى العرش وتزوج (خنتكاوس) ليصبغ الشرعية على حكمه. ويرى العالم (جردسلوف) أن أوسركاف حفيد للملك (جدف – رع)، وورث الإمارة عن أمه (نفر – حوتبس) بنت (جدف – رع) ولم يرثها عن أبيه الذي يحتمل أنه كان من أنصار رع، وأنه عندما تزوج من (خنتكاوس) نقلت إليه شرعية الحكم التي ورثتها عن أبيها وأخيها، واشتركت معه في تأسيس أسرة جديدة. ويعتبر رأى (جردسلوف) صائبا إلى حد كبير.[٣٦]

ومن المحتمل أن انتقال العرش لم يكن بالسهولة التي نتخيلها، فقد حدث على الأرجح انقسام في الآراء مما دعا كهنة رع إلى ترويج قصة بردية وستكار لإقناع الناس بأن استيلاء كهنة الشمس على الحكم كان مقدرا منذ عهد بعيد وأن هؤلاء الذين تولوا الحكم هم أبناء الإله رع من صلبه.

أما عن تفاصيل حكم (أوسركاف) مؤسس الأسرة الخامسة فإننا للأسف نجهل الكثير، وقد اكتفى "حجر بالرمو" بالإشارة إلى تشييده العديد من المعابد في مختلف الأقاليم وما أوقفه من أرض على معابد الإله رع.

أما عن هرم (أوسركاف) فهو في سقارة [٣٧] وقد عثر في معبده على رأس تمثال ضخم من الجرانيت يمثل الملك، كما أنه بنى معبدا للشمس في "أبو غراب" وآخر للآلهة (حاتحور) في (بوتو).

وجاء من بعده (ساحو رع) و(نفر – اير – كا – رع) و(نى – وسر – رع) إلى منطقة أبو غراب (شمال سقارة) لبناء أهرامهم. وامتازت مجموعتا (ساحو رع) و(نى – وسر – رع) الهرمية بالفخامة الفنية فتميزتا بها على كل ما بنى من قبلهم. وقد اهتم (ساحو رع) على

---

[٣٥] جوستاف لوفيفر ترجمة د.على حافظ روايات وقصص مصرية من العصر الفرعونى (الألف كتاب أدب ٢١- القاهرة – بدون تاريخ) ص ١٣٦- ١٥٧.

[٣٦] الدكتور/عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها (القاهرة ١٩٦٢) ص٣٦١.

[٣٧] ويعرف هرم (أوسركاف) باسم "الهرم المخربش".

وجه الخصوص ببناء معابد جنائزية ودينية زينت جدرانها بالنقوش والمناظر الجميلة وهذا خلاف مقبرته التي بناها على شكل هرم صغير الحجم فقير في مواد بنائه.

ونعرف من مناظر ونقوش معبده الجنائزي بـ"أبو صير" ما يمثل بعض أحداث عصره ومن بينها رحلة الأسطول المصري إلى شواطىء سوريا العليا لإحضار أخشاب الأرز من لبنان، كما صور الفنان أيضا على نفس الجدران مناظر عودة هذا الأسطول واستقبال الملك له محاطا بمبار موظفيه، مما دعا البعض للاعتقاد بأن سفر هذا الأسطول إلى لبنان لم يكن بغرض الحرب وإنما كان بغرض تجارى وزيارة ودية عاد منها وعى متنه إحدى أميرات فينيقيا لتنضم إلى خريم الملك وتصبح إحدى زوجاته.

ونعرف من بقايا نقوش معبدي (ساحو رع) والطريق الموصل بينهما أن جيوشه صدت غزوا لبيبا استهدف الاستيلاء على الدلتا والاستقرار بها.

ولم يقتصر نشاط (ساحو رع) على غربي الدلتا وساحل فينيقيا بل أرسل جيوشه أيضا إلى الجنوب حيث عثر على اسمه منقوشا على صخور النوبة قرب توماس، ويروى لنا حجر بالرمو أنه أرسل بعثة إلى بلاد بونت عادت من رحلتها محملة بخيرات هذه البلاد من بخور وذهب وخشب الأبنوس.

ويرى الدكتور أحمد فخري (مصر الفرعونية، ص ١٣٣) أن مصر خلال الأسرة الخامسة بدأت صفحة جديدة في تاريخها فبدأت تتطلع خارج حدودها نحو الجنوب والشرق وترسل أسطولها إلى البحر المتوسط وتوقف غزوا أتى من ما وراء حدودها الغربية وتهاجم كذلك حصونا تقع جنوب فلسطين.

وتولى الحكم بعد (ساحو رع) الملك (نفر – انر – كا – رع، كاكاى) الذي لم يكن أقل طموحا من أخيه، فبنى هرما أكبر من هرم (ساحو رع)، ولكنه توفى قبل أن يتم بناء جميع أجزاء مجموعته الهرمية. وقد حكم فترة قصيرة وكان شيخا كبير السن عندما تولى العرش، وقد اتسمت شخصيته بالطيبة والتسامح. ومن للمحات الإنسانية التي اتصف بها هذا الملك ما جاء في نصوص مقبرة وزيره (واش بتاح) الذي كان يشغل في الوقت ذاته وظيفة كبير القضاة والمشرف على جميع أعمال الملك الإنشائية. وتروى لنا هذه النصوص أن الملك كان بصحبة وزيره وأبنائه يتفقدون إحدى المنشآت الملكية، وكان (واش بتاح) يقوم بالشرح لمولاه، وبينما كان الملك يتحدث

إليه سقط الوزير مغميا عليه فحاول الملك إسعافه ولكنه فشل، فاعتكف يصلى وعندما أعلنوه بوفاة الوزير حزن الملك حزنا شديدا وعاد إلى تلاوة الصلوات وطلب المغفرة لوزيره (واش بتاح) ثم أمر بأن يصنع له تابوت من خشب الأبنوس المطعم كما طلب أن يتم تحنيط الجثمان في حضوره. وقد ذكر هذه القصة الابن الأكبر لـ(واش بتاح) الذي أغدق عليه الملك من النعم الكثير ورفعه إلى أعلى المناصب، فنقشها على لوحة حجرية أقامها في القبر الذي شيده في سقارة.

وهناك قصة أخرى تروى عن رقة شعور (كاكاى) ونقشت تفاصيلها على لوحة في مقبرة (رع – ور) كشف عنها في الثلث الأول من هذا القرن جنوب الطريق الصاعد الموصل بين معبدي خفرع بالجيزة. وتروى القصة أنه حدث أثناء سير (رع – ور) إلى جوار الملك أن ضربت عصا الملك دونما قصد ساق الموظف الكبير (رع - ور) فاستاء الملك وأمر بتسجيل هذا الاعتذار على لوحة وضعت في مقبرته حيث عثرت عليها بعثة جامعة القاهرة في ١٩٢٩.

وكان (نفر – اير – كا – رع، كاكاى)خيرا محبا لتقديم الهبات للمعابد فتذكر "حجر بالرمو" أنه في العام الأول من حُكمه قدم الملك الهبات وأوقف الأوقاف لآلهة هليوبوليس وأرواحها، كما قدم مذبحا لرع وآخر للآلهة حاتحور، وأصدر مرسوما ملكيا يسجل إعفاء رجال الدين وفلاحي المعابد من القيام بأي عمل آخر تتطلبه مشروعات الإصلاح في أي إقليم من أقاليم مصر، فساعد بذلك على تقوية الكهنة وإثرائهم. ومع مرور الزمن طغت سلطة رجال الدين على سلطان الملك، وأخذت الحكومة المركزية تتفكك وهذا لصالح طبقة الإقطاع الممثل في الكهنة وكبار موظفي الدولة خاصة حكام الأقاليم، مما أثر على مجرى الأحداث وتطور الأمور وقاد البلاد إلى وضع لم تكن ترجوه على الإطلاق.

وتعتبر مقابر رجال الدين وكبار موظفي الدولة خير شاهد على ثراء هذه الطبقات، فلم تكن مقبرة (رع - ور) المكونة من خمسين حجرة الوحيدة التي نمع فيها ثراء هذه الطبقة بل هناك أمثلة كثيرة ومتعددة بين مقابر "أبو صير"، الجيزة وسقارة.

ويأتي بعد (نفر – اير – كا – رع، كاكاى) ملكان آخران وهما (شبسس – كا – رع)، (نفر – اف – رع) ولكنهما لم يتركا آثارا هامة، ولم يطل حكمهما، إذ حكم الأول سبع سنوات بينما لم يمتد حكم الثاني أكثر من أربع سنوات ثم جاء إلى العرش الملك (نى – وسر – رع) الذي شيد لنفسه هرما في "أبو غراب" أيضا، وبنى معبدا للشمس في نفس المنطقة وعلى بعد قليل من مباني (ساحو – رع)، وقد عثر على اسمه منقوشا على صخور سيناء. وتذكر بردية تورين أنه

حكم ١١ عاما، بينما تعطيه قائمة أبيدوس ٣٠ عاما.

أما عن نشاط الملك الحربي فمصدرنا عنها نقوش معبده الجنائزي التي تمثل هزيمة وخضوع الأعداء الليبيين والسوريين الذين كانوا يهددون شرق وغرب الدلتا، وعلى كل فإننا لم نتأكد إلى الآن إذا ما كان (نى – وسر – رع) قد قام فعلا بهذا النشاط الحربي أم أن فنان ذلك العصر قد نقل المناظر الموجودة على جدران معبد (ساحو – رع).

وجاء خلف (نى – وسر – رع) على عرش مصر (منكاو – حور) الذي حفظت له بعض النقوش على صخور وادى مغارة بسيناء، وقد جاء بعده الملك (جد – كا – رع، أسيسى) الذي سجلت له أيضا بعثات إلى وادى مغارة، كما وجد اسمه في محاجر الديوريت بالصحراء الغربية وبلاد النوبة السفلى قرب أبى سنبل. كذلك أرسل هذا الملك بعثة إلى بلاد بونت أحضرت من هناك قزما، وكان الأقزام مثار دهشة وإعجاب من المصريين، وكانوا يدربون على الرقص في الحفلات الدينية. وفى عهد هذا الملك عاش الحكيم (بتاح – حتب).

وآخر ملوك هذه الأسرة هو (أونِاس) أو "ونيس" في قول آخر، وقد بنى هرمه في سقارة، وزين جدران غرفة الدفن والتي تسبقها بأدعية تظهر لأول مرة وهى المعروفة اصطلاحا باسم "نصوص الأهرام". وهى نصوص ترجع في الواقع إلى أصل قديم وتحتوى على فقرات سحرية وتهديدات، ومعرفتها تساعد الملك على التغلب على أعدائه وتثبت حقوقه، وهناك أيضا فقرات خاصة بخلود الملك وارتباطه بإله الشمس.

ونلاحظ أن اسم (أوناس) لا يحتوى على اسم الإله "رع" فهو في ذلك مثل أول ملوك هذه الأسرة، إلا أنه احتفظ أيضا بلقب (ابن الشمس). وحكم (أوناس) حوالي ثلاثين عاما وعثر على اسمه مكتوبا على آنية وجدت في (ببلوس) بفينيقيا، كما عثر على اسمه منقوشا على جزيرة الفنتين. عرفت الأسرة الخامسة ببعض التجديدات، فظهرت في هذه الأسرة معابد الشمس التي شيدت لسبب ما بعيدا عن هليوبوليس مكانها الأصلي. وعلى جدران هرم آخر ملوكها (أوناس) نقشت لأول مرة التعاويذ المعروفة باسم "نصوص الأهرام". وفى عهد الملك (جد – كا – رع، أسيسى) أنشئت لأول مرة وظيفة حاكم الوجه القبلي وذلك بغرض إحكام الرقابة على الأقاليم الجنوبية مما يدل على أن بوادر الضعف قد أخذت تتسرب إلى الإدارة المركزية وتصيبها بالوهن.

علاوة على هذا ففي عهد الأسرة الخامسة بدأتِ العائلات الإقليمية في الظهور، وأخذت أهميتها تزداد ونفوذها يقوى، وبدأ أفرادها يشيدون مقابرهم في أقاليمهم بعد أن كانت تشيد حول هرم الملك في العاصمة، مما أفسح الطريق إلى ظهور الجبانات الإقليمية التي كانت مقابرها تحاكي معابد ومقابر الملوك في جمال نقوشها وصورها التي تنوعت مواضيعها وأخذت تشير إلى ما كان أصحابها يملكونه من ضياع وأغنام ومراكب للصيد والنزهة ورمزت إلى ما كانوا ينعمون به من حياة مترفة، كما أخذ عدد حجراتها في الازدياد وزينت بالتماثيل ونقشت جدران حجرة الدفن بالقوائم القرابين.

وفى عهد الأسرة الخامسة أيضا أصبحت الوظائف وراثية، وانتشرت عبادة "أوزيريس" إذ كان المستقبل السعيد في الآخرة يتوقف على مدى ثراء الفرد فيدفن في قبر فخم قريب من هرم الملك فيصاحبه في الآخرة، وكن ما هو مصير عامة الشعب الذين لا تربطهم بالقصر أية صلة. لذا وجدت عقيدة أوزيريس صدى في نفوس الناس فأقبلوا عليها وذلك لأن أوزيريس العادل الرحيم وهو ملك الأموات يحكم بالعدل ولا يدخل جنته إلا المتطهرون حسنى النية والسريرة ولا يفرق بين غني وفقير، فكانت الجنة للأتقياء الذين لم يظلموا ولم يقترفوا إثما، والجحيم والفناء لمن سولت له نفسه عمل السوء فلا تشفع له أمواله أو صلوات كاهن أو قرابين.

وقبل أن نترك الأسرة الخامسة يحسن بنا أن نشير إلى معابد الشمس التي اعتنى ملوك هذه الأسرة بتشييدها ولكن بعيدا عن مكانها أو بالأحري موقعها الأصلي وهو هليوبوليس مدينة الشمس أي (أون) ، واتجهوا إلى مكان يقع على مسافة ٢،٥ كم شمال أبى صير في منطقة أبى غراب.

معبد الشمس:

شيد أغلب ملوك الأسرة الخامسة المعابد للإله رع، وتعرف أسماؤها جميعا من ألقاب كثير من الكهنة. وأهم هذه المعابد هو معبد (نى – وسر –رع) المعروف باسم "بهجة رع" في منطقة أبى غراب بمناسبة احتفاله بعيد "الحب سد" أو "عيد الوبيل الثلاثين"، وهو معبد من طراز خاص يتفق وعبادة الشمس، التي كانت تؤدى في وضح النهار، إذ كان ينبغي أن تغمر الشمس بضوئها المكان الذي تعبد فيه. وكان المعبد مبنيا على حافة الوادي، وكان بمثابة مدخل

يؤدى إلى طريق صاعد يوصل إلى المعبد. وكان مبنى الوادي ينحرف كثيرا عن محور المعبد ويقوم على قاعدة مرتفعة تحميه من مياه الفيضان وتتقدم كلا من واجهته وجانبيه صفة يعتمد سقفها على أساطين من الجرانيت ويتوسطه دهليزان متعامدان تكتنفنهما قاعتان صغيرتان ودرج يؤدى إلى السطح. وكان الطريق الصاعد يزيد على مئة متر طولا، وكان مسقفا ويدخل إليه الضوء من فتحات في السقف على أبعاد منتظمة، ويظن أنه كانت تزين جدرانه رسامات ومناظر مختلفة.

وكان المعبد مشيدا على ربوة ترتفع عن الوادي بنحو ستة عشر مترا، ويقع المدخل على محور المعبد ، وهو مبنى يطوه الكورنيش المصري ويضم ردهة طويلة كانت تحلى جدرانها نقوش فوق سافلة من الجرانيت ثم ردهة مستعرضة تفضي إلى فناء المعبد.

وكان المعبد يشغل مساحة طولها ١١٠ مترا، وتعلوها مسلة كبيرة ذهب الظن إلى أنها تمثل شعاعا من أشعة الشمس، على أنه يرجح أن لها صلة بالحجر المقدس (بنبن = benben)، وهو حجر مخروطي الشكل ومدبب، وكان يقوم في قدس الأقداس في معبد الشمس بهليوبوليس، ويرمز إلى الجزيرة التي ظهرت أو برزت من المحيط الأزلي، والتي استقر عليها إله الشمس في شكل طائر البلشون (مالك الحزين) كأول إله في بدء الخليقة، وبذلك كان من رموز الشمس باعتباره المكان الذي تجلى عليه إله الشمس، بل كان يرمز إلى الإله رع نفسه.

وكانت المسلة ترتفع في الفضاء نحو ٣٦ مترا، منحوتة من الحجر الجيري ويكسوها حجر جيري جيد ومصقول. وكانت قمتها على ما يبدو مغطاة بصفائح من الذهب. وكان أمام قاعدتها مائدة قربان ضخمة، وعلى يمين الفناء مذبح، هذا علاوة على مذبح آخر صغير. وإلي يسار قاعدة المسلة مقصورة صغيرة بمدخل من الجرانيت، زينت جدرانها مناظر تمثل شعائر تأسيس المعبد والاحتفال باليوبيل الملكي. وعلى كل جانب من المدخل يوجد حوض كبير، ويظن أن كان من المناسك أن يغسل الملك فيهما قدميه.

وبطول كل من الجدارين الشرقي والجنوبي يوجد دهليز طويل، وكان الدهليز الشرقي يؤدى إلى مجموعة من المخازن تقع شمال المذبح الكبير، بينما ينتهي الدهليز الجنوبي إلى قاعدة المسلة وتحلى جدرانه نقوش جميلة ملونة وتمثل النقوش القريبة من قاعدة المسلة آلهة الأقاليم المصرية وآلهة الفصول وتصاحبها صور متتابعة تصور أنواع الحبوب والأشجار والنباتات وكذلك الطيور والأسماك والحيوانات وهى تتزاوج وتلد، وأيضا الرجال يبذرون الحب ويقتنصون

الحيوان. وكان كل ذلك يصور المخلوقات تشيد بنعم إله الشمس، منشيء الحياة وواهب النعم والخيرات.

وقد حفرت خارج المعبد حفرة كبيرة في الصخر بنيت فيها باللبن مركب طولها ٣٠ متراً، ربما كانت ترمز إلى مركب المساء التي تصوّر المصريون أن الإله رع يتم كل ليلة رحلته إلى العالم الآخر من الغروب إلى الشروق.

١

الأسرة السادسة ٢٣٥٠-٢١٩٥م

تبدأ هذه الأسرة بداية غامضة، فمعلوماتنا عن مؤسسها لا تعدو بضع عبارات ذكرها مانيتون والقليل النادر من الآثار، هذا بالإضافة إلى هرمه الكائن بسقارة. كذلك فإننا نجهل الأسباب التي دعت إلى تغير الأسرة وعلاقة (تيتي) مؤسس الأسرة السادسة بآخر ملوك الأسرة السابقة. وترجح شواهد الأمور انتقال العرش دون أي نوع من الاضطراب، ويبدو أن إحدى زوجات (تيتي) وهي (إيوت) كانت ابنة الملك (أوناس) الذي يبدو أنه لم يترك وريثا من الذكور. ولعل هذا من الأسباب الهامة التي دعت إلى اعتبار عصر (تيتي) بداية لأسرة جديدة.

ذكر مانيتون أن أصل هذه الأسرة الجديدة من منف وأن أول ملوكها قد حكم ٣٠ عاما وأنه قتل بيد حراسه. وهناك اتجاه سائد بين العلماء يرجح أن (تيتي) اتجه اتجاها صريحا نحو إعلاء شأن بتاح إله منف وتقريب كهنته والانصراف عن كهنة الشمس، لذا اختار (تيتي) سقارة مكانا لبناء هرمه.

وللأسف مازالت بداية الأسرة غامضة بالنسبة لنا، فنحن لا نملك أدلة تؤيد حدوث ردة أو حركة من شأنها الحد من نفوذ كهنة الشمس أو أن القائمين بها كانوا من أهل منف وأصحاب مذهب بتاح الذي أخذ نجمهم يعلو ففرضوا أحدهم ملكا على البلاد بعد أن اكتسب شرعية الحكم بزواجه من سليلة البيت الملكي السابق. وبينما اعتبر مانيتون أن فترة حكم الملك (تيتي) قد امتدت ٣٠ عاما، يرجح أغلب العلماء أنها لم تستمر أكثر من ١٢ عاما.

وشيد (تيتي) كما سبق أن ذكرنا هرمه في الشمال الشرقي من هرم (أوسر- كاف) في سقارة، وقد عثر بداخله على بقايا مومياته، كما عثر على اسمه منقوشا على آنية وجدت في بيبلوس، كما كان له نشاط في النوبة حيث عثر على اسمه منقوشا على صخورها. وأتى من بعده في الحكم مغتصب للعرش هو (وسر – كا – رع) الذي حكم عددا قليلا من السنين لا تقل عن أربعة أعوام ولا تزيد عن ستة أعوام.

وتولى العرش بعد اختفاء (وسر – كا – رع) الملك (بيبي الأول) الذي حكم مصر ٢٥ عاما، نجح خلالها في انتشال مصر مما كانت فيه فانتعشت البلاد وتمتعت بحكم زاه وعصر عم فيه الرخاء والاستقرار.

ولا نعرف الصلة التي ربطت بين هذا الملك وبين (تيتى) مؤسس الأسرة، ولكننا نعرف أن حياته الأسرية لم تخل من الاضطراب الذي وصل إلى حد التآمر، إذ يذكر لنا (أونى) وهو من أشهر شخصيات هذه الأسرة والذي ولد في عصر (تيتى) أن الملك (بيبى الأول) عينه ليكون ضمن المحققين مع زوجته لثقته فيه، ولكنه لم يوضح ما هي المؤامرة أو التهمة التي حوكمت الملكة من أجلها.

وعلى أية حال فبعد انتهاء المحاكمة نرى (بيبى الأول) يوطد علاقاته بحكام الأقاليم فيلجأ إلى سياسة المصاهرة ويختار إحدى عائلات الصعيد القوية صاحبة النفوذ فتزوج على التوالي من ابنتي حاكم أبيدوس ونجع حمادى، فأصبحت الأولى أما لابنه الملك (مرى – ان – رع) ومن الثانية رزق بابن أخر (بيبى الثاني) الذي تولى العرش طفلا.

وارتقت الفنون في عصر (بيبى الأول) والدليل على هذا هو ما عثر عليه من آثار ملكية وأخرى تخص الأفراد. ويكفى أن نشير هنا إلى تمثال بيبى الأول الضخم المصنوع من النحاس المحفوظ حاليا بالمتحف المصري بالقاهرة أو إلى تماثيله الأخرى المتناثرة في متاحف أوروبا، هذا إلى جانب نقوش معبده الجنائزي ونقوش مصاطب الأفراد في عصره – كل هذه النماذج كافية لندرك عظمة التقدم المعماري التي وصل إليها الفنان "المنفى" ابن مدرسة منف مبتدعة في البناء بالأحجار.

خلفاء بيبى الأول

جاء بعد وفاته ابنه البكر (مر نرع أو مرى – ان – رع) الذي تولى العرش طفلا وحكم عشر سنوات. وتكاد أعماله تنحصر في حفر خمس قنوات في صخور الجندل الأول عند أسوان وهذا لتسهيل المواصلات بين مصر وما يقع في جنوبها من بلاد إذ أصبحت سياسة الأسرة السادسة هي الاتصال ببلاد النوبة وإرسال الحملات والبعثات لاستكشافها وإحضار خيراتها. ومن المعروف لنا أن اهتمام المصريين بالجنوب ازداد منذ أواخر الأسرة الخامسة، فأخذوا في تنظيم علاقاتهم بجيرانهم فيما وراء الجندل الأول، فظهر منصب جديد هلم هو منصب "حاكم الجنوب" وكانت مهمته سياسية واقتصادية، فهو المسئول عن حراسة الباب الجنوبي لمصر والقضاء على الاضطرابات ومراقبة حكام الأقاليم. كما كان يقوم بتنظيم التبادل التجاري بين حاصلات النوبة

وحاصلات مصر. وتمدنا الأسرة السادسة بأسماء العديد من هؤلاء الموظفين الكبار الذين نجحوا في تنفيذ سياسة الأسرة واستكشاف النوبة وربطها بمصر وكذلك القضاء على كل ما كان يعترض أو يثور من القبائل المحلية ضد الرغبة المصرية.

وبعد وفاة (مرن رع أو مرى – ان – رع) يليه أخوه الأصغر (بيبى الثاني) الذي تولى عرش البلاد طفلا ومات شيخا قد تعدى سن التسعين. فقد ذكر مانيتون أنه حكم أربعة وتسعين عاما وأنه جلس على العرش وعمره ٦ سنوات وحكم تحت وصاية أمه وخاله (زاو) الذي كان صاحب النفوذ في البلاد.

شجع (بيبى الثاني) سياسة من سبقه من ملوك الأسرة تجاه الجنوب، فاستمر في إرسال البعثات إلى النوبة تحت إمرة حكام إلفنتين، هدفها كما ذكرنا استكشاف هذه المناطق ومراقبة تحركات المتمردين وضربها.

وكان لطول حكم الملك (بيبى الثاني) أثره في ضعف الأسرة، فنجد أنه في النهاية وبسبب كبر سنه كان غير قادر على السيطرة على حكام الأقاليم الذين ازدادوا قوة واستقلالا، فلم يعودوا يدينون بالولاء للملك، ولم يدفعوا الضرائب للخزانة الملكية. وظهرت المجاعة والمرض ونقصت الرقابة وانتشرت العصابات وانعدم الأمن فهاجر الناس وتركوا مدنهم. ومن ناحية أخرى اضطربت العلاقات الخارجية ولم يعد يصل خشب الأرز من لبنان ولا الزيوت ومنتجات الواحات. وأصبحت البلاد عرضة للغزو الخارجي وسادت الفوضى وأهملت القوانين ونهبت المقابر الملكية وتوقفت الطقوس الدينية، وانهار الصرح الاجتماعي وطرد الموظفون من وظائفهم. وساد البلاد حالة من الفوضى الشاملة التي قلبت كل الموازين.

وقد صور لنا الحكيم (ايبو- ور) أو (ايبو العجوز) هذه الحالة بصورة أتاحت لنا معرفة إلى أي مدى فلست مصر وتمزقت.

وتولى الحكم بعد (بيبى الثاني) ملك وملكة: والأول يدعى (مرى – ان – رع الثاني) وحكم مدة عام واحد، والثانية هي الملكة (نيت اقرت أو نيتوكريس) التي حكمت فترة تقرب من عامين عم بعدها الضعف وسادت الفوضى البلاد وانتهت أيام الأسرة السادسة، وبانتهائها انتهت أيام الدولة القديمة.

أهم كبار موظفي الدولة في الأسرة السادسة

ولكي يتضح لنا تطور الأمور في الأسرة السادسة يجب أن نتحدث ولو قليلا عن أهم رجال هذه الفترة، وأول رجال هذه الفترة هو:

أوني (وني)

ونشاط (أوني) معروف لدينا من خلال لوحة كانت موجودة في قبره بأبيدوس وهي موجودة الآن بالمتحف المصري بالقاهرة (لوحة رقم ١٤٣٥) – ويذكرنا نص هذه اللوحة أن (أوني) عاصر كلا من (تيتي الأول) و(بيبي الأول) و(مر نرع أو مري – ان رع الأول).

وبدأ (أوني) موظفا صغيرا في عهد الملك (تيتي)، ثم ذكر الوظائف التي تقلدها في شبابه إلا أننا نجد أنه يسقط فترة حكم وملك (وسر – كا – رع) ودون إبداء الأسباب. ثم ينتقل إلى عهد (بيبي الأول) الذي عاصره طوال فترة حكمه. وقد زاد شأن (أوني) في عهد (بيبي الأول) الذي نال ثقته وكلفه بالتحقيق مع زوجته إلا أن (أوني) لم يذكر لنا أسباب هذه المحاكمة والجرم الذي ارتكبته هذه الملكة.

ونفهم من نص (أوني) أن علاقات مصر بآسيا لم تكن على ما يرام، فقد هاجم الأسيويون حدود مصر ونهبوا شرق الدلتا. وأرسله (بيبي الأول) خمس مرات على رأس جيش كبير مكون من آلاف الرجال جمعهم من الأقاليم الجنوبية، من إلفنتين في الجنوب حتى أطفيح في الشمال، وكذلك من قبائل النوبة مثل ارثت، ايام، واوات والمجا.

قاد (أوني) جيشه الكبير ليصد "بدو الصحراء" خمس مرات، أربع منهم عن طريق البر والخامسة عن طريق البحر، وتتبعهم على الأرجح حتى جبل الكرمل بفلسطين وانتصر عليهم – ويفخر (أوني) في نصه أن جنوده التزموا المسلك الطيب وأنهم لم ينهبوا أو يسرقوا سكان القرى التي عبروها، وأن جيشه عاد سالما بعد أن دمر وشتت بدو الصحراء وحصونهم وقتل وأسر العديد من الأعداء.

وفي عهد (مرن رع أو مري – ان رع الأول) أصبح حاكما للجنوب وأمر بالإشراف

على شق خمس قنوات في صخور الجندل الأول ليسهل الاتصال والمواصلات بين جنوب مصر وما يقع خلف حدودها من بلاد النوبة.

وثاني أهم شخصية في الأسرة السادسة هي حاكم الجنوب.

حر خوف:

عاصر (حر خوف) كلا من (مر نرع أو مرى – ان رع الأول)، و(بيبى الثاني) ونقش سيرته على جدران قبره بأسوان روى فيها أهم أعماله وما حققه خلال عمله كحاكم للجنوب والرحلات الاستكشافية التي قام بها في بلاد النوبة تمت ثلاث منها في عهد الملك (مر نرع الأول)، والرابعة في عهد (بيبى الثاني).

قام (حر خوف) بحملته الأولى في صحبة والده (إرى) واستمرت الرحلة سبع شهور ووصلا فيها إلى منطقة (ايام) عند الجندل الثاني، وكان الهدف منها فتح طريق إلى تلك المناطق الصحراوية. أما الرحلة الثانية فقد قام بها (حر خوف) وحده، ووصل فيها إلى ما بعد الجندل الثاني. ويفتخر (حر خوف) بأن أحدا من الرجال الذين سافروا قبله لم يصل إلى تلك المناطق أو عاد من رحلته محملا بمثل ما عاد به من هدايا.

وفي رحلته الثالثة اتخذ طريقا آخر، إذ سافر عن طريق "درب الأربعين" وهو الطريق الموصل من أسيوط إلى الخارجة ومنها إلى غرب السودان، وفي رحلته وجد (حر خوف) أن حربا نشبت بين قبيلة (ايام والتمحو) الذين كانوا يعيشون في الصحراء الغربية وغرب الدلتا، فأصلح بينهما وعاد من تلك الرحلة ومعه العديد من الهدايا وهي ثلاثمائة حمار محملة بالبخور والأبنوس والعطور والدهون وجلود الفهد وأنياب الفيلة وبذر السمسم وغير ذلك من منتجات أفريقيا.

أما عن رحلته الرابعة وكانت أيضا إلى بلاد النوبة فلا نعرف إلى أي مدى تعمق (حر خوف) في رحلته والى أي مدى وصل، ولكننا نعرف أنه أتى منها بقزم أهداه إلى (بيبى الثاني) وكان مازال طفلا. وأرسل (حر خوف) ينبيء الملك بحصوله على القزم فرد عليه الملك بإرساله فورا، وحدث هذا في العام الثاني من حكم (بيبى الثاني) أي أن الملك لم يكن يبلغ في ذلك الوقت

أكثر من ثماني سنوات.

وثالث هذه الشخصيات العظيمة هو

(بيبى – نخت):

تلا (بيبى – نخت) (حر خوف) في وظيفته كحاكم للجنوب ومقره أسوان، لم تكن رحلاته إلى النوبة تجارية أو استكشافية بل كانت تأديبية. ويذكر (بيبى – نخت) أن الملك كلفه بتأديب بلاد (ارثت) وأنه قتل العديد منهم بينهم أبناء الزعماء وقواد المحاربين، كما أحضر العديد منهم أسرى – وفى رحلة أخرى يذكر أنه ذهب إلى بلاد النوبة لتهدئة الحالة فيها وأنه عاد ومعه زعيم الثوار. أما ثالث مهمة كلفه بها الملك فكانت الثأر لضابط كلف ببناء سفينة على ساحل البحر الأحمر والإبحار بها إلى بلاد بونت ولكن بدو الصحراء قتلوه فذهب (بيبى – نخت) للثأر له وإحضار جثمانه.

وآخر هذه الشخصيات العظيمة وأول الرحالة إلى أفريقيا كان (سابنى بن ميخو). وكان أبوه حاكما للإلفنتين، أرسله الملك في مهمة ولكنه قتل، فيعين الملك الابن (سابنى) حاكما للالفنتين ويسند إليه فيما بعد وظيفة حاكم الجنوب. ويذهب سابنى لإحضار جثمان أبيه والانتقام ممن قتله. وإمعانا في إظهار عطفه أرسل الملك المحنطين الملكيين من منف ومعهم كل ما يلزمهم في عملهم لتحنيط جثمان أبيه (ميخو) ودفنه بطريقة تليق بحاكم بذل حياته في سبيل الملك.

الثـــورة

نمت البيروقراطية خلال الأسرة الخامسة كما سبق أن أوضحنا، وازداد نموها خلال الأسرة السادسة، وساعد على ذلك ضعف السلطة المركزية. وساءت حالة البلاد بعد أن استقل حكام الأقاليم بأقاليمهم ورفضوا دفع الضرائب للملك. وقد حاول الملوك السيطرة على الأمور وذلك عن طريق التوسع في تربية أبناء حكام الأقاليم في قصورهم وإعادة منصب حاكم الجنوب. وبالرغم من هذه الاحتياطيات إلا أن الأمور زادت سوءا فوصلت حالة مصر إلى الحضيض.

ومصادرنا عن هذه الثورة تنحصر فيما جاء في برديتين الأولى هي بردية (ايبو ور) والثانية هي (نبوءة نفرتي). وقد كتبت أولاهما على لسان حكيم مصري استطاع أن يصل إلى مقر ملك (لم يذكر اسمه) ويطلب منه العمل على إنقاذ البلاد. أما الثانية فكتبت في فترة لاحقة للثورة، وكان الغرض منها الدعاية السياسية للملك (أمنمحات الأول) مؤسس الأسرة الثانية عشرة، وينسب الكاتب أصل حوادثها إلى عصر الملك (سنفرو) الذي يطلب من الكاهن المرتل في معبد الإلهة (باستت) ويدعى (نفرتي) أن يحدثه عن أحداث المستقبل، فيقص عليه (نفرتي) ما ستتعرض له البلاد من فوضى ودمار حتى يأتي (أميني) – (أمنمحات الأول) وينقذها ويوحد صفوفها.

وتتلخص أهم محتويات البردية في وصف حالة البلاد وما آلت إليه الأمور، وسنورد هنا بعضا من فقرات هذا النص الهام:

يبدأ (ايبو ور) كلامه أمام الملك بإلقاء نظرة ثاقبة على نظم حياة أهالي وادي النيل في ذلك الوقت، فيجد أن كل شيء قد آل إلى الفوضى. فالحكومة قد وقفت حركتها تقريبا، " وقوانين قاعة العدل قد ألقى بها ظهرا فصارت تدوسها الأقدام والفقراء يفضونها على قارعة الطريق ". ويرجع السبب في سوء النظام هذا إلى حالة الهياج والحروب الدائرة في داخل البلاد: " فالرجل يضرب أخاه من أمه. انظر فإن الرجل يذبح وهو بجانب أخيه في حين يتركه أخوه لينجو هو بنفسه. والرجل ينظر لابنه نظرته إلى عدوه. ويذهب الفلاح إلى حقله مسلحا بدرعه ".

ويضاف إلى سوء النظام والثورة الداخلية أهوال الغارات الأجنبية على البلاد، فإن

أملاك مصر بعد أن صارت فريسة لسوء النظام والفتنة الضاربة أطنابها بالبلاد قد صار رجالها غير قادرين على صد غزوات الأسيويين عن حدود الدلتا الشرقية. وحاق الهلاك بالأملاك المصرية ووقف سيل الحركة الاقتصادية: " انظر فإن أصحاب الحرف لا يقومون بأي عمل قط وأعداء البلاد يفقرونها في حرفها. انظر إن الذي يحصد المحصول لا يعرف عنه شيئا ومن لم يحرث الأرض يملأ أهرائه. انظر إن الماشية قد تركت ضالة ولا يوجد من يجمعها ويلم شتاتها، فكل إنسان يأخذ لنفسه منها. والحروب الداخلية لأتأتي بربية وبيت المال فارغ ".

" والتجارة الخارجية تنحط وتختفي في مثل تلك الأحوال فأصبح القوم لا يقلعون بسفنهم شمالا إلى جبيل ".

والوقوع في مثل تلك الأحوال كان بعيد الاحتمال لأن الأمن والتجارة قد اختفى أثراهما. " وبالرغم من أن الطرق كانت محروسة فإن الناس كانوا يترصدون في الأدغال حتى يمر الرجل الذي دهمه الليل ويسلبوه ما يحمل ويجردوه مما معه ويذبح ذبحا شنيعا. وكانت البلاد تدور على عقبها (أي أن النظام مقلوب رأسا على عقب) كما تدور عجلة صانع الفخار، فمن كان لصا صار رب ثروة، والغنى صار إذ ذاك منهوبا، وأن الذي لم يكن يملك ثورا للحرث صار الآن يملك قطيعا. انظر إن الذي لم يكن يملك غلالا صار الآن صاحب مخازن من القمح ".

ولاشك أن للانحطاط الخلقي شأنا في ذلك الخراب الشامل الذي حاق بالبلاد، وإن لم ينص صراحة على أنه هو السبب الظاهري لذلك البؤس العام، إذ نراه يقول: " إن المتحلى بالفضائل يسير وهو محزون لما حدث في البلاد. ويقول آخرون: " لو كنت أعلم أين يوجد الإله لقدمت له قربانا. وفى الحق أن (العدالة) موجودة في البلاد باسمها فقط وما يلقاه الناس حينما يلتجئون إليها هو العسف ".

فلا عجب إذن من وجود ذلك اليأس الشامل "وفى الحق أن السرور مات ولم تعد تتذوقه بعد، ولا يوجد في الأرض إلا الأنين، الممزوج بالحسرة، وأن كلا من العظيم والحقير صار يقول : ليتني كنت ميتا، ويقول الأطفال : ليتنا لم نولد. في الحق أن قلوب كل القطعان صارت تبكى، والماشية تئن ".

ويتضح لنا مدى تأثر (ايبو ور) بما يشاهده فيقول: ليت الناس يفنون، فلا يحدث حمل ولا ولادة، وليت البلاد تخلو من الغوغاء حتى يقضى على الشجار". ويلوم (ايبو ور) نفسه بقوله:

"ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت، حتى أنقذ نفسي من الألم الذي أنا فيه الآن، فالويل لي لأن البؤس عم في هذا الزمان".

وينهى (ايبو ور) حديثه الفصيح بنغمة من التفاؤل والتطلع إلى مستقبل أفضل وحاكم أمثل يتوق إلى قدومه، وهذا الملك المثالي الذي حكم مصر في يوم من الأيام باسم الإله رع فيقول "فهو يطفيء اللهيب، ويقال عنه أنه راع لكل الناس ولا يحمل في قلبه شرا. وحينما تكون قطعانه قليلة العدد فإنه يصرف يومه في جمع بعضها إلى بعض وقلوبها محمومة من الحزن. ليته عرف أخلاقها في الجيل الأول، فعندئذ كان في مقدوره أن يضرب الشر وكان في قدرته أن يمد ذراعه ضده. وكان في مقدوره أن يقضى على بذرتهم. فأين هو اليوم؟ هل هو بطريق المصادفة نائم؟ انظر ان بأسه لا يرى...".

وصور (ايبو ور) الملك الأمثل والحاكم المثالي ووصفه بالملك العادل الذي لا يحمل في قلبه شرا، وهو الذي يجول بين رعيته كالراعي يجمع شتات قطيعه المتناقص الظمآن.

أما بردية (نفرتى) فهي تصف الخراب والفوضى اللذان كانا يخيمان على مصر. ويقول (نفرتى) "أنصت يا قلبي وانع تلك الأرض التي منها نشأت... لقد أصبحت هذه البلاد خرابا، فلا من يهتم بها، ولا من يتكلم عنها، ولا من يذرف الدمع، فأي حال عليها تلك البلاد؟ لقد حجبت الشمس فلا تضيء حتى يبصر الناس". وقد كان من جراء تعطيل أعمال الري أن "أصبح نيل مصر جافا فيمكن للإنسان أن يخوضه بالقدم. كل شيء طيب قد اختفى، وصارت البلاد في شقاء بسهام البدو الذين يغزون البلاد. وظهر الأعداء في مصر فانحدر الأسيويون إلى مصر. سأريك البلاد وهى مغزوة تتألم وقد حدث في البلاد ما لم يحدث قط من قبل .. فالرجل يجلس في عقر داره موليا ظهره عندما يكون الآخر يذبح بجواره.. سأريك الابن وقد صار عدوا والأخ صار خصما، والرجل يذبح والده، وكل الأشياء الطيبة قد ولت والبلاد تحتضر.. وأملاك الرجل تغتصب منه وتعطى للأجنبي.. سأريك أن المالك صار في حاجة والأجنبي في غنى... سأريك البلاد وقد صارت مغزوة تتألم، وأن منطقة عين شمس لن تصير بعد مكان ولادة كل إله".

وبعد ذلك يتحول (نفرتى) من وصف البلاد وما آلت إليه من خراب معلنا قدوم المنقذ الذي سيخلص مصر: "سيأتي ملك من الجنوب اسمه (أميني) وهو ابن امرأة نوبية الأصل (من إقليم تاستى أسوان حاليا) وقد ولد في الوجه القبلي وسيتسلم التاج الأبيض ويلبس التاج الأحمر، فيوحد بذلك التاج المزدوج سينشر السلام في الأرضيين (مصر) على الوجه الذي يحبه

أهلها...".

وهكذا نرى أن (ايبو ور) قدم لنا أوصاف هذا المنقذ لمصر بينما سماه نفرتي وكتب اسمه فهو أميني أي امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة الذي أعاد توطيد سلطان مصر ووحدها ونهض بها بعد كبوة.

ومن أهم نتائج هذه الثورة كما لخصها الدكتور عبد العزيز صالح في كتابه: الشرق الأدنى القديم، ١٩٨١، ص ١٥٧-١٦٠.

١- استثارت الوعي القومي لدى المفكرين.

٢- دفعت المفكرين إلى رسم صورة واضحة للحاكم الصالح بعد أن جربت الحكم المطلق وبعد أن رأت نتائج سيطرة العوام.

٣- نشأة طبقات جديدة عصامية.

٤- شجعت المصريين على إعلان رأيهم في الأسلاف.

٥- ظهور اتجاهات متميزة بين المصريين منها الاتجاه المتشكك المتطرف شك أصحابه في مقومات الخلود وهو فريق متشائم يائس اتضح لنا من بردية "حوار اليائس مع روحه". أما الاتجاه الثاني فهو متطرف رمى أصحاب الاتجاه الأول بالكفر. في حين أن الاتجاه الثالث قد أصر أصحابه على عقائد الأسلاف في الخلود بينما آمن أصحاب الاتجاه الرابع بأن الخلود حق لاشك فيه ولكنهم آمنوا بأن سعادة الفرد في أخراه لا ترتبط ببناء المقابر الفخمة بقدر ما ترتبط بصلاح أعمال الإنسان في دنياه ومقدار إيمانه بعدل أربابه في الآخرة.

عصر اللامركزية الأول
أو عصر الإنتقال الأول
٢١٦٠-١٩٩٤ ق.م.

وهى الفترة التي تفصل بين نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطي، وقد استمرت هذه الفترة ما يقرب من قرن ونصف قرن، وتشمل الأسرات من السابعة إلى منتصف الحادية عشرة. إلا أن (شارف) يفضل ضم الأسرتين السابعة والثامنة إلى الدولة القديمة، ويبدأ عصر الإنتقال الأول بالأسرة التاسعة. أما (فركونير) فيرى تقسيم هذه الفترة إلى ثلاثة عصور:

العصر الأول.. ويمكن أن يطلق عليه اسم عصر الانحدار والتدهور والاضطراب، وقد بدأ بموت (بيبى الثاني) ويشمل الثورة الطبقية، وازدهار الأدب التهذيبي، والأسرتين السابعة والثامنة، واستمر ٢١ عاما، وكانت منف هي العاصمة.

العصر الثاني.. ويمكن أن يطلق عليه اسم عصر أمراء اهناسيا، ويشمل الأسرتين التاسعة والعاشرة. وتميزت الأسرة التاسعة بالهدوء أما العاشرة فظهر فيها النزاع الداخلي بين حكام اهناسيا وحكام طيبة، وكانت اهناسيا هي العاصمة.

العصر الثالث.. وهو نهاية عصر الانتقال الأول، ويطلق عليه البعض اسم عصر بداية الدولة الوسطي. ويتميز بانتصار حكام طيبة على ملوك اهناسيا، وتأسيس الأسرة الحادية عشرة التي حكمت الصعيد فقط وفيما بعد مصر كلها، وكانت طيبة هي العاصمة.

وبانتهاء الأسرة السادسة انفلت زمام الأمور من يد الملك وساد الانحلال السياسي والتفكك الاجتماعي وعادت البلاد إلى ما كانت عليه قبل عهد الوحدة من انقسام وشبت نيران الحرب الأهلية.

ولعل أشد أيام ذلك العصر إظلاما واضطرابا هو عصر الأسرتين السابعة والثامنة المنفيتين نسبة إلي مدينة منف التي ظلت مقرا للحكم، فساد خلال عهديهما الفقر والبؤس وحل

القحط وتتابعت الفتن وانتشرت الفوضى، واختل الأمن وتلاشت السلطة المركزية واختفى سلطان العرش.

ويذكر مانيتون أنه بعد سقوط الأسرة السادسة قامت الأسرة السابعة، وحكم سبعون من ملوكها مدة سبعين يوما. ويمكننا أن نفسر ما قاله مانيتون بأنه ربما اجتمع سبعون من كبار الموظفين وحكام الأقاليم وكونوا من أنفسهم هيئة حاكمة وأطلق على كل من أولئك السبعين لقب ملك أو حاكم، إلا أن مثل هذا النظام لم يجد قبولا من المصريين فلم يستمر أكثر من سبعين يوما.

ويميل الأن أكثر المؤرخين إلى الاعتقاد بأن العام الذي انتهت فيه الدولة القديمة هو في الوقت ذاته بداية الأسرة السابعة المنفية وعصر اللامركزية الأول، كما هو أيضا أول أعوام حكم الأسرة الثامنة التي حكمت حوالي ٤٠ عاما.

أما (شتوك) فله رأى مختلف يتلخص في أن عددا من الملوك قد تولوا الحكم خلال الأسرة السابعة في منف، ويقدم العالم الألماني قائمة بأسمائهم، وأنه منذ عهد ثالث ملوكها بدأ حكم عائلة جديدة في قفط أو أبيدوس وهى الأسرة الثامنة ومؤسسها هو الملك (نترى – كا – رع)، كما بدأت في اهناسيا أسرة جديدة هي الأسرة التاسعة ومؤسسها هو الملك (خيتى الأول).

أما فيما يخص عدد ملوك الأسرة الثامنة فقد ذكر مانيتون أنهم ١٨ ملكا، وذكرت لوحة أبيدوس أنهم ١٧ ملكا، واحتفظت بردية تورين بأسماء ثماني ملوك فقط بينما تجاهلت قائمة سقارة الملوك الذين حكموا بعد (بيبى الثاني) حتى أول الأسرة الحادية عشرة. ومن الثابت الأن أن الأسرة السابعة لم يزد حكمها في منف عن عدة أشهر ثم تلتها في منف أسرة جديدة هي الأسرة الثامنة وتنحدر من أحد فروع البيت المالك القديم ،ان عدد ملوكها ١٥ ملكا، وأنهم لم يحكموا في قفط ولا في أبيدوس بل حكموا في منف كما ذكرت بردية تورين وأن أكثر ملوكها دفنوا في سقارة الجنوبية على مقربة من هرم (بيبى الثاني).[٣٨]

---

٣٨ Vandersleyen, Claude, *L'Egypte et la Vallée du Nil* II, 1995, p. 3 -16.

الأسـرتان التاسـعة والعاشـرة

وفى خلال تلك الفوضـى ظهرت ببلدة "اهناسيا المدينـة" عند مدخل منخفض الفيوم أسرة قوية بزعامة أمير يدعى (خيتى) استولى علـى العرش من الأسرة الثامنـة الضـعيفة التـي استمرت تدعى لنفسها حق الملك مدة طويلة، ولم يترك هؤلاء الملوك الاهناسيون آثارا تذكر ولـم نعثر علـى شيء فيما عدا قبر الملك (مريكا رع أو مرى – كا – رع) بسقارة. ومع ذلك فقد توصل المؤرخون إلي بعض حقائق هامة عن ذلك العصر معتمدين على مصدرين هامين: أولهما التعاليم التي تركها الملك (خيتى الثالث) أو الرابع في قول آخر وصية لولده وولـى عهده (مريكا رع أو مرى – كا – رع) وكانت خلاصة لتجارب هذا الشيخ طوال حياته التي امتلأت بـالحروب وألـوان الكفـاح، وثانيهمـا تلـك النصـوص التاريخيـة التـي دونهـا أمـراء أسـيوط المعاصـرين والمتحـالفين مـع الاهناسيين – علـى جدران مقـابرهم. وقد اعتبر ملوك اهناسيا أنفسهم خلفـاء مباشرين وشرعيين لملوك منف، وحاولوا نشر سلطانهم على أقاليم الوادي كله من "اهناسيا" التي ظلت مقرا لعرشهم طوال حكم الأسرتين التاسعة والعاشرة، كما نجحوا في طـرد بدو الصـحراء من الدلتا.

وكانت علاقة "اهناسيا" بطيبة (الأقصر حاليا) جيدة في بادىء الأمر، إلى أن نشبت الحرب بين الاهناسيين والطيبيين حين ازداد الأخيرون قوة. ورجحت كفة ملوك اهناسيا وحلفائهم أمراء أسيوط في المرحلة الأولى من ذلك الصراع المرير الطويل والذي استمر قرابـة مئة عـام. وسرعان ما مالت كفة الميزان في صالح أمراء طيبـة وانتهت تلك الحروب الضـروس بانتصـار الطيبيين في آخر الأمر انتصـارا تاما حين تمكن (منتوحتب الثـاني) أحد ملوك الأسرة الحادية عشر الطيبية من إسقاط عرش اهناسيا وتولى عرش مصـر الموحدة مبشرا بزوال عصر الفوضـى والإقطاع ودخول البلاد في دورة جديدة من دورات ازدهارها وعظمتها.

ويمثل عهد الاهناسيين بوجـه عام دور انتقـال بين حكم الدولـة القديمـة المنفيـة وحكم الدولة الوسطي الطيبية. وقد تميز عصـر اللامركزية الأول بازدهار الأدب الواقعي الذي يخلو من عناصـر الافتعـال والتصـنع، وترجم مشـاعر النـاس واحساساتهم فـي ذلك الوقت ترجمـة صـادقة ومشيرا بالمساواة الاجتماعية والعدالة الإنسانية.

الدولة الوسطي

(الأسرات ١١- ١٣)

٢٠٦٥- ١٧٨٥ ق.م.

أراد الله بمصر الخير حين وفق الملك (منتوحتب الثاني) أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة الطيبية (التي عاصرت الأسرة العاشرة في اهناسيا ودخلت معها في قتال طويل) إلى لم شمل البلاد وإعادة وحدتها في ظل حكومة قوية استمرت بقية أيام الأسرة الحادية عشرة وخلال حكم الأسرة الثانية عشرة فيما اصطلح المؤرخون على تسميته بعصر الدولة الوسطي[٣٩].

ويرجع إلي ملوك الأسرة الحادية عشرة الفضل في توحيد البلاد والقضاء على الحروب الأهلية واستتباب الأمن وتوطيد النظام، مما ساعد على انتعاش البلاد اقتصاديا وتقدم العمارة والفن. وخير دليل على ذلك هو ما بقى من معبد الملك (منتوحتب الثاني) في منطقة الدير البحري (غرب طيبة).

ولم تلبث الأسرة الحادية عشرة في الحكم بعد (منتوحتب الثاني) إلا قليلا، ثم انتقل الحكم إلى رجل آخر عظيم هو (امنمحات الأول) مؤسس الأسرة الثانية عشرة وصاحب الفضل الأكبر في بناء النهضة الجديدة للبلاد. وقد استخدم (امنمحات الأول) العنف تارة والحيلة تارة أخرى حتى أخضع حكام الأقاليم لسلطانه، كما طهر أطراف البلاد من الليبيين وحصن حدوده الشرقية والشمالية الشرقية، وشيد "حوائط الأمير" لصد الهجمات الأسيوية ومنع تسللها إلى الدلتا. وأدب امنمحات العصاة النوبيين وحصن النوبة وبنى (أسوار امنمحات) ليحمى النوبة ومصالح مصر فيها. وقام بنشاط حربي ضد البدو في عمق فلسطين، فتقدمت جيوشه بقيادة (سبك – خو) شرقا إلى فلسطين وبلغ مدينة "سكم". وهكذا سيطر (امنمحات الأول) على البلاد من أدناها إلى أقصاها. وقد اقتضت الضرورة السياسية هذا الملك أن ينقل العاصمة من طيبة إلى الشمال، واختار موقعا جديدا أطلق عليه اسم (اثيت تاوى) أي (القابضة على الأرضيين) التي تقع على بعد ١٨ كم جنوب منف قرب منطقة اللشت الحالية.

---

[٣٩] Vandersleyen, Claude,*L'Egypt et laVallée du Nil*, II 1995, p.17 etc.

وينتمي (امنمحات الأول) إلى أسرة من جنوب مصر فأمه من إقليم (تا ستى) أسوان الحالية، أما هو فيتضمن اسمه اسم الإله آمون إله طيبة. وقد قدمته لنا بردية نفرتي أو نبوءة نفرتي السابق ذكرها في صورة منقذ مصر ومخلصها من أعوام الاضطراب. واعتبر حكم (امنمحات الأول) بداية لعهد جديد أطلق عليه (وحم مسوت) أي "تكرار الولادة". واعتمد امنمحات في اعتلاء العرش على تأييد ومساندة حكام الأقاليم كما وضح لنا نص مقبرة (خنوم - حتب) حاكم إقليم الوعل (الإقليم ١٦ من الوجه القبلي).

ويبدو أن نهاية هذا الملك المنقذ كانت مفجعة فقتل (على ما يبدو) نتيجة مؤامرة دبرتها إحدى زوجاته طمعت في تولى ابنها العرش. وتعتبر قصة (سنوهى) من القصص الواقعية التي تلقى ضوءا على الحوادث التي جرت في ذلك الوقت. وتبدأ القصة بخبر وفاة الملك (امنمحات الأول) في العام ٣٠ من حكمه بينما كان جيشه يحارب في الصحراء الغربية بقيادة ولى العهد (سنوسرت الأول)، وكان (سنوهى) من رجال ذلك الجيش، فلم علم بخبر وفاة الملك ارتاع وقرر الهرب.

وسار (سنوهى) شرقا حتى وصل إلى صحراء العريش وظل ينتقل من مكان إلى آخر حتى استقر به المقام عند أحد شيوخ البدو في فلسطين. وأغراه هذا الشيخ بالإقامة معه وزوجه من كبرى بناته وأقطعه خير أراضيه. وعاش (سنوهى) هناك عزيزا مكرما حتى أدركته الشيخوخة فحن إلى بلده مصر وأراد أن يعود إليها ليمضى فيها آخر أيامه ويدفن في أرضها، وعاد فعلا إليها بعد أن عفا عنه الملك. وتصور لنا هذه القصة أحوال فلسطين الاقتصادية والسياسية والحربية وقتذاك، وهى مرآة صافية لوجه الحياة حينذاك في فلسطين. وقد فتن المصريون القدماء بهذه القصة وظلوا ينسخونها ويتداولونها دهرا طويلا.

وكتب (أمنمحات الأول) وصية لابنه (سنوسرت الأول) لتكون بمثابة دستور يسترشد به في حكم البلاد. وبدا من مطلع الوصية أن نفس الملك مملوءة بالشك والريبة بل والمرارة أيضا فأخذ يحذر ولده من الناس بل ومن أقرب الناس إليه فيقول مخاطبا إياه "أنت يا من غدوت ملكا استمع لما أقول حتى تصبح ملكا على الوادي وحتى يمكنك أن تعمل صلاحا، خذ حذرك من موظفيك فما أطاع الناس إلا من يرهبهم. وإياك أن تدنو منهم وحدك وإياك أن تثق بأحد أو تصطفى لنفسك صاحبا، فلا خير في ذلك كله. ولتكن حارس نفسك حين تنام حرصا على حياتك، فلا صديق للمرء في ساعة الحرج والشدة. لقد أعطيت السائل وربيت اليتيم وأغنت المعدم، ومع

ذلك فإن من أكل عيشي هو الذي استعدى الناس علي، والذي مددت له يد المعونة ردها لي بالكيد".

وقد تعاقب بعد (امنمحات الأول) سبعة ملوك نهضت البلاد في أيامهم نهضة شاملة وتمتعت بقسط كبير من الرخاء والعمران، خاصة في عهد (سنوسرت الثالث) و(امنمحات الثالث).

أما (سنوسرت الثالث) فكان رجلا قويا حازما اتخذ إجراءات حاسمة للقضاء على نفوذ حكام الأقاليم نهائيا فأخضعهم تماما لسلطان القصر، كما أرسل عددا من الحملات الحربية إلى بلاد النوبة وأقام هناك الحصون وأشهرها حصنا سمنه وكمه، كما شق في صخور الجندل الأول عند أسوان ليسهل مرور الفن صعودا وهبوطا في النيل. وقد نجحت هذه الأعمال في توطيد الأمن بالنوبة وربطها نهائيا بمصر، كذلك ينسب إلى هذا الملك حفر قناة ربطت بين النيل وخليج السويس فكانت الفكرة الأولى التي أوحت فيما بعد بربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر.

ثم خلفه في الحكم ابنه (امنمحات الثالث) الذي حكم قرابة الخمسين عاما، وكان إداريا حازما وسياسيا حكيما ومشيدا كبيرا، وقد كان عصره عصر رخاء لأنه اهتم بمشاريع الري وأقام مقاييس للنيل لتقدير الضرائب على أساسها. ومن أهم مشروعاته إقامته سدا لحجز مياه النيل وقت الفيضان في منخفض الفيوم، وقد أقام (امنمحات الثالث) هرمه عند بلدة هوراه بإقليم الفيوم على غرار أهرامات الدولة الوسطي التي امتازت بطابعها الخاص إذ بنيت من اللبن وكسيت من الخارج بالحجر الجيري الأبيض وكانت صغيرة الحجم حرص بناؤها على الإكثار من غرفها وممراتها الداخلية وعلى إخفاء معالم مداخلها لتضليل اللصوص. وقد بنى (امنمحات الثالث) إلى الشرق من هرمه معبدا ضخما لم يبق من آثاره إلا بضعة أحجار متناثرة. وقد زار المؤرخون الإغريق هذا المعبد وسموه "قصر التيه" لكثرة غرفه التي يتوه فيها الإنسان. كما سموه "قصر اللابيرنت" تشبيها له بقصر ضخم في جزيرة كريت، وعده من عجائب الدنيا.

وكانت نهاية الدولة الوسطي شبيهة إلى حد كبير بختام أيام الدولة القديمة، إذ طال حكم الملك (امنمحات الثالث) حتى امتد أكثر من خمسين عاما، مما أضعف سلطة العرش، كما خلفه ملوك ضعاف تلاشى على أيديهم نفوذ الملك تماما. فكان ذلك نذيرا بانتهاء أيام الأسرة الثانية عشرة وسقوط الدولة الوسطي ودخول مصر ثانية في عصر من عصور الفوضى والظلام.

وقد وضح أمام أعين ملوك الدولة الوسطي بعد أن حتمت عليهم الظروف أن يستقبلوا عهدهم بالحرب والكفاح – أن سلطان القصر أصبح لا يعتمد على غير السيف ولا يستقيم إلا بالسلاح وإنه لابد من الاعتماد على القوة الحربية لإقالة الدولة من عثرتها وإقرار سلطانها وحماية حدودها في الشمال والجنوب فكونوا جيشا قويا مستعدا دائما للحرب متدربا على القتال.

وكان نواة هذا الجيش المصري الجديد حرس الملك الخاص الدائم كما ضموا إليه عددا كبيرا من جنود النوبة، هكذا نجد أن الجيش المصري قد أصبح جيشا نظاميا إلى حد كبير. وقد حرص ملوك الدولة الوسطي على تقوية ذلك الجيش الذي حمى الدولة تماما من المغيرين.

واهتم ملوك الدولة الوسطي بالتجارة وعملوا على تشجيعها فحفر (سنوسرت الثالث) القناة التي أوصل بها ما بين النيل وخليج السويس، كذلك بذل محاولات لتوحيد صلات مصر بسورية وفلسطين فعقد ملوك الأسرة الثانية عشرة تحالفا مع أمراء أوجاريت (رأس الشمرا الحالية) حيث عثر على تمثال لزوجة (سنوسرت الثاني) وآخر على شكل أبى الهول (لأمنمحات الثالث) ومجموعة تمثل أحد وزراء مصر مع سيدتين من أسرته مما يدل على قوة الصلة بين مصر وذلك المركز التجاري الهام في غرب آسيا. ومن المرجح كذلك أن الصلة التجارية بين مصر وجزر البحر المتوسط قد توثقت منذ ذلك العهد، فقد عثر على بعض الآثار المينوية (حضارة جزر بحر إيجة) في أجزاء مختلفة من مصر. وكانت هناك أيضا علاقات سلمية مع فلسطين ففي عهد (سنوسرت الثاني) نرى على جدران مقبرة (خنوم – حتب) حاكم إقليم الوعل نقشا يمثل جماعة من الآسيويين مكونة من ٣٧ شخصا بزعامة رئيس يدعى (أبشا) مهاجرين هجرة سلمية إلى مصر.[٤٠]

وتميز عهد الدولة الوسطي بالرخاء الاقتصادي إذ اهتمت الحكومة بتنظيم مياه النيل وتوفيره للري وعنيت بالزراعة وعملت على النهوض بها، كما فتحت في عهد الدولة الوسطي المناجم والمحاجر التي ظلت شبه مغلقة أيام عصر اللامركزية الأول، وكثر إرسال البعثات إلى مناجم ومحاجر الصحراء الشرقية وسيناء، فتقدمت نتيجة لذلك الصناعات والفنون ونهضت العمارة وأعمال البناء ولم تكن تلك النهضة قاصرة على العاصمة فقط بل تعدتها إلى الأقاليم حيث نحت حكامها مقابرهم في الصخور وزينوا جدرانها بالنقوش والرسوم التي بلغت غاية

---

[40] Newberry, P.and Fraser,G.W., *Beni Hassan* I,1893, pl. 30-31(T 3).

الإجادة والروعة، وقد بلغت الفنون الصغرى مثل صناعة الحلي درجة مذهلة من التقدم في أيام الأسرة الثانية عشرة.

ويعتبر عصر الدولة الوسطي أزهى عصور الأدب المصري، وقد اعتبر المصريون الذين عاشوا بعد ذلك العصر أدب الدولة الوسطي نموذجا للأسلوب الجيد يسعون إلى تقليده والاحتذاء به. وقد شملت النهضة الأدبية في ذلك العصر كافة مجالات الأدب وخاصة الأدب القصصي ومن أشهر القصص التي ترجع إلى تلك الفترة قصة البحار الغريق التي تشبه قصص السندباد البحري. وتحدثنا تلك القصة عن مصري ركب سفينة سارت في البحر الأحمر قاصدة إحدى البقاع البعيدة ولكن السفينة اعترضتها عاصفة هوجاء فحطمتها وألقت بركابها إلى البحر ولم تكتب النجاة إلا لصاحب القصة الذي قذفت إليه الأمواج بلوح من الخشب حمله إلى جزيرة خالية من السكان، وأخذ المصري يطوف بالجزيرة باحثا عن الطعام فإذا به أمام حية ضخمة ارتاع لمنظرها ولكن الحية طمأنته بعد أن روى لها قصته وساعدته على المعيشة في الجزيرة، حتى مرت بعد بضعة شهور سفينة مصرية حملته إلى أرض الوطن سالما. أما قصة (سنوهي) فهي تمثل القصص الواقعي في تلك الفترة.[٤١]

هكذا تمكنت مصر في ذلك العهد وفي ظل حكومة ترتكز على نفس الأسس الدينية والسياسية والإدارية التي ارتكزت عليها حكومة الدولة القديمة من استرداد مكانتها الأولى التي عرفتها لها الدنيا في عصر بناة الأهرام، وبعد أن أتيح لها على يد (منتوحتب الثاني) في بعث حضارة تماثل حضارة الدولة القديمة من حيث طابعها المصري الأصيل، إلا أن الأحداث التي سبقت أيام الدولة الوسطي وعاصرتها قد أكسبت تلك الحضارة من الخصائص والصفات ما قد يختلف في بعض النواحي عن حضارة الدولة القديمة.

---

[٤١] ج. لوفيفر ترجمة على حافظ روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني، د.ت، ص ٣٢ - ٦٨.

مراجع مختارة لتاريخ مصر القديم

المراجع العربية:

١. أحمد أمين سليم، دراسة تاريخية للحضارة المصرية القديمة أثناء الأسرتين الأولي والثانية، الإسكندرية ١٩٧٧.

٢. أحمد بدوي، في موكب الشمس ج ١ـ ٢، القاهرة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥.

٣. أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧٠ .

٤. رمضان عبده على، تاريخ مصر القديم، القاهرة ٢٠٠١.

٥. سليم حسن، مصر القديمة، (ج ١ـ ٣) القاهرة ٢٠٠٠.

٦. سيد توفيق، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨٧.

٧. عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهر ١٩٦٦.

٨. عبد العزيز صالح، مصر القديمة وآثارها – ج، القاهرة ١٩٦٢.

٩. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ج١، القاهرة ١٩٦٧.

١٠.محمد ابراهيم بكر، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم، القاهرة ١٩٩٢.

١١. محمد بيومي مهران، مـصر، (ج ٣ أجزاء)، الإسكندرية ١٩٨٨.

١٢.محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولي في مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦.

١٣. نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، (٦ أجزاء) ، الإسكندرية ١٩٦٦ .

مراجع مترجمة إلى اللغة العربية

١. الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٠

٢. ألن جاردنر، مصر الفرعونية، ترجمة نجيب ميخائيل، القاهرة ١٩٧٣.

٣. باسكال فيرنوس وجان يويوت، موسوعة الفراعنة الأسماء – الأماكن – الموضوعات، ترجمة محمود ماهر، القاهرة ١٩٩١.

٤. جان يويوت، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، القاهرة ١٩٦٦.

٥. جريمال نقولا، تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتي ومراجعة زكية طبوزادة، القاهرة ١٩٩٣.

٦. جورج بوزنير وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أمين سلامة ومراجعة سيد توفيق، القاهرة ١٩٩٢.

٧. جون ولسون، الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أحمد فخري، القاهرة ١٩٥٦.

٨. جونفيف هوسون ودومينيك فالبيل، الدولة والمؤسسات في مصر، ترجمة فؤاد الدهان، القاهرة ١٩٩٥.

٩. دريتون وفاندييه، مصر، ترجمة عباس بيومي، القاهرة ١٩٥٠.

١٠. فرانسوا دوما، حضارة مصر الفرعونية، ترجمة ماهر جويجاتي، القاهرة ١٩٩٨.

١١. فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر من ٣٠٠٠ قبل الميلاد إلى ٣٩٥ ميلاديا، ترجمة فريد بوري ومراجعة زكية طبوزادة، القاهرة ١٩٩٧.

١٢. والتر امري، مصر في العصر العتيق، ترجمة راشد نويرة ومحمد علي كمال، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٧.

١٣. والتر امري، مصر وبلاد النوبة، ترجمة تحفة حندوسة، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٧٠.

المراجع الأجنبية

1. Aldred C., *Middle Kingdom Art in Ancient Egypt 2300 –1590 B.C.*, 1970، London.

2. Gardiner A., *Egypt of the pharaohs*, Oxford, 1961

3. Gophna R., *Egyptian First Dynasty*, 1972.

4. Hayes W., *CAH* I, 2, chap. XX : " The MiddelKingdom in Egypt Internal History from the Rise of the Heracleopolitains to the death of Ammenemes III", 1971, 464-531.

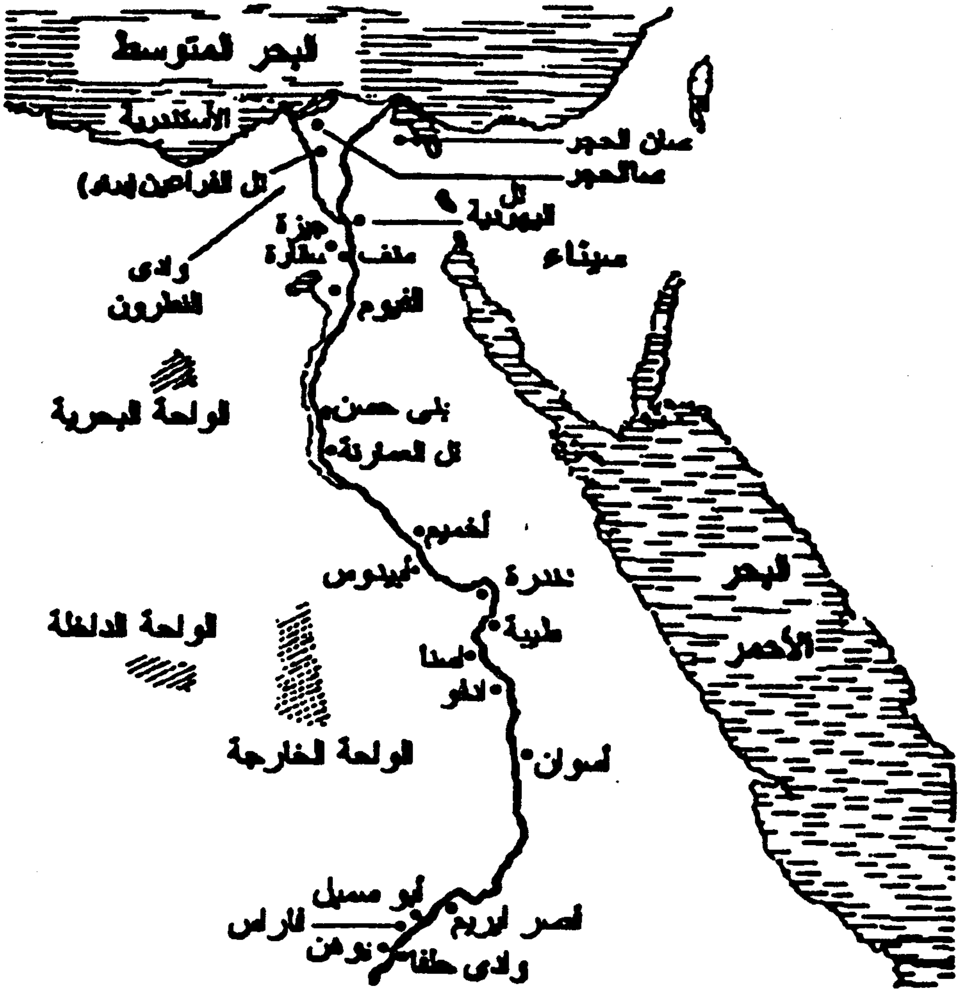
5. Helck W., Otto E. and Westendorf W. (ed.) 1975-1992, *Lexikon der Ägyptologie, 7 vol.*,Wiesbaden.

6. Szafranski Z., Observationson the Second Intermediate Period Relief, *Mél. Von Beckerath*, 1990, 245-251.

7. Vandersleyen C., *L'Egypte et la Vallée du Nil* II, Nouvelle Clio, 1995.

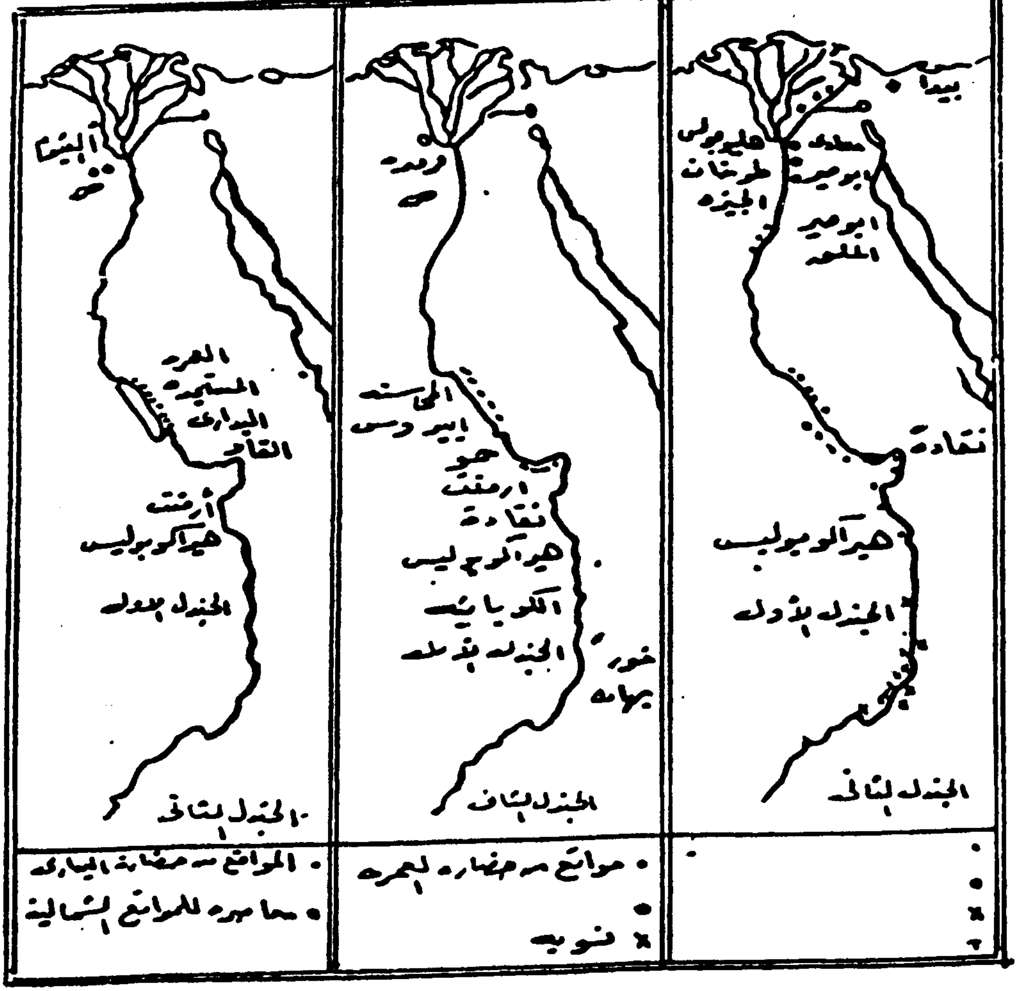
8. Vercoutter J., *L'Egypte et la Vallée du Nil* I, Nouvelle Clio, 1992.

اللـــوحـــات

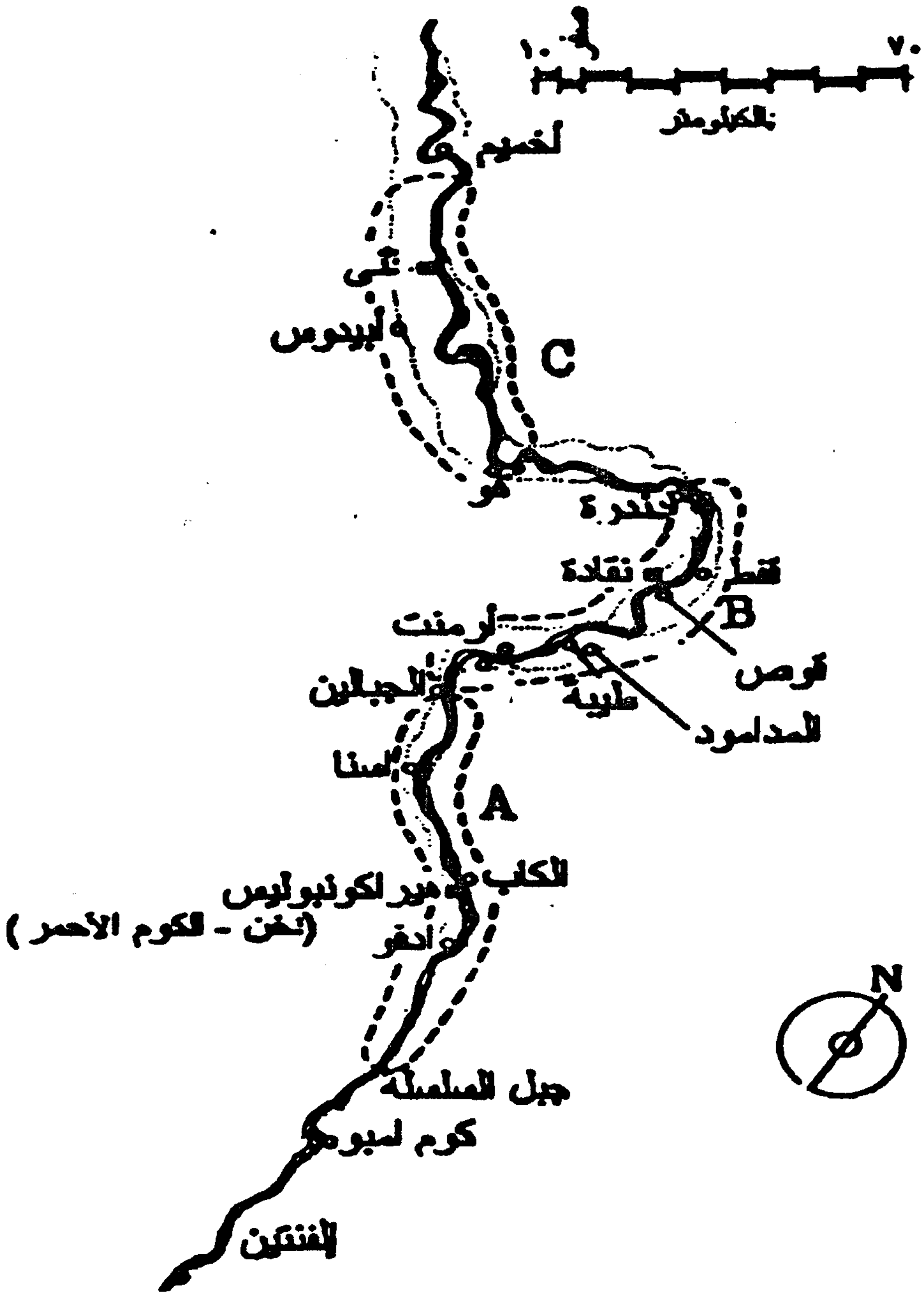


البحر المتوسط
الأسكندرية
صان الحجر
صا الحجر
تل الفراعين (بوتو)
تل اليهودية
جيزة
منف
سقارة
سيناء
وادى النطرون
الفيوم
الواحة البحرية
بنى حسن
تل العمارنة
أبيدوس
دندرة
طيبة
الواحة الداخلة
اسنا
ادفو
الواحة الخارجة
أسوان
البحر الأحمر
أبو سمبل
قصر ابريم
وادى حلفا

- خريطـة مصـر

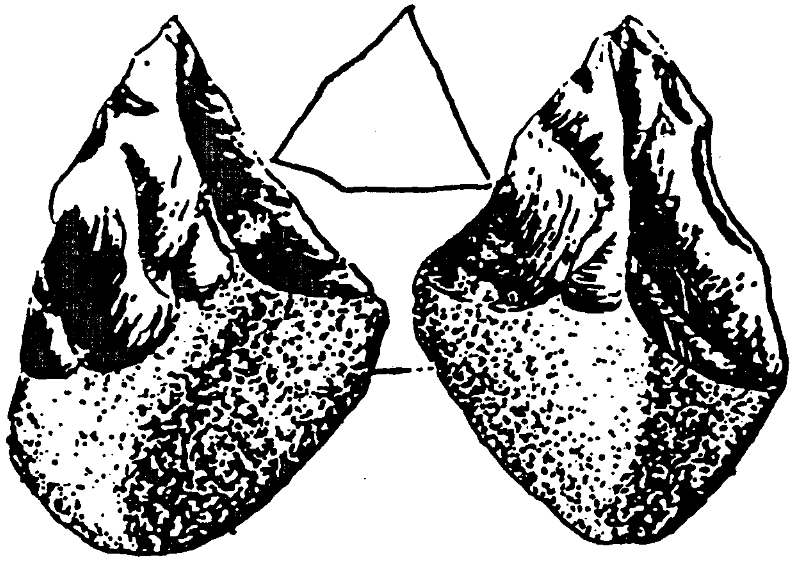


توزيع لمناطق مواقع حضارة ماقبل التاريخ في مصر .

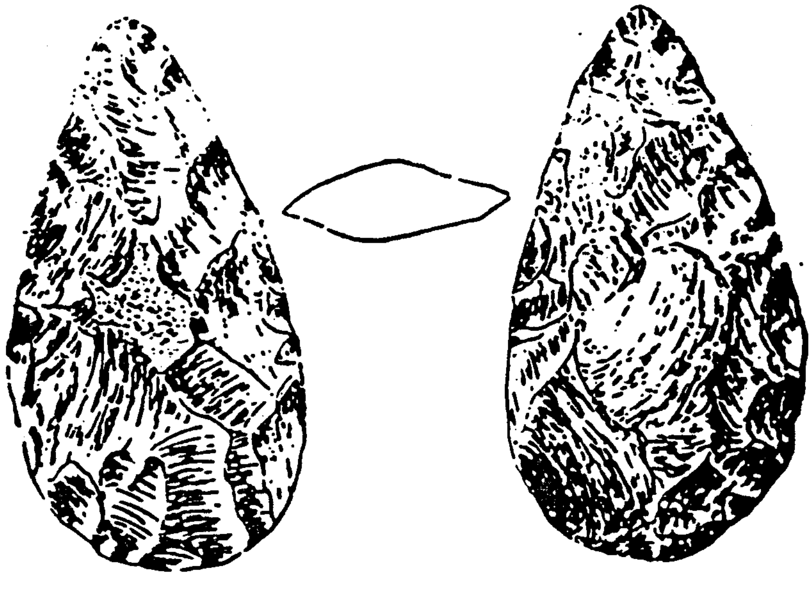


- الدويلات التى سبقت الوحدة فى مصر

المماليك: هيراكونبوليس، ثنى



شكل - فأس يدوية من العصر الشيلي



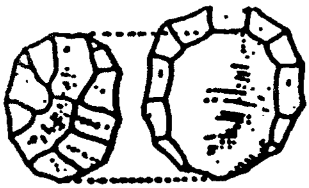
شكل - فأس يدوية من العصر الأشولي



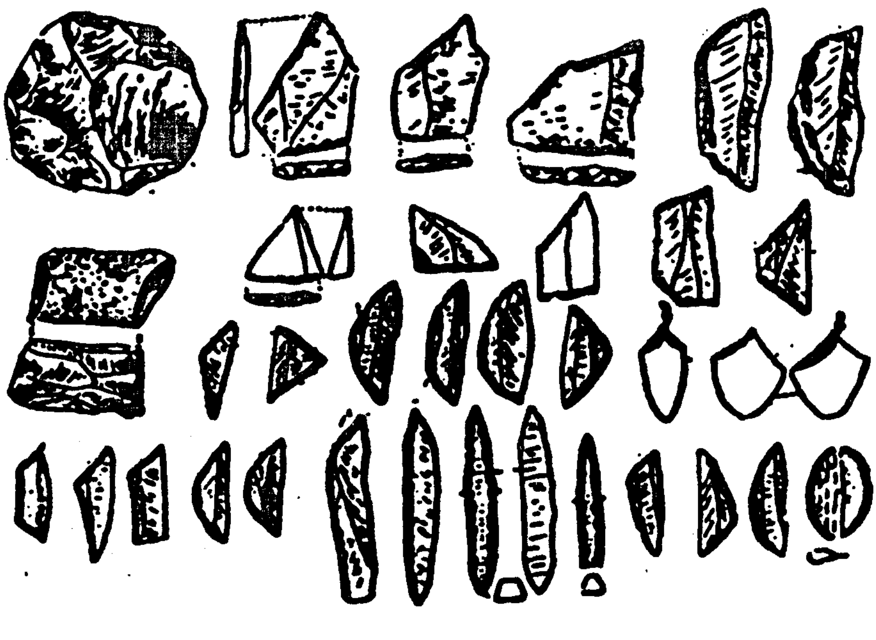
شكل - أداة حجرية ابفيلية



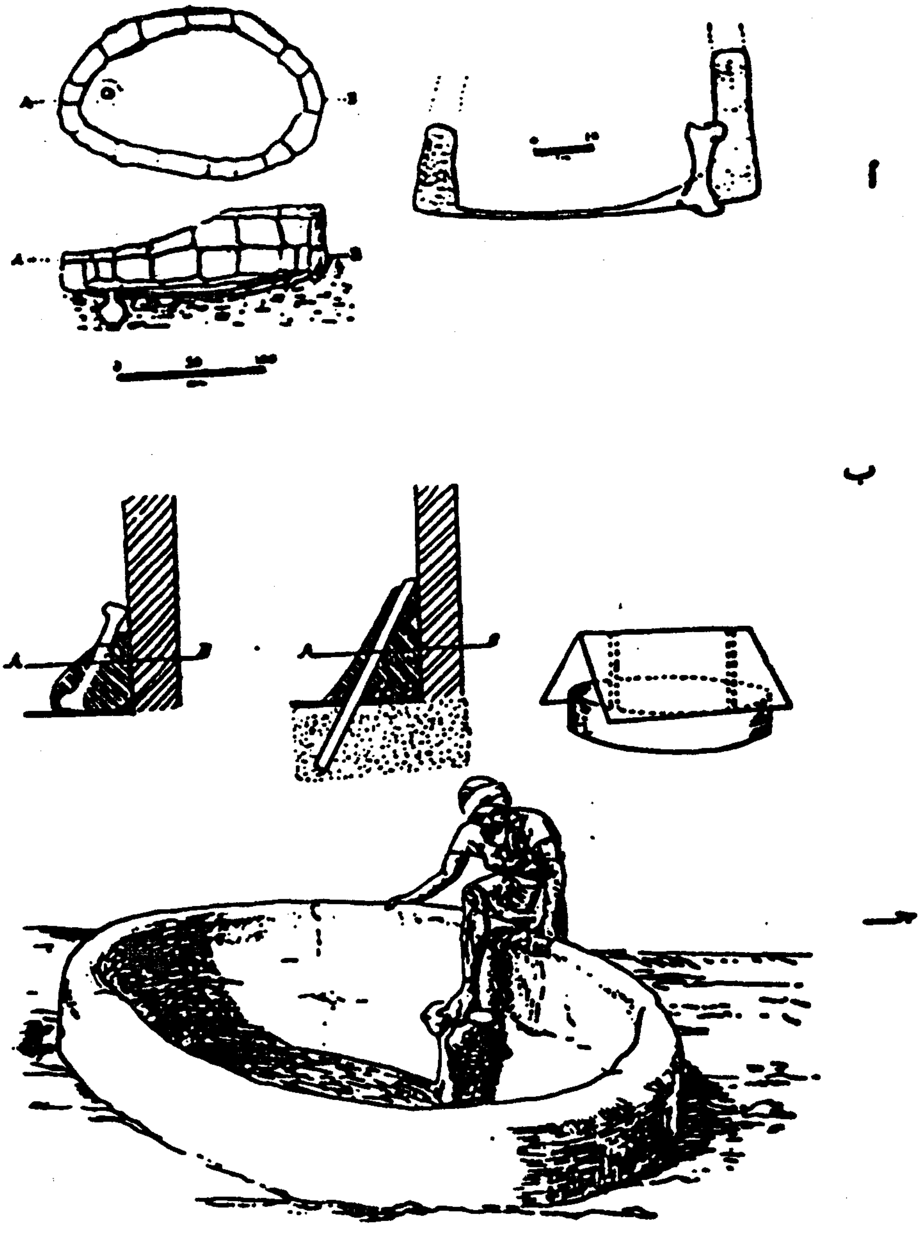
شكل - أدوات حجرية موستيرية



شكل - أداة حجرية لفلوازية

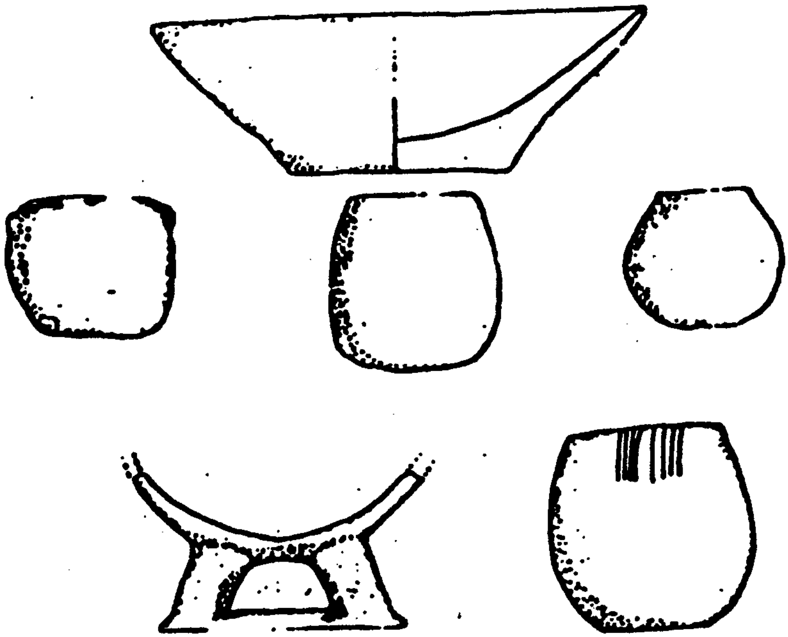


شكل - أدوات حجرية قزمية من المرحلة السبيلية

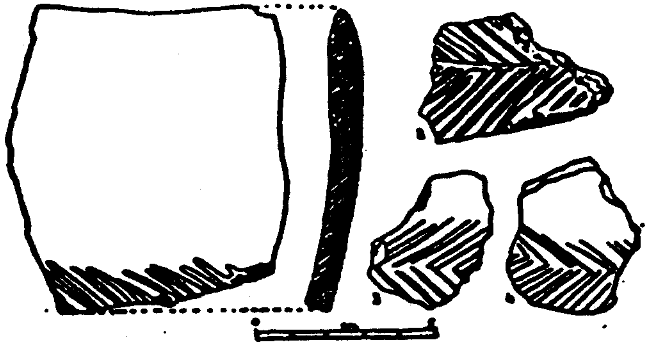


شكل – تخيل لما كان علية البيت في مرملة بني سلامة

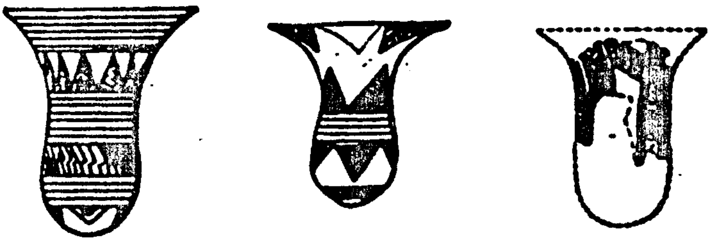
J. Vandier, Manuel d'archéologie Égyptienne, I, Paris 1952, Fig. 71-74.



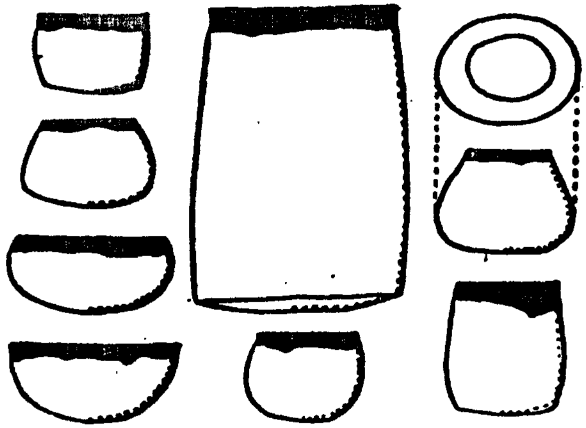
شكل - بعض نماذج من فخار مرملة بني سلامة



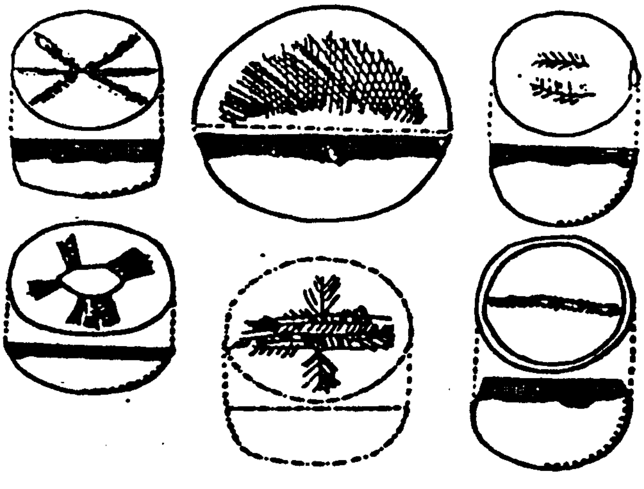
شكل - زخارف تشبه شوك السمك على كسر فخار من مرملة بني سلامة



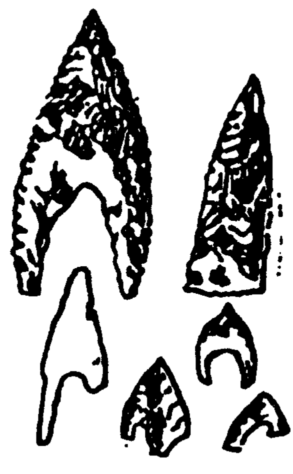
شكل - بعض نماذج من فخار دير تاسا



شكل - بعض نماذج من فخار البداري



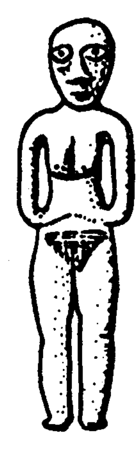
شكل - بعض نماذج من زخارف فخار البداري



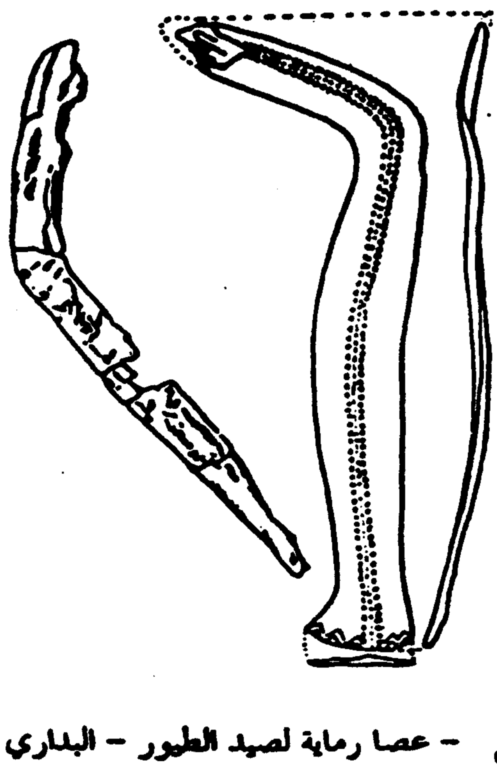
شكل - رؤوس سهام من البداري



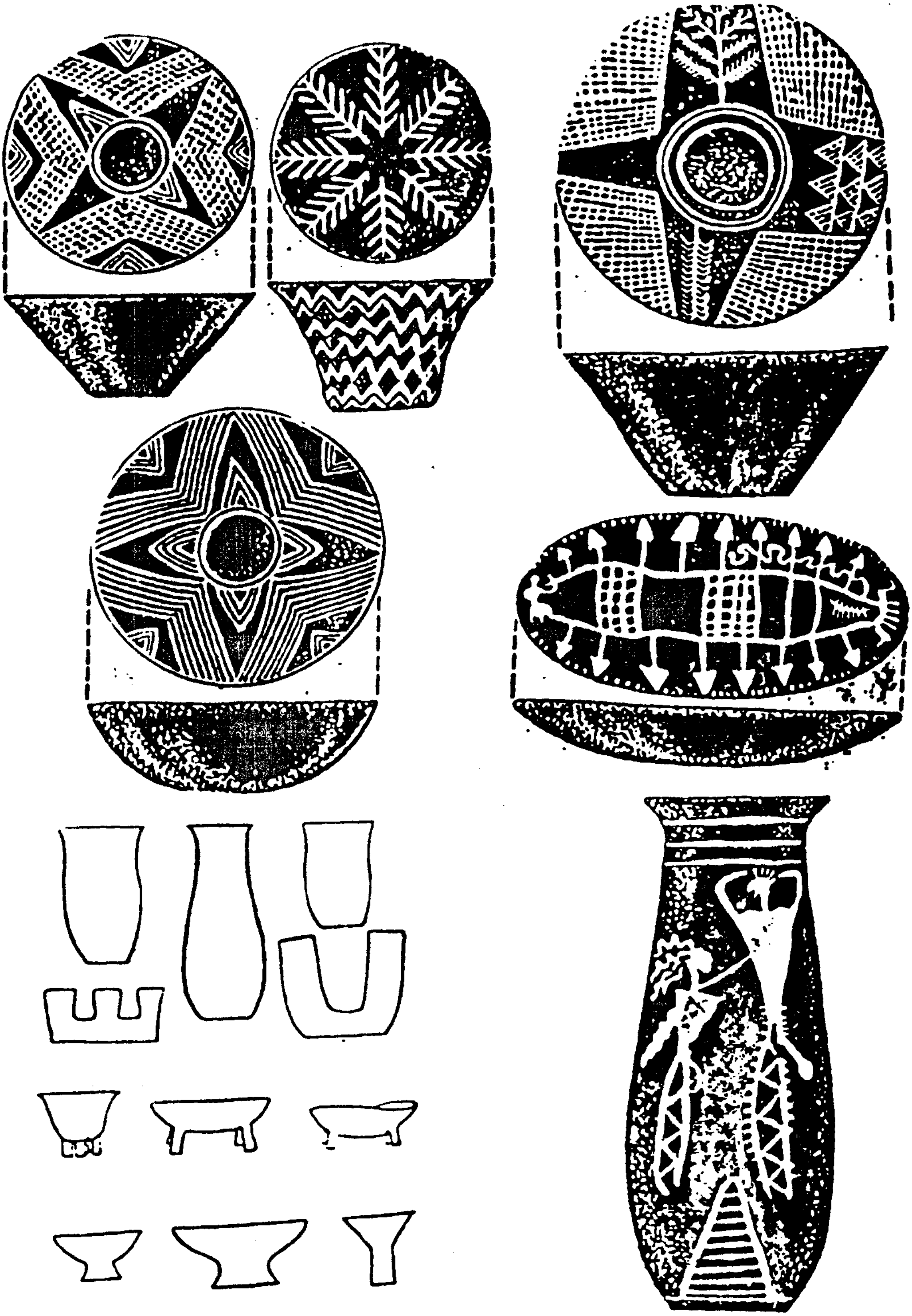
شكل - سنانير من البداري



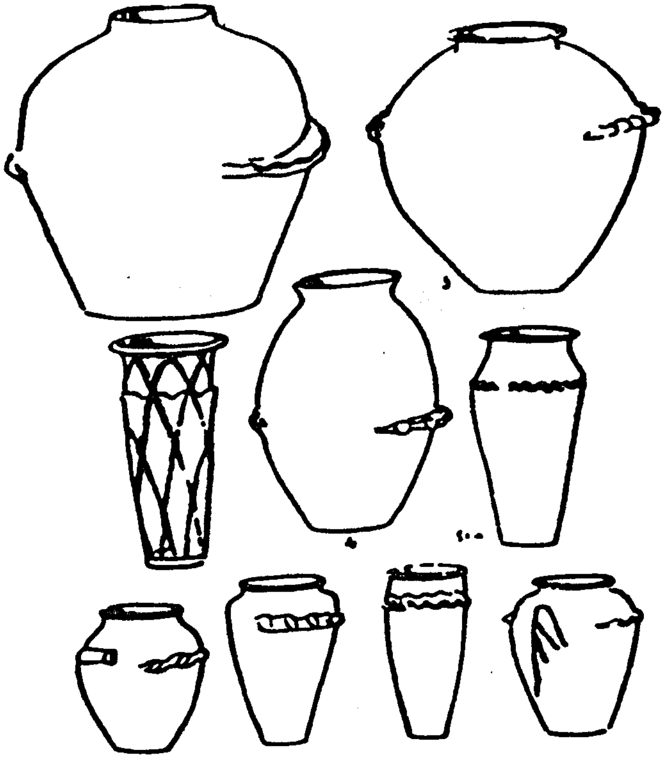
شكل - تمثال لسيدة من العاج - البداري



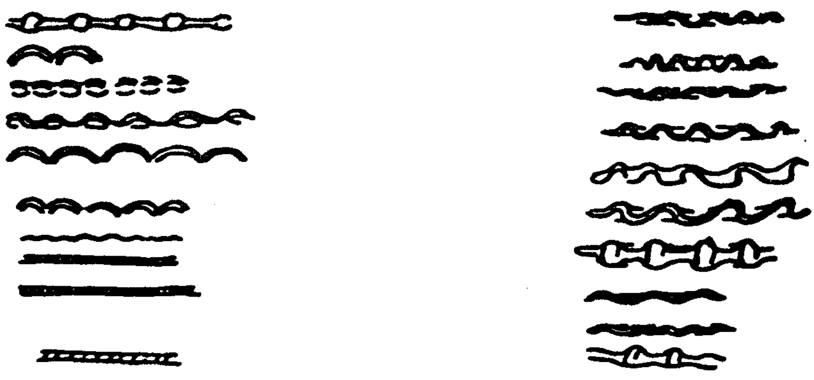
شكل - عصا رماية لصيد الطيور - البداري



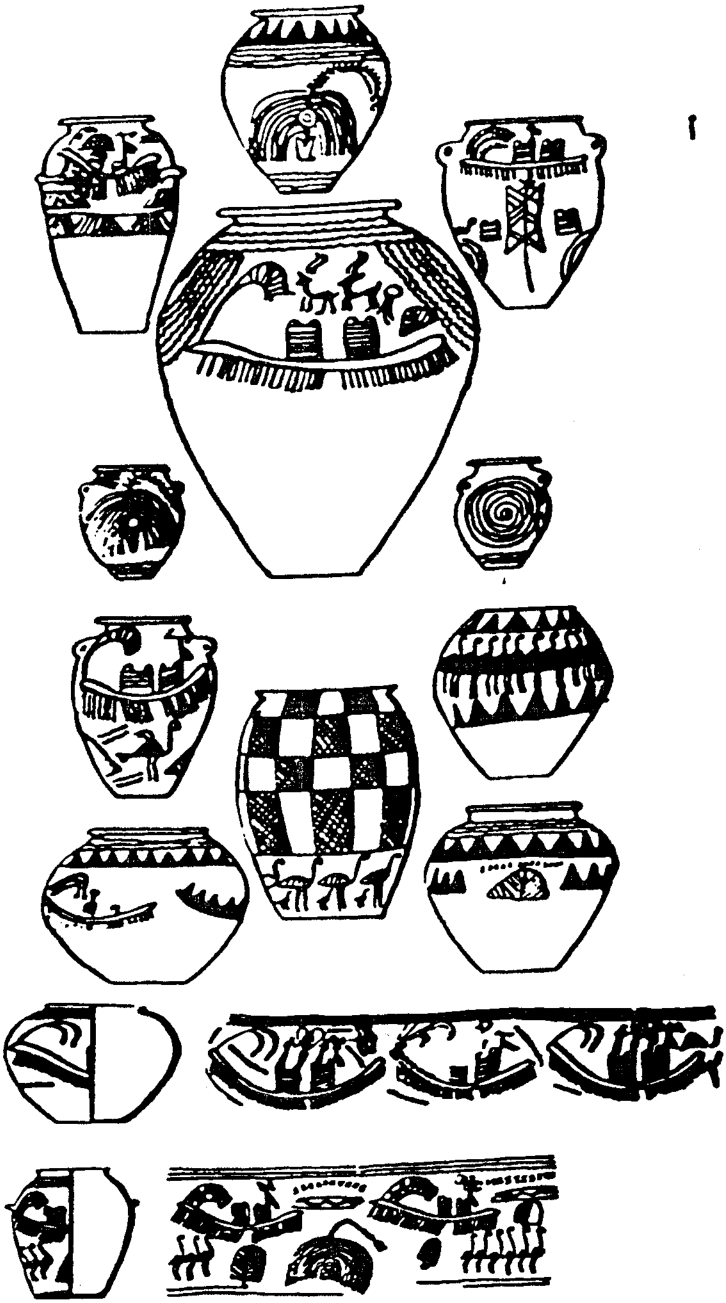
شكل - بعض نماذج من فخار ، وزخارف فخار من نقادة الأولي



شكل – بعض نماذج من الفخار ذي المقابض المتموجة من نقادة الثانية



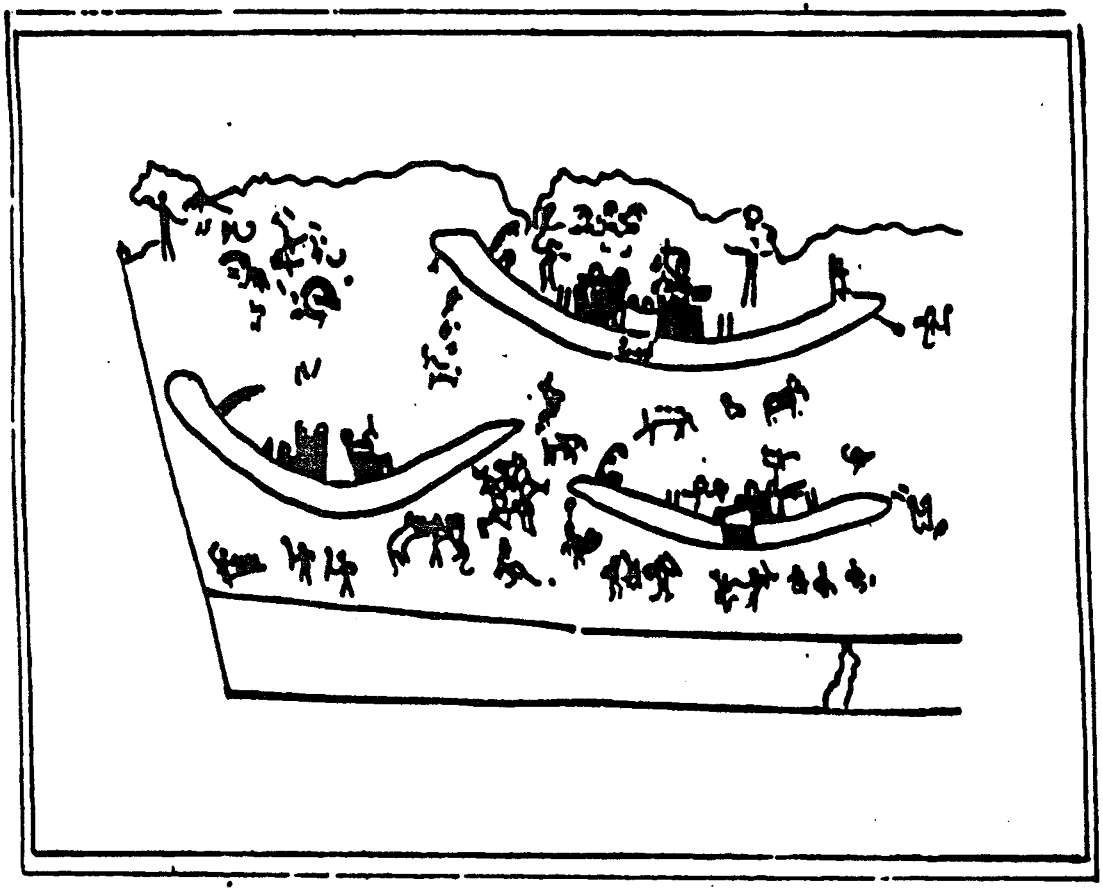
شكل – بعض نماذج من مقابض لأواني فخارية من نقادة الثانية



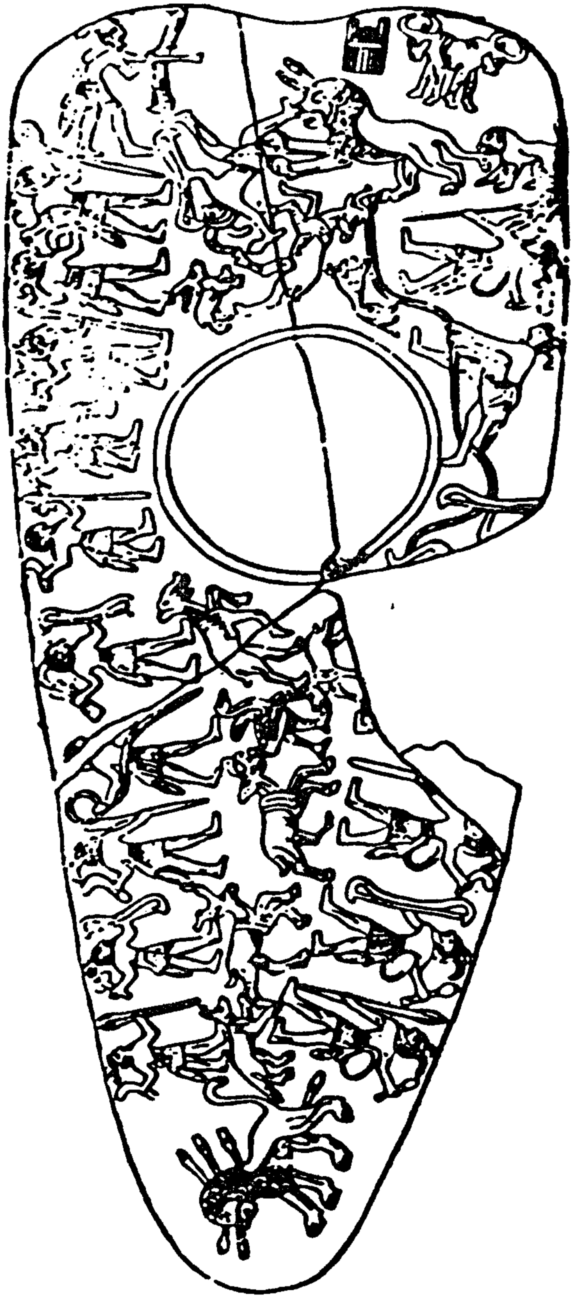
أ

ب

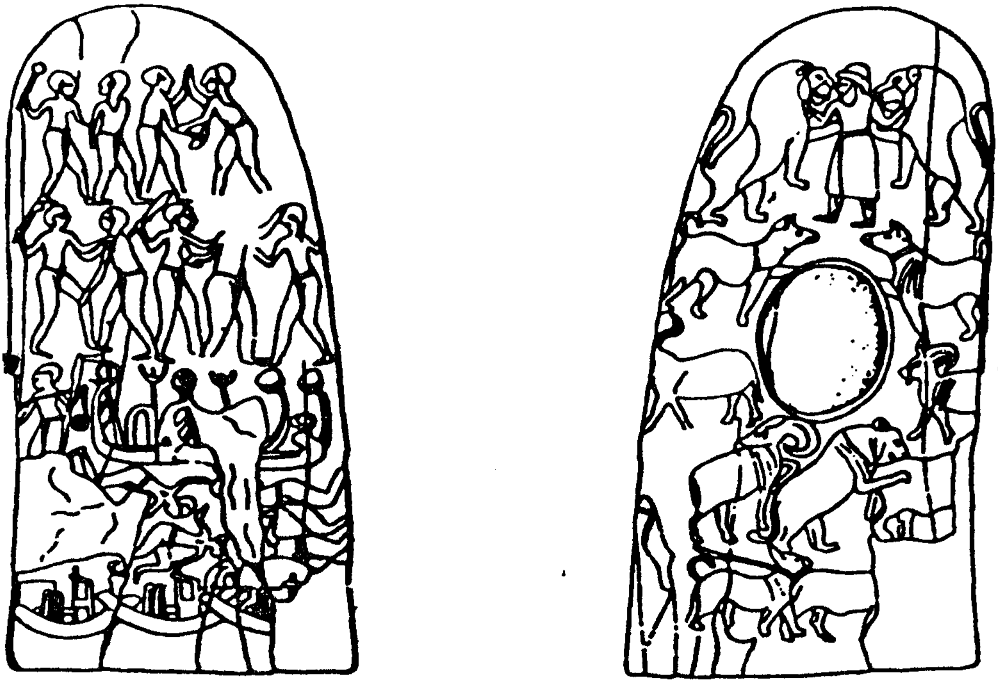
شكل - بعض نماذج من فخار نقادة الثانية



تفصيل مقبرة هيراكبوليس - عصر جرزة متأخر



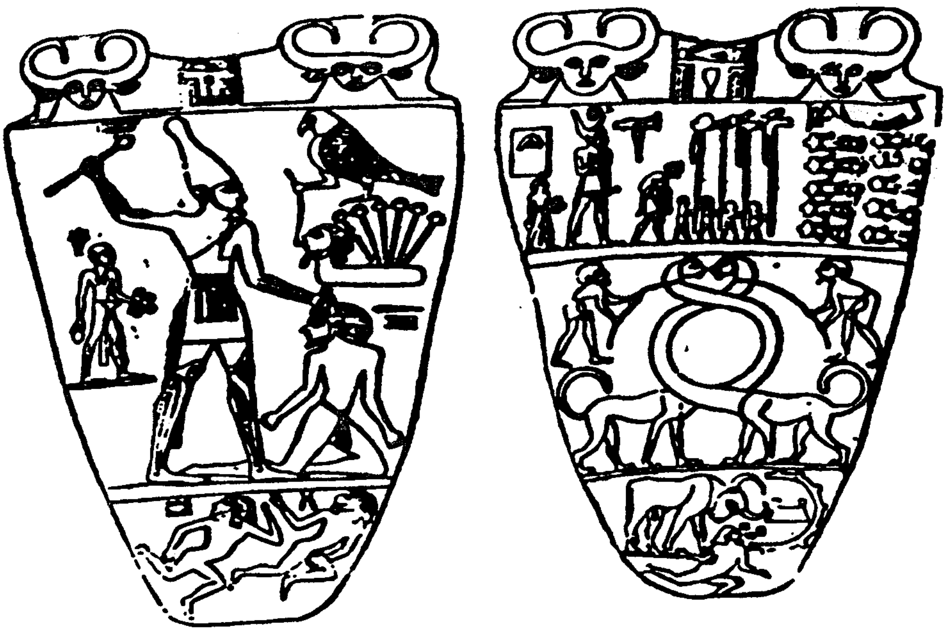
شكل - صلاية صيد الأسود



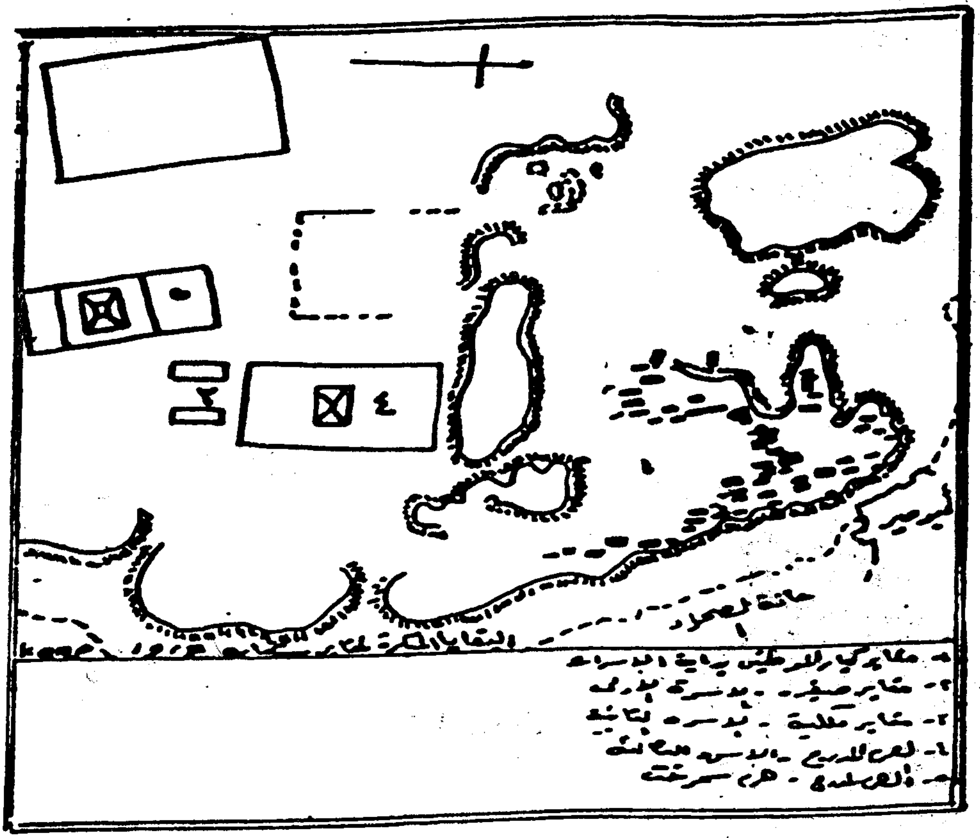
شكل - نقوش جانبي مقبض سكين جبل العركي



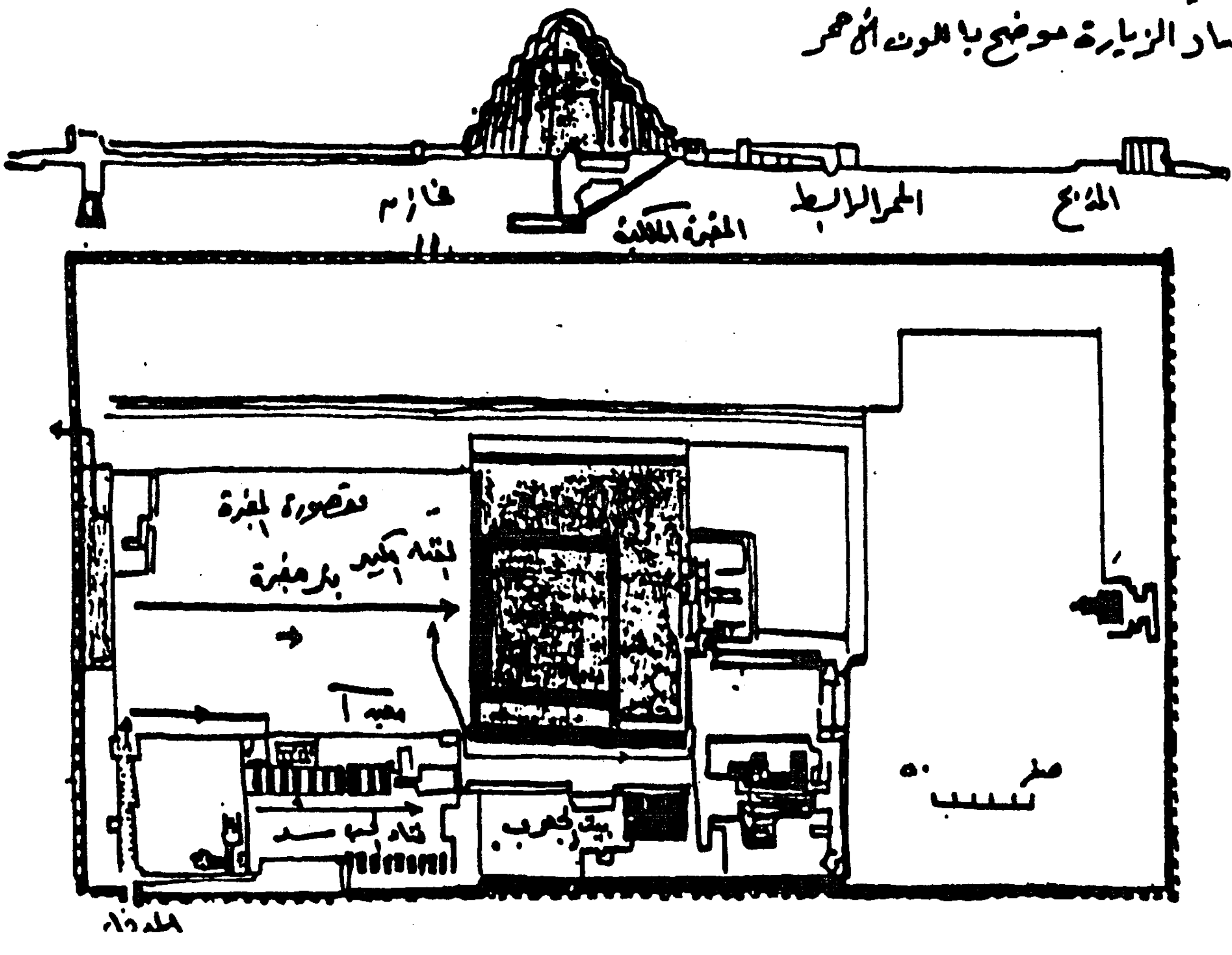
شكل - نقوش رأس مقمعة للملك العقرب

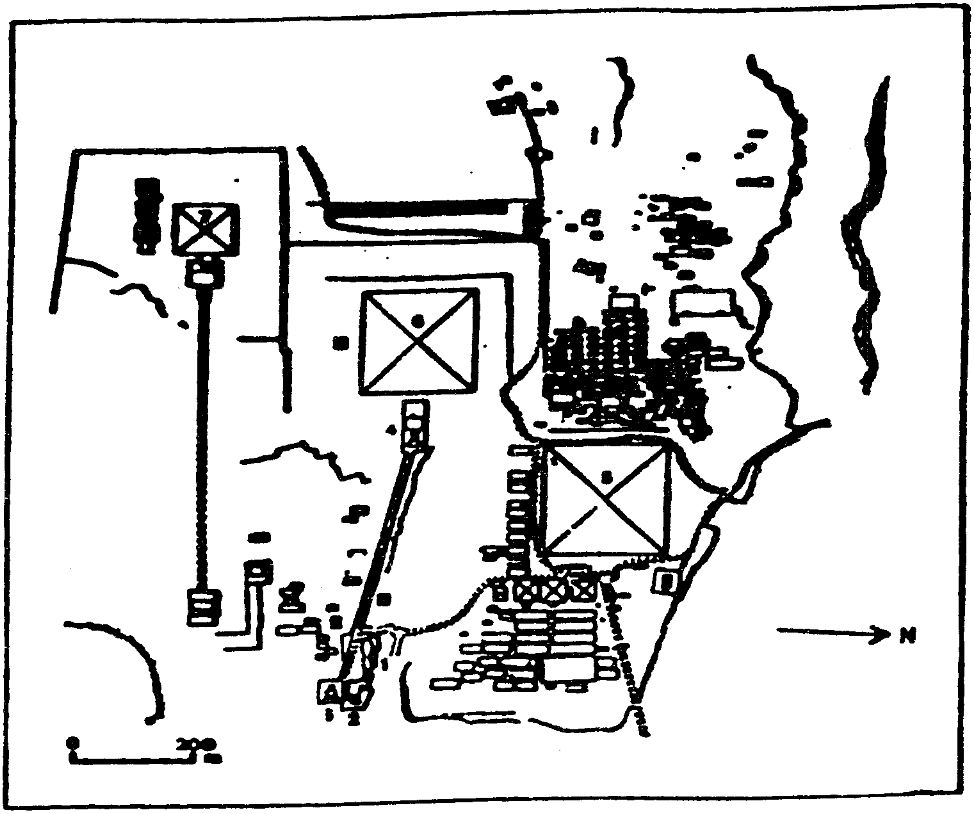


شكل - نقوش صلاية للملك نعرمر من الجانبين

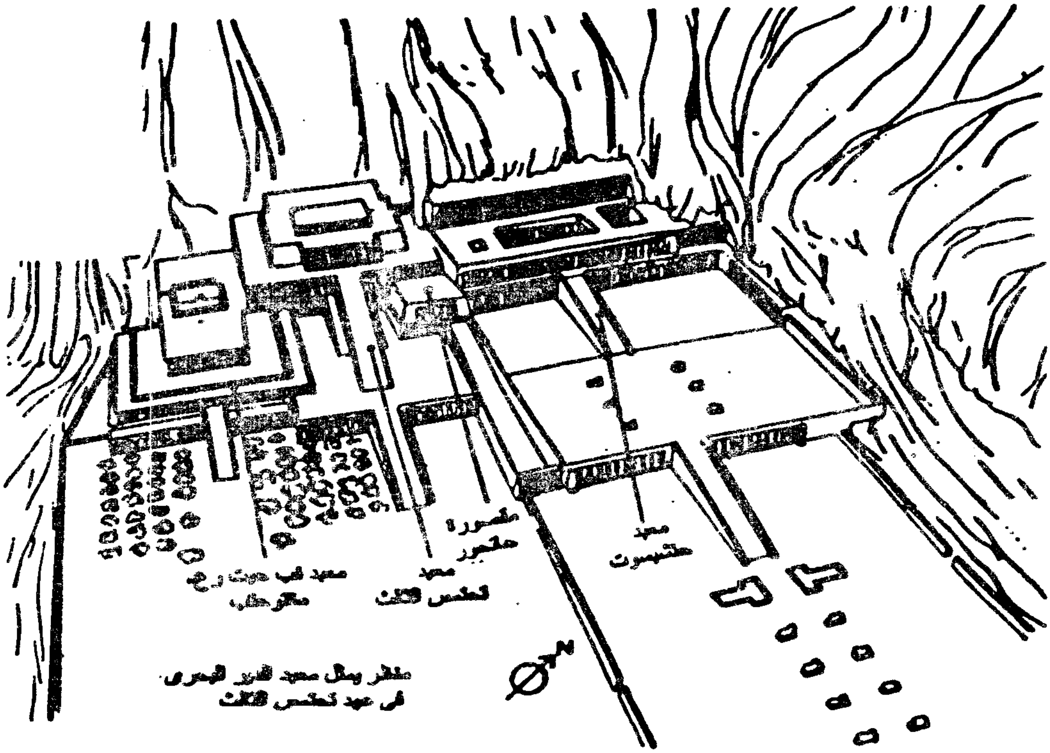

حافة الصحراء
٣- مقابر ملكية - الأسرة الثانية

تخطيط عام ومقطع رأسي لمجموعة الهرم المدرج
مسار الزيارة موضح باللون الأحمر

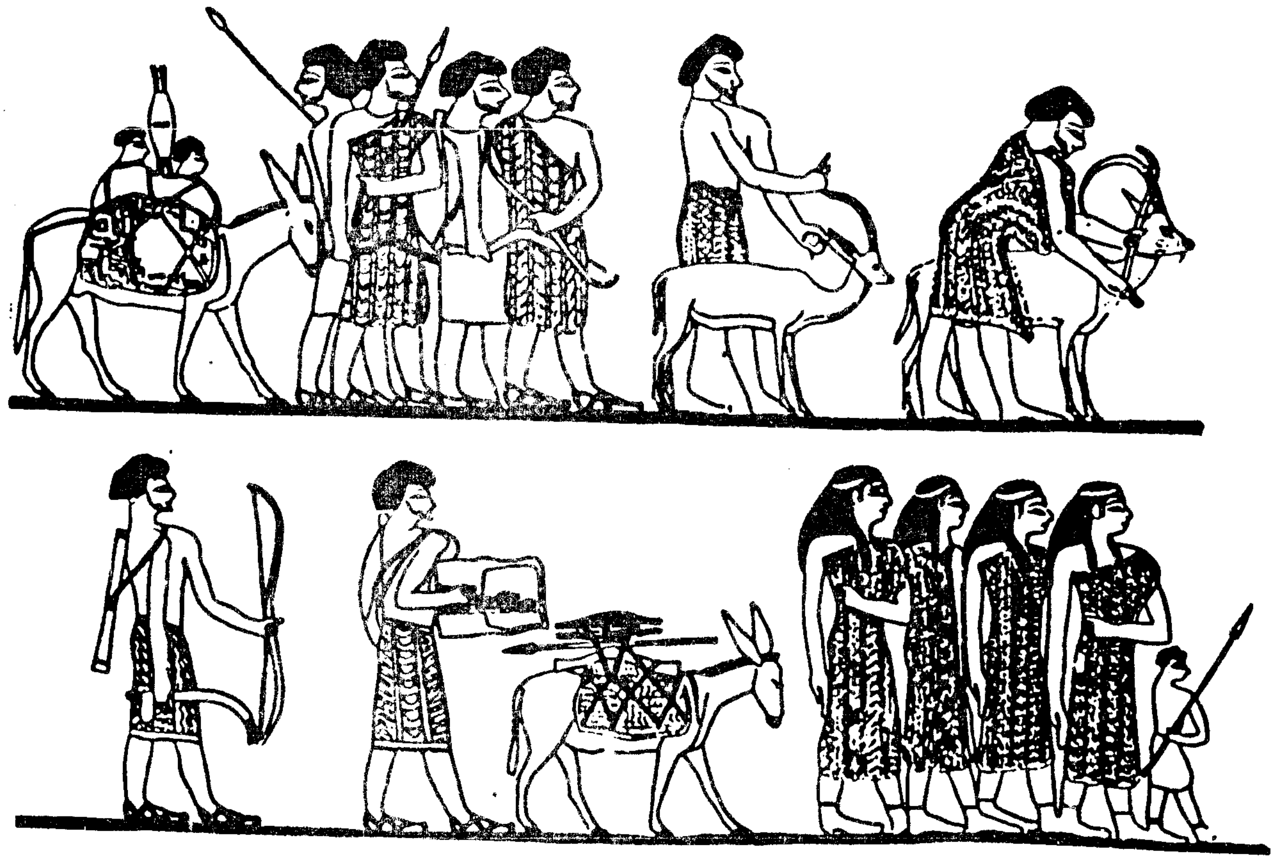




شكل - تخطيط عام لمنطقة أهرامات الجيزه



منظر يمثل معبد الدير البحري في عهد تحتمس الثالث



منظر يمثل مجموعة من الأسيويين
مقبرة خنوم حوتب الثاني - بني حسن

مطبعة جامعة عين شمس